

فهد المارك

الجزء الرابع

الفصل الأول

إكرام رفيق السفر والذود عنه

« إذا كنت رباً للذلول فلا تدع   رفيقك يمشي خلفها غير راكب »
« أنخها وأركبه فـإن حملتكما   فذاك وان كان العقاب فعاقب »

حاتم الطائي

من أروع الحوادث وأشهرها ذيوعاً

- ١ -

خليق بهذه القصة وأمثالها من القصص الواقعية المنبثقة من وحي الصحراء والصادرة من صميم حياة أبناء الجزيرة بصورة طبيعية لا كلفة فيها ولا تصنّع والنابعة (من شيم العرب) الموروثة من عاداتهم الاجتماعية منذ فجر التاريخ .. خليق بها ان يؤخذ منها فلمٌ سينمائي..

ليعرف الأحفـــاد من ناطقي الضاد كيف كان أجدادهم يتحملون المشاق والتضحية في سبيل مواساة بعضهم لبعض وكيف كان يبلغ الفرد منهم من الجوع والظمأ درجة يشرف بها على الموت، ومع ذلك يستمر، بكرم خلقه، مؤثراً رفاقه على نفسه ..دون ان يكون ثمة رقيب يحصي عليه عثراته اللهم إلا مراقبــة ضميره الحيّ لأعماله، وشهادة وجدانه العامر بالإيمان على أفعاله ..

ودون ان يفكر بأن يمنح وساماً تقديراً لما قام به أو تقدم له مكافأة مالية مقابل جهوده وتضحياته، أو تذاع أعماله من أجهزة الاعـــلام العالمية، أو تنشر صوره على صفحات الجرائد . بل دون ان يخطر له ببال ان يأتي كاتب بعد مئتي سنة أو أقل أو أكثر فيكتب عنه ..

واني كانسان حكمت عليّ ظروف خاصة (لا يسعني شرحها) فعشت بين ظهراني أهل البادية الرحّل فترة من الوقت - جعلتني في خلال تلك الفترة أرى عن كثب ان المقياس الأساسي لأهل البادية هو كل معنى يمت الى المثل العليا بأية صلة .

وكم رأيت بعضاً من رجالهم الذين لا يملكون من الابل اللهم إلا راحلتين ولكنه رغم فقره هذا أجد جماعته ينظرون اليه بعين طافحة بالتقدير والاجلال فإن أقبل عليهم قاموا عن أمكنتهم وقدموه على أنفسهم ، وأن تحدث أصغوا لحديثه كأن على رؤوسهم الطير ، وأن أديرت القهوة قدم له الكأس الأول ، بينا رأيت بعيني رأسي رجالا يملكون كثيراً من الابل فيأتي هذا الى أنديتهم فلا يؤبه له ، فاسأل عنه فأجده عارياً من الصفات التي يتمتع بها سلفه .

والقصة التي نحن بصدد ذكرها الآن وقعت في سنة ١٣٠٣ هـ وكما هو شأني في استقصاء الأخبار حتى لا أضع في الكتاب هذا إلا القصة الصحيحة .. لهذا فقد رويت هذه القصة عن عدة مصادر وكانت تلك المصادر قد تختلف من حيث الأسلوب فقط ، وأما من حيث الأصل فإنها كلها متفقة . وبالرغم من شهرة هذه القصة وذيوع صيتها بحيث أصبحت تشبه قصة المهادي (١) من حيث الشهرة بين الأوساط الشعبية حتى أنك قل أن تجد مواطناً من رواة أدبنا القومي إلا وهو يعرف تفاصيل هذه القصة التي أطلق عليها اسم (خوة الشلقان) ..

أقول بالرغم من ذلك فقد كنت شديد الحرص على ان أنقل هذه القصة من

---

(١) قصة المهادي هي القصة الاولى من هذا الكتاب في صدر الجزء الاول .

(الكاسب) ابن عبكلي، رئيس عشيرة الشلقان من قبيلة شمر، لا لكونه ابن رئيس أبطال القصة أو بصفته سمع قصتنا هذه من والده أكثر من مرة فحسب، بل لكون الكاسب ثقة وصدوقاً ورزيناً بروايته . ولذلك انتهزت عطلة عيد الفطر لعام ١٣٧٥ هـ الموافق ١٩٥٥م حينما كنت موظفاً في سفارة حكومة وطني في دمشق وذهبت الى بلدة (عرعر) التي كان الكاسب مقيما فيها وقتذاك فارتويت الماء الزلال من ينبوعه حتى ان بعض أبيات من القصيدة كانت مفقودة عندي فوجدتها عند الكاسب .

ما أعظم سروري عندما أجد قصة شيقة كهذه ، ومن ثم أجد رواة ثقات كالكاسب! وقد يتضاعف اطمئناني عندما أجد قصيدة شعبية قالها بطل القصة . عندها تكون القصيدة مؤيدة لصحة القصة مائة بالمائة ..

كنت أصغي لرواية الكاسب بكل حواسي عندما بدأ يسرد القصة بهدوئه المألوف وعلى طريقته البدوية البعيدة عن التكلف والتصنع وبأسلوب رزين وإلقاء شيق . وقد شعرت عندما كنت استمع لحديث الكاسب .. انني أعيش وسط أبطال الحادثة، وذلك عندما ظل يشرح لي القصة ويصورها تصويراً واقعياً . ولئن كنت أشك في قدرتي على نقلها بالاسلوب الشيق الشعبي الذي أورده ابن بطل القصة فانني واثق بعون الله انني سوف أروي القصة باسلوبي الخاص الذي، وان اختلف عن اسلوب الكاسب الشعبي فانه، لا يختلف البتة عن أصل ومعنى القصة التي نقلتها منه على الوجه الآتي :

كانت الغزوات وقتذاك متبادلة بين قبيلة شمر وبين قبيلة الحويطات ، ولما

---

١ . الكاسب ابن عكلي ووالده أحد الابطال الثمانية لهذه القصة والان لا يزال على قيد الحياة .

كانت عشيرة الشلقان تقطن الحدود الغربيـــة من ناحية شبه الجزيرة وقبيـــلة الحويطات تقطن الجهة الشرقيـة من الاردن والمتاخـــة لحدود الشلقان ، فان الاحتكاك يكون دائما ، والغزوات بين الجانبين مستمرة بصورة طبيعية ..

وفي عـــام ١٣٠٣ تسلل ثمانيـــة رهط من عشيرة الشلقـان برئاسة عبكلي ،والد الراوي كا ذكرت آنفاً ،قاصدين غزو قبيـــلة الحويطات.ولم يكن الحويطات قريبين من اراضي عشيرة الشلقان هـــذه المرة ، بل تركوا منازلهم المتاخمة لأعدائهم ورحلوا الى الأرض التي فيها الكلأ والمرعى الخصب لإبلهم .. وهم مع ذلك لم يتجاهلوا أعداءهم ولم يسقطوهم من حسابهم ،بل كانوامتخذين لهم كل الاحتياطات والحذر بصورة مكنتهم من ســـبر غورهم ومعرفة حركاتهم واتجاهاتهم ..

ظل الغزاة سائرين في سبيلهم بين الغفلة والغرور ،حتى دنوا من ارض العدو، وعند ذلك بعثوا فتى من امضاهم بسالة واقداماً،ليكون سبّاراً لغور الأعداء .. هل هم منتبهون لهم أم لا ؟ .. كا جرت به العادة في حالة كهذه . ولكن السبر الطائش بحكم ثقته بفتوته لم يهتم بسبر العدو كاهتمامه بسبر المكان الذي ترعى فيه الإبل ..

وكان الحويطات الدهاة قد أحكموا الخدعة فتركوا ابلهـــم في الفلاة ترعى دون ان يكون بجانبها أي فارس لحمايتها كا جرت به العادة . اللهم إلا رعاة الإبل الذين لم يحمل واحدهم سوى العصا وما أن رأى رسول الغزاة الإبل الكثيرة العدد تسير وحدها بدون أن يكون هناك من يحرسها من الفرسان حتى عاد الى رفاقه يزف اليهم البشرى السارة والأخبار الطيبـــة ، فتهلل وجه كل فتى منهم سروراً واستبشروا بـــدون أن يخطر ببال اي واحد منهم بأن هذه الابل انما هي طُعم مقدم لهم ليصطادهم العدو به .

الفخ المنصوب وما وراءه

كان منظر الابل الكثيرة العدد مغرياً للغزاة ومشجعاً لهم على الاقدام ، فلم يتأخروا عن صب غاراتهم عليها ونهبهم لها.وعندما تم لهم الفوز باختطاف الابل وذهابهم بها مسافة بعيدة عن فلاتها الى حد ما ،وظن الغزاة أنهم بلغوا امنيتهم وراحوا يهزجون أناشيد المنتصر الظافر – في تلك اللحظة انقضت عليهم خيل العدو بفرسانها البواسل وطوقوهم من جميع النواحي .

عندئذ أفاق الغزاة من غفلتهم بدون ان يتنازلوا عن كبريائهم وغرورهم ، فظلوا في بداية الأمر يقاتلون الفرسان ظناًمنهم جهلا ،أنهم، بمقدرتهم أن ينهبوا الابل مع كثرة عدد أهلها الفرسان الذين أحاطوا بهم ،ولكن ظنهم هذا سرعان ما تفتت على صخرة الواقع وعلى كثرة عدد وعدة الفرسان الذين لا قبل لهم في مقاومتهم . فتركوا الابل مرغمين .وظل القتال يدور حول رحالهم فظلوا هم والفرسان بين كروفر . وبالتالي استطاع الفرسان ان يأخذوا رحالهم من بين ايديهم ولم يبق الآن إلا ان يأخذوهم قهراً بدون قيد ولا شرط . ولكن الفتيان قاتلوا قتال المستميت عند هذه الناحية ، فطال القتال واشتد الصراع بين الغازي والمغزو وسقط أحدالغزاة الثمانية مكسور الرجل .وكان المصاب من أبرزهم وهو الفتى الذي اختاروه ليكتشف لهم ابل العدو فأصبح الغزاة المكافحون سبعة . وبعد سقوط هذا الفتى ضعفت عزيمتهم.ولكنه ضعفلم يصل بهم الى حد الانهيار الذي من شأنه ان يستسلموا بدون قيد ولا شرط ، كما يريد العدو .بل ظلوا مصرين بعناد واستمروا يقاتلون بضراوةوعنف،حتى يئسالعدو من استسلامهم. عندئذ قبل العدو أن يعطيهم عهداً بأن لا يمس أحداً منهم بسوء ولا يهان أو تمس كرامة أي منهم على ان يسلموا أسلحتهم ورحالهم . فوافق الغزاة على قبول هذه المعاهدة التي كان العدو في اول الأمر مصراً على عدم قبولها .

معان تستحق الاعجاب

كان في المعاهدة التي وقعت بين الجانب الغازي والجانب المغزو اكثر من معنى من المعاني التي تستحق الاعجاب في شيم العرب وأخلاقهم.

اولاً – ان الغزاة عندما كانوا مصرين على القتال حتى الموت كانت غايتهم من ذلك ان يموتوا قتلى معركةٍ خيراً من أن يموتوا أسرى مكتوفي الأيدي .

هذا فيما اذا أراد عدوهم ان يحكم عليهم بالابادة ، مع العلم انه من اندر النوادر ان يقتل العربي أسيره .

ثانياً – ان الغزاة مع يقينهم من ان حياتهم مضمونة ولكن بعد المنة من عدوهم .. لذلك فضلوا ان يقاتلوا حتى يموتوا وهم أباة شم الأنوف على ان يتكرم عليهم عدوهم بمنة من عنده. هذا بالنسبة للغزاة. اما بالنسبة المغزوين فان هناك دليلاً واضح المعالم على احترام العربي للعهد ، والا من يعلم عن هؤلاء الغزاة فيما لو أراد المغزوون ان ينكثوا بعهدهم ويقتلوهم جميعاً عن بكرة ابيهم ثم يدفنوا جثثهم في تلك الصحراء الخالية من أي انسان او يتركوهم في الفلاة لتأكل لحومهم الطيور والوحوش .. ترى لو أراد الحويطات ان يفعلوا ذلك ، أهناك رقيب يعاقبهم او يعيبهم اللهم الا رقابة ضمائرهم لهم ليس الا ... كل هذه المعاني تعطينا أعظم الأدلة على ان هناك اخلاقاً مثلى في أمة العرب راسخة الأصول ..

مشكلة الجريح ، او الامتحان الاعظم

عاد المغزوون الى أهلهم منتصرين على اعدائهم ومغتنمين رحالهم النجيبة التي عرفت عند بادية شبه الجزيرة بالاصالة .

ويمكن ان الذلول الواحدةمن هذه الرحال التي اغتنمها الحويطات تساوي عدداً كثيراً من النياق الأُخرى ..

ولكن الخسارة التي مني بها الغزاة لم تقف عند حد خسارتهم في رحالهم وأسلحتهم فحسب ،بل وهناك قضية رفيقهم الجريح الذي ليس باستطاعتهم حمله على اكتافهم من مكانهم الى أهلهم وهي مسافة خمس عشرة ليـــلة ، أيتركونه وشأنه ويذهبون لينجوا بأنفسهم ، فهذا شيء فيه عيب وعـار على فتية أمثالهم حسب العادات العربية ؟.

ظل الفتيان يستعرضون جميع الحلول الخاصة بحل هذه المعضلة وكل حـــل يستعرضونه يجدونه عقيماً،وكل باب يحاولون الدخول فيـــه يجدونه موصداً في وجههم ، كانوا يتداولون الرأي فيا بينهم في مكان نامٍ عن الجريح الذي كان ملقى على ظهره والدم والمخ ينزفان من جرحه الخطير ..

لقد ادرك الجريح ان رفاقه لم يبعدوا عنه الا ليتحدثوا في امره ، كما ادرك ان وضعه الحالي جعلهم في حيرة من أمره وعندما رأى الفتى انه سوف يكون حجر عثرة في سبيل نجاة رفاقه ، عند ذلك صاح برفاقه قائلاً :

– انني أشعر الآن انني في حالة احتضار تدب في جسمي .. ولذلك أحب ان تتركوني وشأني فان شئتم ان تصلوا عليّ صلاة الميت فبها ، لأنني بحكم الميت لا محالة .

كان كلام الجريح معزياً لهم لأنه عبّر عن وضعه الراهن بأنه لا أمل له في الحياة ، وعلى هذا الاعتبار أصبح صاحبهم من عداد الأموات ...

فتداولوا الأمر ثانية فوجدوا ان لا حل لقضيتهم إلا ان يأخـــذوا برأي

الجريح الذي هو أسلم الحلول ، فراحوا يودعونه وأعينهم تفيض من الدمع المنهمر حسرة وحزناً على رفيقهم الذي حكمت عليهم ظروفهم القاسية ان يتركوه بحالة كان فيها بين الحياة والموت ، وهو الى الاخير أقرب .. أما الجريح فلم يبدر منه أي جزع ولم يشارك رفاقه بالعبرة بل كانت عيناه يشع منها الحزم والجلَد..

ودّع القوم رفيقهم الجريح وذهبوا من عنده يتناحبون ..ولكن ذهابهم كان بأجسادهم فقط ، أما قلوبهم فقد تركوها عند جريحهم البائس ، وكانت أبصارهم تمتد بين خطوة وأخرى نحو رفيقهم ، وكلما مشوا خطـــوة انحرف الفتية الى رفيقهم يودعونه بالحنين والدموع ، وقبل ان يتوارى منظره عن أبصارهم رأوا منظراً مؤلماً ضاعف حسرتهم ، وكان منظراً محزناً حقا ومؤثراً .. منظر تلك النسور المعتادة على اكل لحم قتلى المعـــارك التي حامت حوله ثم هبطت عنده وراحت تدنو منه ..

بعدما رأوا هذا المنظر الفاجع الرهيب لم يكن في وسعهم ان يصبروا وإنمـا كرّوا راجعين عليه كرة رجل واحـــد ، مقررين ان يربطوا مصيرهم بمصيره ، فتعاهدوا ان يموتوا جميعاً أو ينجوا جميعاً. وبينما الجريح يحاول ان يطرد النسور ما استطاع بالحجارة وفي الوقت الذي رأى انه أعجز من ان يُطـــير عشرات النسور التي دنت منه لتتقاسم اشلاءه ، وبينما النسور في سرور وحبور على وجود لحم ذلك الفتى الذي إذا لم تبادر في التهامها ما لذ وطاب من لحمــه فان السباع سوف تشم رائحته وتسبقها إليه ، في هذه الفترة التي احتدم الصراع فيها بـــين الجريح والنسور في تلك اللحظة الحاسمة لم يشعر الجريح إلا بهرب النسور من حوله بدون ان يعلم عن السبب ، لأنه كان ملقى على ظهره . وفي سرعة البرق وجد رفاقه يحيطون به قائلين بلهجتهم الشعبية :

ـ أبشر بأمك .. ابشر بأمك .. يكررون هذه الجملة ويرقصون حوله عن عن يمينه وعن يساره ومن خلفه وأمامـــه .. والمعنى من هذه الجملة اطمئن كأنك عند أمك ..

الصورة الناطقة

حاول الجريح هذه المرة أن يقنعهم ليتركوه كما اقنعهم في المرة ، الأولى غير ان كلامه هذه المرة لم يجدِ قطعياً ولم يؤثر على هممهم بل زادهم إصراراً وتمرداً قائلين له :

ـ انك بكلامك هذا تهزأ بنا وتسخر منا،وإلا كيف يعقل ان نمضي ونتركك لتمزق أشلاءك الطيور ونحن ننظر اليك رؤية العين !

ثم أردفوا قائلين : إياك أن تحدثنا بشيء من حديثك هذا الذي يحمل طابع السخرية والتثبيط في آن واحد. وختم الفتية حديثهم مع رفيقهم بقولهم عليك أن تثق بأننا قررنا ان نربط مصيرنا بمصيرك.. فاما أن نموت سوياً وإما أن تكتب لنا جميعاً النجاة والسلامة . وليس هناك حل وسط بين هذين السبيلين . .

كان الفتيان مصممين ولا يمكن ان يتراجعوا عن عزيمتهم ،وانما المشكلة الآن هي طريقة حمله ..

فكر الفتية في الطريقة التي يتمكنون بها من حمله، فوجدوا انها معقـــدة، اللهم إلا أن يحملوه على طريقة النعش كما يحمل الميت بصورة يتراوحون حمـله على أربعة أنفار ، وإذا تعب الأربعة الأولون يحمله الآخرون .. وبما أن عددهم سبعة فقد أصبح ينقصهم واحـد عندما يأتي دور الثلاثة .. فهذه ايضاً مشكلة

والمسافة بعيدة المدى.. ولكنها لم تكن مشكلة مستعصية الحل وذلك ان فيهم رئيسهم عبكلي الذي كان عملاقاً قوي البنية قوة تزيد عن رفاقه .. لهذا اكد لجماعته بأنه على استعداد متى ما جاء دوره فانه سوف يقوم بمهمة اثنين من رفاقه ، وعندئذ انتهى الاشكال عند هذه الناحية .. بقي الآن قضية العدة التي يحملون جريحهم عليهافالامر يحتاج الىعصي والىحبال يوثقون فيهاالعصي.. وقضية العصي موجودة وليست مستعصية وذلك انه بالامكان ان يؤتى بها من الاشجار التي في الفلاة وان يكن قطع الاشجار ليس بالسهل لمن ليس معـــه اي عدة تعينه على قطعها كهؤلاء الذين جردهم العدو من كل شيء ما عدا القميص الذي يستر به الفرد منهم عورته ... ولكن مع هـــذا استطاع الفتيان ان يتكاتفوا جميعاً على غصون الأشجار وفي تكاتفهم ما يسهل عليهم قطع ما يريدونه من الشجرة بأيديهم طبعاً .. بقي عليهم قضية الحبال التي يربطون بها العصي وهذه ايضاً تكاد ان تكون مستعصية !الا انهم وجدوا حلا لهـا بأن قطع كل فرد من قميصه قطعة مستطيلة من طرف القميص الادنى الى آخـــره فأصبح الأمر متيسراً عليهم حيث جمعوا هذه القطع وابرموهـــا حتى كانت كالحبل .. وعندها حزموا بها العصي وجاءوا بجريحهم ووضعوا له وقاية مـــن الحشائش على هذه العصي ثم حملوه على أكتافهم وراحوا به يغنون ويرقصون متحدين المشاق والطبيعة القاسية والشمس المحرقة .. ذلك ان الفصل كان صيفاً كما وصفه الشاعر في قصيدته الآتية والتي تعتبر وثيقة تاريخية لقصتنا هذه بصورة عبرت لنا أبلغ التعبير عن مراحل هذه القصة . . ولحسن الحظ كان الشاعـــر هو الجريح بالذات الذي نوافي القارىء بقصيدته الآتية :

١ ـ البارحة عن لذّة النوم سهّار
بأيمن صَرَغ لاجاه وبل الشّخَاتير

الشرح : في صدر البيت يقول الشاعر انه في الليلة الماضية لم يطب له النــوم وإنما ظل في حالة سهر وقلق ..

أما قوله في عجز البيت بأيمن (صرغ) يعني موضعا للسكة الحديد الحجازية السورية الواقعة بين طريق الاردن والحجاز .. والشاعر هنــــا يحدد المكان الذي وقعت فيه المعركـــة بين رفاقه وبــين أعدائه واصفا المكان بأنه يكون – يمينا عن (صرغ) سالف الذكر . أما قوله (لاجـــاه وبل الشخاتير) فهو بذلك يسأل الله ان لا ينزل الى هذا الموقــع قطرة من الغيث معتبراً ان هذا الموقع مشؤوم بحكم انه اصيب فيه بهذا الجرح..والبدو يتشاءمون من المنازل التي تصيبهم فيها كارثة .

٢ – لَحـَـقوا هَلْ البل فـُوْق عَدْلات الأزوارْ
قب تقاهق روسهْن كالحنـاز يرْ

يصور لنا الشاعر وضع أصحاب الابل عندما أحاطوا بهم فيقول انهم سرعان ما جاءنا اصحاب الابل ممتطين افراسا اصيلات ممتدات الرقـــاب .. أما قوله (كالحنازير) فمعنى ذلك ان خيل الفرسان الذين لحقوا بهم كانت سمانا كسمنة الخنازير . . والشعراء الشعبيون كثيراً ما يصفون الخيــل من حيث السمنة بالخنازير . .

٣ – ربع بغونا طفحة قبل الأشوار
لكن جبرنام على المنع تجبير

يقول ان اعدائنا عندما رأوا قلتنا طمعوا بنا بشكل جعلهم يظنون انهم ينتصرون علينا بدون قيد ولا شرط .. ولكننا قاتلنـــا قتال المستميت حتى

اوقفنام عند حدهم وأخذنا منهم عهداً على دمائنا وحرمتنا ..

٤ – قبل أمس وانا للصناديد سبار
والیوم یامشکای للرجل مادیر

يصف الشاعر وضعه الراهن ويأسف لحالته الواقعية فيقول : كيف كنت بالأمس الشاب السليم القوي والفذ الوحيد الذي يختاره قومه الصناديد ليسبر لهم ابل العدو ، بينما اجدني الآن عاجزاً عن تحريك رجلي .. مشيراً الى الجـرح الذي أصابه ..

٥ – قلت أرشِدوا حَقّي من الآخرة صارْ
مع السلامة یاحمُاة المظاهيرْ

يفيدنا الشاعر انه حينما رأى نفسه في حالته السيئة الخطرة ، عند ذلك اعتبر نفسه ميتاً لا محالة فقال لرفاقه اسلكوا سبيل الرشاد وانجوا بأنفسكم لأنـــي مفارق الدنيا وسوف انتقل الى مقري الأخير بعد دقائق محدودة ، هذا ما قاله في صدر البيت أما ما يعنيه في عجز البيت عندما قال يا حماة المظاهير فمعنـــاه يقول انني استودعكم الله أيها الأبطال و يا حماة الوطن والمحارم ..

٦ – قالوا نِشيِلكُ فوقْ الأمتان بحِصَار
ذرب كلامك لاتـَقـُولْ المصَاخير

يقول الشاعر الجريح انه عندما قال لرفاقه : اذهبوا لتنجـــوا بأنفسكم واتركوني وشأني كان الجواب من الرفاق قولهم : لن نتركك قطعياً وإنما سوف نحملك على أكتافنا وسوف نضع لك وقاية لينة ، وهذا ما أشار اليــــه في قوله

(حصار) مفردها (حصره) وهي عبارة عن وقاية لينة يجلس عليها الراكب على الراحلة لكي لا يشعر بالملل .. وهذا ما يقصده في صدر البيت اما في عجز البيت فانه يزيدنا وضوحاً بأن رفاقه عندما قال لهم اتركـوني اجابوه بعنف ولهجة شديدة قائلين له : (ذرب كلامك) اي اسحب كلامك الذي اسأت به التعبير نحونا .. وأما قوله (لا تقول المصاخير) يعني ان رفاقه قالوا له : انك بكلامك هذا تزدرينا وتسخر منا .. ويقال فلان يتمصخر اي معناه يزدري ..

٧ – خمسة عشر ليلة وانا ثِقِل بحصَارْ

متمركي تحـتي ظهور المناعـير

في هذا البيت يعطينا الشاعر حقيقة تاريخية عن عدد الايام التي قضاها وهو محمول على اكتاف قومه وهي كما حددها بالذات خمسة عشر ليلة وفي عجز البيت يصف الجريح وضعه فيقول انني قضيت هذه المـدة جالساً مطمئناً على ظهور الابطال الصناديد بصورة مستنداً فيها كأنني على سرير .

٨ – اثنين لي حضّاي واثنين حضّارْ

غدوا لِيْ اجوازِ تقل حطحطتْ ظير

يصف الشاعر كيف كان رفاقه يعتنون فيه عناية فائقة ويرأفون بـه رأفة ربما لو كان عند والدته لم ترأف به اكثر من عناية رفاقه ورأفتهم به بعـد ذلك يشرح الجريح بوضوح ودقة مؤكداً بأن رفاقه عـلاوة على حملهم له على اكتافهم نصف شهر فانهم ايضاً كانوا يتنافسون على العنـاية بتمريضه ومؤانسته فيقول انهم يتقاسمون العناية به بصورة يكون فيهـا اثنان مهمتهما تمريضه والعناية به واثنان آخران مهمتهما مؤانسته وتسليتـه .. واما قوله : تقل حطحطتْ ظير – فهذا يعني ان عنايـة رفاقه به ورحمتهم له وعطفهم وشفقتهم عليه أشبه ما تكون بعطف وشفقة الناقة على ابنها الصغير ..

٩ ـ والى اوجسوا اني من الشبل فتّار

قاموا يقصرون الخطــا لي تقصير

يا الله ما اعظم ما يصف الشاعر بكل امانة الطريقة التي كان رفاقه يعاملونه بها معاملة لطف وحنان ورأفة فيقول ان رفاقي عندما يحسون انني متـألم من الجرح فانهم بحالة كهذه يقصرون خطاهم ويمشون الهوينا لكـي لا اشعر بالالم كجريح محتاج الى الراحة والهدوء ..

١٠ ـ حفايا بالقيظ جهّال واصغار

هو كيف لو عقلهم لي حواضـير

يصف الشاعر في صدر البيت رفاقه بأنهم كانوا يتحملون هــذه المشقة وهم حفاة .. كما يعطينا دليلا ملحوظاً من حيث الزمان بأنه كان صيفاً كما يؤكد لنا بأن رفاقه فتية حديثي السن ولم يكونوا من الرجال الذين عركهم الدهر ... وهذا معنى قوله (جهال واصغار) يعني انهم فتيان تنقصهم التجربة ومعنـاه انه يتعجب مما يراه من هؤلاء الفتية الذين لم يؤثر عليهم الحفـاء والذين اثبتوا من الصبر والجلد واحتمال المشاق والمكاره الشيء الذي لا يستطيع ان يتحمـــله الا الرجال المحنكـــون المجربون .. وفي عجز البيت يقول : ما دام ان هذه اعمال الفتيان الحديثي السن والغير مجربين اذن كيف تكون مواقف الرجال الذين سبق ان عركهم الدهر ومارسوا الشدائد اكثر من هؤلاء الفتيان الذين عمليتهم هذه هي اول تجربة من نوعها :

١١ ـ عجبت لدم وجيههم كيف ما غار

كأنهـــم بــــداة للمصنّع مساير

يعطينا بطل القصة مثالاً حياً عن شدة جلد رفاقه ومتانة عودهم فيقول : ليس موضوع العجب في هؤلاء الفتية تحملهم لهذه الشدة وصبرهم على تلك المتاعب

فحسب ، فهذه الناحية عند الشاعر ليست محل العجب وانما الذي جمل اعجابه يتضاعف برفاقه هو ما يبدو لـــه من بشاشة وجوههم بصورة تبدو ليست مصطنعة ولم يكن فيها ادنى شيء من التكلف .. ثم يمضي الشاعر فيقول انني ارى وجوه هؤلاء الفتية تشع سروراً وطرباً .. واما قوله : كنهم بداة للمصنع مسايير) اي كأنهم سائرون الى الملهى الذي يطرب فيــه الشباب (والمصنّع) اشبه ما يكون بالمسرح اللهم الا ان المصنع بريء من الخلاعة التي تحدث في ملاهي المدن ، وغاية ما يكون في المصنّع هو ان يحضره جماعة من فتيان الحي وفتياتهم كما يحضره نفر من كهولهم ، ومن ثم يأتي شاعر من هؤلاء الفتيــان وينشد ابياتاً شعبية فيصفق الفتيان الحاضرون ويرقصون رقصة قومية على نغمات تلحين الشاعر على ان يكون في وسط هذا الحفل فتاة تسمى (الحاشي) وهـــذه الفتاة هي محور الحركة ، وهي التي تمثل دور المطرب لانها الأخرى ترقص على نغمات اناشيد الشاعر التي يرددها الفتيان ، واذا انتهى دور هذه الفتاة جاءت فتاة اخرى تمثل الدور نفسه .. وطبعاً لا يكون هذا الا في المناسبات الطارئة كالاعياد السنوية والافراح وما شابه ذلك .. وبالنظر لما في هذا (المصنع) من مكانة مرموقة في نفوس شباب البدو حيث يجدون فيه ما تصبو اليه نفوسهـــم من سرور وسلوة وابتهاج .. عندما يتجهون اليه ، بالنظر الى ذلك نجد الشاعر يصف بشاشة وجوه رفاقه عندما كانوا يحملونه بانها تشبه بشاشة الفتيان في حالة اتجاههم الى المسرح الذي يلهون ويمرحون فيه ..

١٢ ـ مَعْهم هِدِيْبَ الشّامْ حالْ القَطَارْ

زودٍ على حِمِله نَقَلْ جِملْ مادِرْ

يمتدح الشاعر رئيس الغزاة المدعو (عبكلي) سالف الذكر فيقول انه بقوته وشدة احتماله اشبه ما يكون بقوة وجلد الجمل الذي كان يؤتى به في موسم الحج وفي الزمان السابق لتوضع عليه حمولة ثقيلة ، فتتقدم الحجـــاج الذين يأتون من سورية ويسمى هذا (جمل المحمل الشامي) وهو بضخامته ومظهره يختلف عن

مظهر الجمال العادية اختلافاً كلياً ، وقد سبق ان اشرت من قبل بان (عبكلي) كان اذا جاء دوره يحمل الجريح بصورة زائدة ومضاعفة عن حمولة رفاقه له بحكم ان رفاقه ستة غير عبكلي فاذا حمل الجريح منهم اربعة فان البقية يستريحون حتى يأتي دورهم، فالشاعر هنا يشرح لنا موقف عبكلي بوضوح مؤكداً بأنه إذا جاءه الدور كان يحمل الجريح على كتفه بمفرده عوضاً عن اثنين .. وهذا معنى قوله في عجز البيت : (زود على حمله نقل حمل مادير) أي أن عبكلي - علاوة على ما يحمله من سهمه كفرد ، فانه يحمل سهماً(١) ثانياً ، وأن القارىء ليشاركني الإعجاب بشيم العرب عندما اؤكد بأنني رويت هذه القصة وقصيدتها الكاملة من (الكاسب) ابن عبكلي كما ذكرت آنفاً .. وانه عندما جاء الى هذا البيت الذي فيه إطراء لوالده - أغفل البيت بكامله ، ولولا أنني حافظ للبيت من رواة آخرين لما ورد ذكره فيما لو اقتصرت بروايتي التي اخذتها عن الكاسب ، هذا وان الرواة الذين يعرفون (عبكلي) معرفة عن كثب يؤكدون أن في كتفيه بقعة سوداء أشبه ما تكون بحرقة النار التي أنضجت كتفيه وذلك من تأثير عصا النعش الذي كان يحمل به رفيقه على كتفيه ..

١٣ - تراه الى جادْ أوّل العِشْ مَابَارْ

لازم أن التّالي يجيي لَه نَوابير

في هذا البيت يؤكد لنا الشاعر عن إيمانه بما للوراثة من تأثير فيقول إنه اذا كان الأصل عريقاً فمن الواجب أن يكون الفرع طيباً ايضاً مشيراً في ذلك الى أن رفاقه من بيت عريق في مجده وأصيل في حسبه ونسبه .

١ - ليس هذا بالغريب من عبكلي .. لقد رأيته في الرياض في العقد الثامن من عمره ، وكان شبحاً عملاقاً وكم كنت معجباً بمتانة عضلاته وقوة بنيته . فلا غرو ان يكون في عنفوان فتوته كما وصفه الشاعر .

١٤ ـ حمدت ربٍ زَيّنه والأقدار

زفن من الجَمّه إلى مطلـعْ البئر

يحمد الشاعر الله الذي أنقذه من العطب أن كان يائساً من حياته ..

هذا وأنني اعتقد جازماً أن القصيدة اكثر مما أوردت بالسياق وذلك أنني أجد بين القصيدة وبين البيت الذي يليه عدم أرتبـاط بالمعنى مع بعض الأبيات كعدم الأرتباط بين البيت الرابع والخامس .. وإلى القارىء القصيدة متسلسله لكي يتضح عدم الارتباط المشار اليه بصورة أوضح خاصة للقارىء الذي يعرف ويتذوق أدبنا القومي :

١ ـ البارحـــة عن لذّة النوم سَهّـــارْ

بأين صرغ لاَ جاه وبل الشّخَاتيرْ

٢ ـ لحقوا أهل البل فَوقَ عدَلات الزوارْ

قبٍ تَفاَهق رُوسِهن كالخَـــنازيرْ

٣ ـ ربعٍ يَغنوَنا طَفحةٍ قَبَل لا شوَارْ

لكن جَبَرنَـام على المَنْــع تَجْبيرْ

٤ ـ قَبِلْ أمس وانَا للصّناديدْ سبّارْ

واليومَ يَا مشكاي للرجل مـــادْيرْ

٥ ـ قلت أرشدوا حقي من الآخرة صَار

مع ٌ السلامة يــا حمـاة المظـاهير

٦ ـ قالوا نشيلك فوق الامتّان بِخصّارْ

ذرّب كلامكَ لا تقول المصاخيرْ

٧ ـ خمسة عشرَ ليلةْ ونا ِيقل ِبحصارْ

متمركي تحتي ظهـور المناعيرْ

٨ ـ اثنين لي حضاىَ واثنين حضارْ

غدو لي أجواز تقلْ حطحطتْ ِظيرْ

٩ ـ وإلى أوجسوا أني من الشيل فتارْ

قاموا يقصّرون الخطى لي تقصيرْ

١٠ ـ خفايا بالقيظ جهّال واصفـارْ

هو كيف لو عقلهم لي حواضيرْ

١١ ـ عجبت لدم وجيهم كيف ما غـار

كأنهم بداة للصنّيع مسـايرْ

١٢ ـ معهم ِهدْيت الشّامْ حمّالْ القطارْ

زود على حمله نقل حملْ مادْيرْ

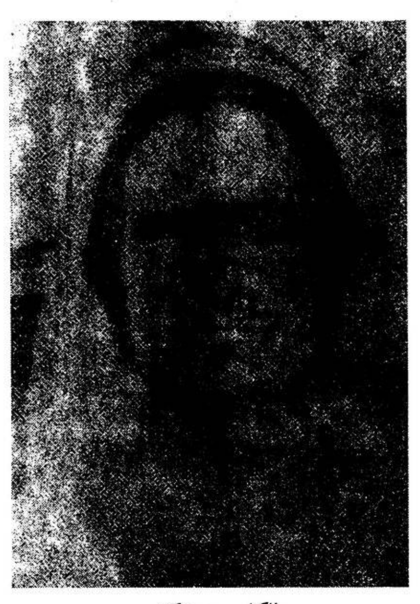
١٣ ـ تراه الى جاد أول العشَ مـابارْ

لازم أن التالي ِيجـي له نوابـيرْ

١٤ ـ حمـدت رب زينـة والأقـدار

زفـن من الجمه الى مطلـع البئر

●



الكاسب بن عبكلي

لسنا بنيهم ولسنا من سلالتهم
إن لم يكن فعلنا من فعلهم أمما

لاحد شعراء العرب

من أروع معاني الإيثار

مما لا شك فيه أن القارىء حينما يتدبر هذه القصة سينظر الى هؤلاء الفتية بعين ملؤها التقدير والإعجاب ، ولكن سوف يتضاعف إعجابه لا محالة حينما يرى ما يثير الدهشة والاعجاب في قصة (الجربوع) التي تعبر أبلغ التعبير عن مــدى إيثار كل فرد من هؤلاء الفتيان لصاحبه على نفسه .

وما هذه القصة الآتية إلا فرع من أصل قصتنا الآنفة الذكر وهي كما يلي :

وجد أحد أبطال هذه القصة (جربوعاً) وشواه ولكن أبت شيمته الكريمة وضميره الحرّ أن يأكله منفرداً دون رفاقه ، ومن المعروف أن هذا الحيوان الذي لا يساوي وزنه خمسين درهماً لا يمكن ان يتجزأ لحمه بين هؤلاء الثمانية فهو إذا عظم كان لقمة سائغة ففكر صائد الجربوع كيف يفعل في جربوعه فدله تفكيره على ان يهب الجربوع الى الجريح المحمول ، فوهبه إياه خلسة دون ان يعلم عـنه احد من رفاقه فوقع في نفس الجريح من الخجل والحياء نفس الشيء الذي وقع لصائده السابق فذهب وسلمه خلسة ايضاً الى من يعتقد انه احدث الفتيان سناً او أضعفهم جسداً فوقع في نفس الفتى الثالث من عزة النفس الشيء الذي وقع في نفسي صاحبيه فقام وسلمه للرابع وقام هذا وسلمه الخامس والخامس بدوره دفعه الى السادس وكان هذا السادس هو الذي اصطاده فذهب بطبيعة حاله وسلمه السابع وهكذا دواليك حتى عاد الجربوع الى الجريح ثانية من يد الى يـد .. وكانت العملية تجري بصورة خفية لا يعلم احدهما عن الآخرين وعندما عاد الى الجريح عن غير الطريق الشخص الذي دفعه اليه حينذاك أدرك ان الجربوع دار دورته على رفاقه جميعهم وأن كل فرد منهم رفض ان يأكله بمفرده دون رفاقه .. ولذلك احتفظ الجريح بالجربوع حتى اذا وصل الى أهله محمولاً هنـــاك أبرز الجربوع أمام حفل من قومه وروى لهم قصته ليشهد لرفاقه عزة نفوسهم من ناحية وليشهد رفاقه له ايضاً بأنه لم ترض نفسه بأكل الجربوع من دونهم ..

ولست بحاجة على أن أؤكد بأن تلك النفوس العربية قد بلغت أسمى ما يمكن أن توصف به نفوس بني البشر من وفاء ونجدة وشمم وايثـــار .. ولعل القارىء يتساءل من أين كان يقتات هؤلاء الفتيان خلال تلك المـدة فالجواب هو ان أعداءهم ربما تركوا لهم أشياء من زادهم الذي جـاءوا به من أهلهم كالتمر و (البقل) أي اللبن المجمد والطحين كما ان الامر لا يخـــلو من أن يصطادوا من حيوانات الصحراء ما يقوم بأودهم كالأرنب مثلا والضب الخ ..

مع العلم بأن البدوي لديه من الصبر ما يضارع صبر جمله بالجلد والاحتمال ..

وأخيراً اليك أسماء الفتية أبطال القصة موضحة :

١ – عبكلي الشلاقي .
٢ – غريب .
٣ – رميح .
٤ – جفران .
٥ – شحاده .
٦ – مشوط .
٧ – مشارى .

وأما الجريح الشاعر فاسمه (بجيديع الربوض) وكلهم من بطن يسمى الزميل وهذه الكلمة تشمل آل شلقان ولكن الشاعر ليس من فخذ الشلقان وانما هو من فخذ يقال لهم الربضان . وكما ان مفرد الشلقان يقـــال له شلاقي كذلك مفرد الربضان يقـــال له الربوض .. والجميع يشملهم اسم عشيرة سنجاره وبصورة أكمل يشملهم اسم قبيلة شمر .

سأدافع عن راحلة رفيقي حتى الموت

- ٢ -

هناك نوع من الناس اذا شعر بأنه يتمتع بأدنى شيء من السلطة بلغ به الغرور حداً جعله يسيء الى نفسه أولاً والى سمعة المصدر الذي ولاه شيئاً من هذه السلطة ولا سيا اذا اصطدم وجهاً لوجه بفتى أبي من أمثال (لافي بن معلث(١) أو كصاحب هذه القصة (٢) خلف بن مخيمر الذي ابتلي بشخص أراد افضل ان يستعمل سلطته كجندي للحكومة بدون اي مبرر وذلك في عام (١٣٥٠ هـ الموافق ١٩٣١) عندما كان خلف يسير في الصحراء الرملية التي تقع شمالاً عن مدينة حائل . وبمحض الصدفة التقى خلف ورفيقه مروي التومي بجنديي الحكومة المدعو البسيس(٣) ويرافقه مليحان ابن ملاقي ، كان هذان الجنديان ذاهبين الى مهمة رسمية فعجزت راحلة فليحان عن مواصلة السير على رأي الجندي المدعو البسيس وكانت راحلة رفيق خلف على جانب كبير من النجابة والصلابة مما جعل البسيس يطمع بها قهراً فامر صاحب الراحلة ان يتخلى عن راحلته قائلا :

ـ ان راحلة رفيقه لا تستطيع ان تواصل السير الى نهايه المهمة وانه ليس من الشيمة ان يترك رفيقه يسير على راحلة هزيلة ضعيفة الجهد ولا سيا بعد ما وجد الراحلة النجيبة التي تقله .

فأجابه خلف بقوله :

ـ ان باعث الغيرة الذي يحدوك على ان تتعدى على حرمة رفيقي هو في

١ ـ انظر قصته في هذا الكتاب
٢ ـ خلف من قبيلة شمر من سنجاره ومن الزميل
٣ ـ البسيس من قبيلة حرب اما رفيقه مليحان فهو من قبيلة شمر

الوقت ذاته يحدوني على أن ادافع عن راحلة رفيقي حتى الموت .

فلم يلتفت الجندي الى كلام خلف بل مضى في سبيله واصر بعناد وراح ونزع شداد رحلة رفيق خلف وطرحه ارضاً ..

فبادر خلف وشهر البندقيه بوجه الجندي وسدد فوهتها نحو صدره وقال :

ـ دع راحلة رفيقي والا سوف تلفظ نفسك الآن ...

ولم يصدق الجندي بان البدوي جاد في تهديده لذلك مضى في سبيله ، حتى انه لم يرد عليه إلا باشارة مليئة بالتهكم والسخرية ، وعندما وجد البدوي ان الجندي متماد باستهتاره همز الجهاز المحرك فانطلق السهم الذي اصاب قلب الجندي فخر ميتاً من فوره .. ولما كانت الحدود الشمالية متاخمة لحدود الصحراء العراقية فقد كان من السهل على خلف ان يهرب الى الحدود العراقية .. وكان مما شفع له عند الحكومة الامور الآتية :

اولاً ـ ان الجندى المقتول كان يحمل هو ورفيقه مرتبات جنود الحكومة المرابطين على الحدود وعندما قتل الجندي وفر رفيقه الجندي الثاني صاحب الراحلة الهزيلة على حد زعم القتيل ، عندما فر هذا هارباً ترك المرتبات ملقاة على الارض وحينما بلغ الحكومة مصرع الجندي بعثت جنوداً يحققون بالامر فوجدوا الدراهم متروكة لم ينقصها القاتل بشيء ، بعد ذلك ثبت لدى الحكومة ان القتل لم يكن بدافع من الطمع .

ثانياً ـ هو ان القاتل بعدما وصل العراق راح يعلن عن نفسه بدون مراوغة وبكل صراحة قائلاً انه هو القاتل لجندي الحكومة وانه على اتم الاستعداد بأن يحضر للبلاد على ان يذهب للشرع الاسلامي الذي ينص حديث النبي الكريم بالمعنى الذي جاء فيه قوله : قاتل عند شراك نعلك ..

وكانت النتيجة ان قبل المسؤولون بحضور خلف من العراق الى المملكة

بمحض ارادته وذهب هو وورثة القتيل الى القاضي الشرعي الشيخ حمود الحسين الشغدلي الذي لا زال على قيد الحياة حتى كتابة هذه الاسطر . وقد انتهى الامر بأن حكم القاضي على القاتل بدفع الدية كاملة لورثة القتيل .

وقد رأيت بطل القصة خلفاً في مدينة الطـــائف في يوم ١٠ \ ٣ / ١٣٧٣ الموافق عام ١٩٥٣ .

وهذه الرواية التي جاءت بالسياق اوردتها نقلاً عن بطل الحادثة نفسه .

لولا رباطة جأشه وقوة بنيته لمات رفيقه

-٣-

عندما يروي المرء حادثة ما عن مصدرها الاساسي يكون لهـــا في نفس الكاتب أثر محسوس حتى ولو كانت الحادثة أقل شأناً من غيرها .

وهكذا وجدتني بالنسبة الى هذه الحادثة التي رويتها من بطلها بصورة مباشرة وذلك عندما كنت في الوطن في عام ١٣٧٤ هـ ١٩٥٤ م في تلك الأيام ذكر لي بعض الأخوان أن شخصاً يدعى (صاهد(١) بن باين) من الرجال الثقاة الذين يحفظون القصص الواقعية فسألت عنه وقتها فقيل انه يقيم في مكة ضمن رجال الأمير عبدالله بن عبد الرحمن ، وكنت أيامهـا أقيم في مدينة جدة فذهبت الى مكة أسأل عن المسكن الذي يقيم فيه الى ان وقفت الى من يهديني عليه ، وعندما وصلت هناك وجدت شيوخاً من البدو فسألتهم عن صاهد فأشار أحد الموجودين اليه فتبادلنا التحية ثم أجلسني بجانبه ولئن كان الرجل قد غشاه الشيب ولم يكن في لحيته شعرة سوداء فان من يراه للوهلة الأولى يدرك أنه كان في شبابه قويّ البنية صلب العضلات مفتول الساعد .. كان تقديري لسنه وقتها لا يقل عن كونه في بـداية العقد السابع وكانت قامته المديدة التي لم تؤثر عليها السنون

١ - صاهد من قبيلة عتيبة .

بالانحناء توحي بأنه أقل من تقديري هذا .. كما ان بشرته الشقراء المـــائلة الى البياض تم عن انه رجل من صميم البادية اللهم إلا ان الابتسامات التي تعلو شفتيه أثناء حديثه تعبرعنه بأنه أمرؤ ليّن العريكة بعيد عن غلظة البدو كما تعبر عن صدق لهجته .

جلست في بداية الأمر بدون أن ابدي لصاهد شيئاً عن الهدف الذى قدمت من أجله ، إلى ان احتسيت أكواباً من القهوة والشاي ، بعـــد ذلك شرحت له غايتي المنشودة فابتسم وقال :

– ان تلك الأحاديث ذهبت مع ذهاب وقتها ولا اذكر الآن شيئاً منها .. وكنت قد أخبرت ان هناك حادثة هو بطلها .. فقلت أريـــدك ان تخبرني عن قصتك مع رفيقك فقال والابتسامة تعلو شفتيه .

– تلك قصة لها الآن أربعون سنة ..(١)

قلت – لا يهمني طول المدة وانما الذي يهمني أن أتلقى القصة من مصدر ثقة كحضرتك . فأود ان اسمعها من فيك ، فأجابني الرجـل بالموافقة وراح يشرح قصته قائلا :

ذهبت غازياً بطنا من قبيلة قحطان يقال لهم : آل سويدان وكان في معيتي ثمانية شباب من قبيلتي وكنت العقيد (٢) لهذا الرهط . وعندما صبنا غارتنا على ابل العدو واغتنمنا منها ما امكننا اغتنامه ، بعد ذلك لحق بنا أصحاب الإبل بقوم لا قبل لنا بهم فاستردوا الإبل منا وظلوا يطاردوننا حتى شتتوا شملنـــا ، وولى كل فرد منا هارباً لا يعلم شيئاً عما حل برفاقه ، وكان لسوء الحظ ان اقترن

١ – معناه ان القصة تكون جرت في عام ١٣٣٤ هـ
٢ – العقيد أي الرئيس وهي كلمة عربية .

سبيلي مع سبيل شخص من رفاقي يدعى (حامد الحصان الشيباني) حيث كان طريقنا بالفرار سويا .. وكان الحصان اضعف جهداً واقل صحة من ان يباريني في مسيري وكان الفصل صيفاً لا يرحم وقد مضى صاهد يروي قصته مع رفيقه الذي لا يستطيع ان يجاريه بالمشي كا ان صاهداً لا يستطيع ان يتخلى عن رفيقه وكل ما استطاع صاهد ان يفعله هو ان يطلب من رفيقه بـأن يشبك اصابع كفيه على متن صاهد ويسيران سوياً بصورة تجعل رفيقه كأنه نصفه محمول على متن صاهد ، ولكن مع هـذا كله بدا الملل واليأس على محيّا رفيقـه ، وبقي صاهد يشجع صاحبه ملتمساً أقوال الحكماء المشجعة وقصائد الشعراء التي تثير الهمم قاصداً ان يبث في نفسية صاحبه شيئاً من العزيمة والقوة والنشاط .

« اذا استولى اليأس والقنوط على المرء لا تفيدْ موعظة الحكماء »

ولا بيان الشعراء !!!

ومن الاشعار الشعبية التي ذهب صاهد يسمعها صاحبه حامداً قوله [١]:

يالقرم [٢]وشعلم لاضحكه ولا هرجه

أمشي معك يالسنا في كاني الحالي

يقول الشاعر : لماذا يا رفيقي النجيب لا تؤنسني ولا تضحك لكي تقاوم الهم بالسرور .. وفي عجز البيت يقول : كأنني اسير بمفردي معك .

ما يستوى النـّوم لـَلي يَقْطع الفرْجة

الى جاء على عوص الانظاء بالخلاّ الخالي

---

١ ـ فاتني ان اسأل صاهداً هل ان هذه القصيدة منه أم من اقوال الشعراء ؟..

٢ ـ كلمة القرم والقروم بالجمع تستعمل كثيراً باللغة الشعبية وهي لغة عربية فصحى

يقول : ان الرجل الذي يحاول ان يقطـــع الطريق ينبغي له ان لا يتسلل النوم الى عينيه ، لأنه اذا استسلم للنوم مات ظمأ ..

عَطني عَليْهن سُوالِف زينـــة المَرجَة
حتى يَطير العِماس وينسمح بالي

يقول : آتني بالأحاديث الشيقة المفرحة لكي يذهب عنـــا السأم واليأس والقنوط .

صَبُور ذي شِطـّة يا لقرم مُنفرجـــة
لا بد من عقبها كيْفات واظـْلالي

يقول : هذه محنة ولكن لا بد من انها تزول وتنفرج فكن قرماً صبوراً .. ولا بد من أن يأتي بعد هذه الشده فرج ويتبدل العسر يسرا ..

كان تأثير الظمأ الذي لحق برفيق (صاهد) أقوى من تأثير الشعر والحكم والنصائح ، وكانت المدة التي قضاها (صاهد) ورفيقه أربعة ايام وهما يسيران على الأقدام بدون ماء ولولا ان البدوي كما يقال يتحمل من العناء والظمأ ما يتحمله جمله .. لولا ذلك لما استطاعا ان يمشيا كل هذه المدة بدون مـــاء ، ولولا أن (صاهداً) لديه من قوة البنية الشيء الذي هو فوق طاقـــة المرء العادية لهلك الاثنان ظمأ ..

ويؤكد لنا (صاهد) بأن رفيقه طرح نفسه على الأرض ولم يستطع ان يسير خطوة واحدة وكل ما في الأمر انه يئس من حياته وظل ينتظر يومـــه الموعود وحتى ان (صاهداً) حسبما روى لنا عن نفسه بأنه بلغ به الظمأ والتعب ما بلغ ولكن ليس بالدرجة التي وصل اليها رفيقه . ويقول : عندما رأيت صاحبي بلغ به الأمر الى هذا الحد ورأيت ان لا أمل من مسيره بجانبي ولا ثمة فـــائدة من

بقائي بجواره عند ذلك ذهبت أهرول قاصداً بئراً أعرفه . وهو ليس بالقريب ، ولذلك هرعت اليه وبعد الجهد والمشقة وصلت اليه فوجدته كما عهدتـــه وافراً غزيراً وماء عذباً ولم يكن بعيداً بعمقه . ويقول انه عندما وجد المـاء بهذه الصفة أخذ منه قليلا وبلّ جسده مبدئياً ثم بدأ يشرب قليلا قليلا الى ان استرد قواه وعاد كما كان من قبل ، وعند ذلك استدنى عمامته وأدخلها في وسط المـاء ثم حملها بيديه وراح يركض بها بقدر ما استطاع من الجري قاصداً رفيقه، وعندما وصله وجده على آخر رمق من الحياة أو على عتبات الموت فاقداً وعيه ، وراح يعصر عمامته في حلقه الناشف شيئاً فشيئاً حتى استيقظ ونشط بصورة مكنته من أن يسير الهوينا بجانب رفيقه (صاهد) الذي أسنده على كتفه حتى أوصله الماء وأنقذه من الهلاك المحقق .

•

مغامرة بحنكة وعقل

- ٤ -

كان ذلك بين سنة ١٣٢٥ - ١٣٣٠ هـ عندما غزا جماعة من قبيلة شمر ، نجد. قبيلة بني صخر [١] بقيادة غريب [٢] بن معيقل ومن بين صفوف هـؤلاء الغزاة فتى حديث السن من قبيلة عنزة ، وكان هذا الفتى وحيد والدته التي نزح بعلها من قبيلته لسبب ما واختار لنفسه ان يكون بجوار غريب حتى توفاه الله ، وحينا تأهب الغزاة للسير جاءت والدة الفتى تهرول وعندمـــا توسطت منهم وقفت وقالت : ان ابني حديث سن ولم يسبق له ان غزا قبل هذه المـرة وهذه اول تجربة - بالنسبة اليه وقد حاولت ان ارده عن مشاركتكـــم في هذه المغامرة ولكنه رفض وأصر الا ان يغزو. ثم واصلت العجوز حديثها الى ان قالت وهو كما تعلمون ابني الوحيد وهو عزائي في هذه الدنيا خاصة بعد ما توفي والده .. ثم خطت خطوتين متجهة نحو قائـــد الغزاة غريب وعندما دنت منه وضعت كفها على عنقه وقالت : ان ابني في ذمتـك ثم اجهشت بالبكاء .. وعادت الى

---

١ . بني صخر قبيلة من بادية شرق الاردن .

٢ . غريب بن معيقل من قبيلة شمر . راجع كتـــاب المؤلف الجزء الاول الطبعة الثانية ص ٢٤٢ وهو احـــد الفتيان السبعة الذين حملوا رفيقهم على اكتافهم . راجع القصة في ص ١ من هذا الكتاب .

خدرها المتواضع وهي تنحب بدون ان تنتظر الاجابة من غريب ، الذي وجد نفسه ملزماً بتعهده للصبي من عدة وجوه اولا – انه جار له ..

ثانياً – ان هذا الفتى هو العنزي الوحيد الذي بين غزاة قبيلة شمر .

ثالثاً – انه أي غريب أصبح ملزماً بصورة حتميه بتعهده لهذا الفتى بعدما جاءت والدته واختارته دون غيره من رفاقه وقالت كلمتها سالفـة الذكر ، فلم يسع غريب والحالة هذه إلا ان يربط مصيره بمصير هذا الفتى ..

سار الغزاة كعادتهم متجهين نحو العدو فانتخبوا رجالا يسبرون لهم ابـــل العدو كما يسبرون فرسان الابل . . هل انهم متيقظون ؟ . . ام غافلون ؟ . . وكان المغزوون اقدر حيلة من سبر الغزاة الذين استطاعوا ان يسبروا المكـان الذي فيه العدو ، ولكنهم ما استطاعوا ان يسبروا غور فرسان العـدو الذين كانوا على اهبة الاستعداد لمقاومة اي معتد على ابلهم ، عاد السابرون مسرورين بكشفهم مواقع ابل العدو ، وبقدر ما كان الفرح والسرور يغمران افئدة الغزاة بقدر ما كان غريب في هم وغم على سلامة هذا الفتى .. ولم يكن غريب ذلـك الرجل الجاهل بالمكيدة التي يتوقع ان العدو قدأعدهـــا لهم . . بل كان امرؤاً عركه الدهر ووقع بالفخ الذي نصبه اهل الابل في حالة كهذه اكثر من مرة .. ولذلك لم ينخدع بالاخبار التي نقلها له سبره والقائلة انابل العدو ترعى في الفلاة دون ان يكون هناك اي كمين من فرسان العدو ، لا لم ينخدع عقيـد القوم بهذه الاخبار التي زفها السبر وهي اخبار قد تكون سارة لمن لم يجرب الامور ولم يعرف الاساليب التي يبرمها العدو في حالة كهذه ، ولكنها لم تكن سارةلغريب على النحو الذي سر لها غزاته ،ولذلك قام الرجل باتخاذ : « الخطة المحكمة » .. التي يتوقع ان يلاقيها من عدوه ، ورسم لقومه خطـــة تجعلهم اذا أفلسوا من غنيمتهم لابل العـدو .لا يفلسون على الاقـــل من احتفاظهم برواحلهم وأسلحتهم . .

وكانت الخطة التي رسمها غريب لقومه ترمي الى أن يذهب بعضهم لكسب الإبل ـ والبعض الآخر الذي هـو الأكثر والأقوى يبقى في مكان متوار عن الأعين ، ثم ينقسم هؤلاء الى فرقتين على ان تكون مهمة احدى هـاتين الفرقتين مهاجمة العدو من الأمام في حالة هجومه المباغت ومهمة الفرقة الثانية مهاجمته من الخلف ..

وأمر غريب رفاقه بأن يطرحوا من حسابهم غنيمة إبل العدو في الحالة التي يرون ان فرسانه يزيد عليهم بالعدد والعـدة ، ففي حالة كهذه أوصاهم ان لا يبددوا جهودهم في طمعهم بالإبل بل يتركوا إبـل العدو له ويوحدوا صفوفهم للكفاح بغية الاحتفاظ برواحلهم وأسلحتهم ، وأوصاهم بأن يكونوا أزواجـاً متكاتفين متضامنين في حالة تفاقم الأمر ومعنى ذلك ان كل واحـد من هؤلاء الغزاة أصبح يعرف انه مسؤول عن رفيقه فأصبحت المسؤولية بينهم جميعـاً متبادلة ، اللهم الا الفتى العنزي فانه جعل نفسه هو المسؤول عنه ، وطبعـاً لم يكن الفتى مسؤولاً عن غريب ، كما هي الطريقة المتبعة القاضية بأن المـؤولية مزدوجة على النهج الآنف الذكر ..

وآخر التدابير التي اتخذها غريب بهذا الشأن هي انه عيّن لقومه موعـدين يلتقون فيها في حالة وقوعهم في معركة حاسمة مع العدو ، وهذان الموعدان يطلق على الأول منهما اسم (وعد الكذاب) والثاني (وعد الركاب) .

فالأول يجتمع فيه الغزاة بعد المعركة ويتفقد بعضهم بعضاً فـان تكاملوا جميعهم في هذا الموعد بدون ان يفقد منهم أحد أو بدون أن يؤكد أحدهم بأن هذا المفقود قد شاهده رؤية العين قتيلاً ، إذا لم يكن شيء ، من ذلـك فمعناه انهم استغنوا عن الموعد الأخير ، امـا اذا لم يحضروا جميعاً في الموعد الأول او فقد منهم رفيق لا يعلم احد منهم عن مصيره فعندئذ يذهبون الى الموعد الثاني المسمى (وعد الركاب) فهذا هو الموعد النهائي فمن لم يحضر فيه يكون امـا قتيلاً او جريحاً متروكاً في المعركة او وقع أسيراً بيد الاعداء .

وهكذا أحكم غريب خطته على أساس هذه التدابير التي قـام رفاقه على تنفيذها بأمرها .

لا غالب ولا مغلوب :

فذهب الفريق الأول وصب غارته على إبل العدو وربح الغزاة الجولة الأولى الوهمية ، فطاروا فرحاً عندما لم يجدوا من يقاومهم من فرسان الإبل ، ولكن سرعان ما تبدل فرحهم الى بؤس عندمـا أحاط بهم الفرسان من كل جـانب ، اولئك الأبطال البواسل الذين يزيدون على الغزاة بعددهم وعدتهم. فلم يكن منهم إلا أن أخلوا سبيل الإبل لأهلها . وبينما المغزوون يطاردون الغزاة واثقين بأسرهم أو إبادتهم في تلك اللحظة انقض عليهم من خلفهم (الكمين) الذي أعده قائد الغزاة لإنقاذ رفاقه في حالة كهذه ، فتبدل طمع المغزوين بالغزاة عن ذي قبـل فانحرفوا يقاتلون المهاجمين الجدد ، بضراوة وبينما قـوامهم متجهة كلها نحو القـوم الذين جاؤهم من الأمام، وإذا ببقية الكمين يهاجمهم من الخلف وفي الوقت ذاته كر عليهم القوم السابقون الذين اختطفوا الإبل ، فأصبح المغزوون بين الكماشة مطوقين من ثلاث جهات ، وانما كثرة عددهم وقلة الغزاة كانا شافعين للمغزوين ومع ذلك ظل القتال محتدماً بين الفريقين وبالتالي انتهى على الطريقة التي يقـال عنها (لا غالب ولا مغلوب) .

وقع المحذور :

وصل القوم الموعد المعين وتفقد بعضهم بعضاً فلم يغب عنهم الا ذلك الصبي العنزي سالف الذكر ، لقد كان غريب على رأس الكمين وكان في بـداية الأمر منتبهاً للفتى إلا انه بعدما حمي الوطيس انشغل عنه في تدبير دفة المعركة كقائد مسؤول عن جميع الغزاة ، في تلك اللحظة الحاسمة التي كان غريب في سكرة

وذهول بين تدبيره لرفاقه وثم كفاحه وذوده عنهم جميعاً وبـــين تشجيعه لهم وندبه لكل فرد من رفاقه باسمه وكنيته ..

في ذلك الظرف الحرج نسي غريب نفسه كما نسي الصبي الذي لا يعرف أين مصيره ، ولشد ما انزعج الرجل حينما اجتمع رفاقه بكاملهم في الموعـد الأول ، ولم يغب الا العنزي ، وانما هناك ما يعزي به نفسه وهو الموعد الأخير مؤمـلا ان يرى الفتى فيه ، ولكن آماله باءت بالفشل حينما اجتمع القوم مرة ثانية الا ذلك الصبي الذي أودعته أمه فى ذمة غريب ..

كان يود غريب ان يخسر كل شيء أو يقتل من يقتل من اخوته وابناء عمـه على ان يعود الى أم الفتى بدون ابنها . كان من السهل على غريب ان يعود الى ارض المعركة ليتأكد من الفتى فيما اذا كان جريحاً او قتيلا ، ومن السهل ايضاً ان يأتي به ويحمله على (ذلوله) ويسعى بخدمته والعناية به فيما إذا كان جريحاً .. كل هذه الأمور سهلة جداً على غريب ولكن الشيء الصعب والذي يحتاج الى مغامرة قد يدفع رأسه ثمناً لها وهي إذا كان الفتى أسيراً بيد الأعداء .. فهذه الناحيـة قد تكون سهلة على أي فرد من الغزاة ما عـدا غريب ، بالذات وذلك ان بينه وبين قبيلة (بني صخر) من العداوة كما بين الذئب والشاة ، يضاف الى ذلك انه معروف لديهم بأنه (العقيد (الذي دائماً وأبداً يقود الغزاة ويصب الغارات تلو الغارات عليهم ومن المسلم به ان (بني صخر) إذا ظفروا بـه لا يمنعهم شيء من القضاء على حياته .

واجب لا بد منه :

ولكن هذا لا يمنع غريباً من ان يغامر من اجل الفتى ويعود الى المعركة فإن وجده فيها وإلا فسوف يواصل مغامرته قدماً نحو ذهابه الى ديار العدو ، فيما إذا كان اسيراً هناك محاولاً اختطافه مهما كلفته هذه المغامرة من ثمن باهظ ..

طلب الرجل من قومه ان يختاروا رئيساً لهم غيره ، مؤكداً لهم عزيمته على ان يعود من أجل الفتى الذي بعهدته ، وكان رأي القوم يشير الى ان يعود معه نفر منهم ليشاركوه في مهمته إلا انه رفض باصرار كما ان القوم أصروا الا ان يرافقه نفر منهم ، وبالتالي اتخذ الفريقان موقفاً وسطاً وهو ان يذهب معه بعض من رفاقه الى ارض المعركة فإن وجدوا الفتى جريحاً يساعدونه على حمله والعناية به ، وإن وجدوه قتيلاً يكونون شهوداً له عند والدة الفتى بما أصاب ابنها من قضاء وقدر ، أما إذا لم يجدوه في كلتا الحالتين فعلى الرفاق ان يعودوا الى أهلهم ويتركوا (غريبا) وشأنه ..

وعلى اساس هذه الخطة ذهب (غريب) ورفاقه الى ارض المعركة التي لم تكن بعيدة عنهم كثيراً فوصلوا مكان القتال فبحثوا هنا وهناك منقبين عن الفتى مؤملين ان يجدوه جريحاً او قتيلاً ، ولكنهم لم يجدوه في كلتا الحالتين . .

مغامرة ورحلة طويلة :

وعندما لم يوجد الفتى عاد رفاق غريب بينما صمم بطل القصة على مواصلة رحلته حتى ينقذ رفيقه ولو كان في عرين الأسد او يلاقي حتفه في سبيل انقاذه..

كان غريب يعلم جيداً بأن (بني صخر) إذا ظفروا به لن تأخذهم به رأفة ، كما كان يعلم ايضاً بأنهم عرب أقحاح ، وأن هناك من الأمور والعادات العربية التي تجعلهم يمتنعون عن عقابه مهما كان مجرماً متى ما تمكن ان يقوم بها قبل ان يقع بين أيديهم ، ومن العادات التي ستكون حصانة له إذا قام بها قبل ان يلقوا عليه القبض هي ان يشرب كوباً من قهوتهم قبل ان يظفروا به ، هذه الطريقة يرى غريب انها هي الوسيلة الوحيدة التي تنجيه من فتكهم به وذلك في حالة عجزه عن اختطاف الفتى مع يقينه ان صاحبه الصبي إذا كان أسيراً فإنه لا خوف

عليه من أي شر يلحق به من (بني صخر) وذلك لعـدة امور .. منها انه حديث سن ، ومنها انه ليس من قبيلة (شمر) الغازية الخ ..

لقد ذهب غريب حتى اذا قرب من بيوت (بني صخر) أوثق عقال (ذلوله) وراح تحت ظلام الليـل يتحسس عن رفيقه فقرب من احد الأندية ، فسمع اسمه على اطراف ألسنة المتحدثين فدنـا قليلا فسمع من يقول :

ـ سوف لا يتركه غريب ، وسمع آخر يقول : ـ توقعوا له وخذوا حذركم منه فانه قد يأتي الليلة هذه او ليلة الغد ، فأصغى الرجل أذنيه ليسمع الى صوت الفتى ، ولكن دون جدوى فظل خلف الرواق حامـلا بندقيته بيمينه ، ينظر للقوم عندما تفرقوا محاولاً ان يرى رفيقه ولكنه لم يره. حتى اذا نـام رجال القبيلة ونام صاحب هذا البيت الكبير الذي كان أكبر بيوت القبيلة، تسلل بخطى وئيدة محاولاً أن يرى الفتى نائماً داخل البيت ومتخذاً الاحتياطات اللازمـة في حالة يقظة صاحب البيت ، وأهم تلك الاحتياطات هي ان أخذ لنفسه حصانة قوية حيث ذهب قبل اجرائه هذا وظل يحتسي من القهوة التي عند مدخل البيت ، وفي تلك اللحظة استيقظ صاحب البيت الذي كان احد رؤساء القبيلة المـدعو (الحريشا) فصاح به قائلا :

ـ من هذا ؟ .. فأجابه البطل فوراً بقوله ..

ـ ضيف .

ـ أأنت غريب بن معيقل ؟..

فقال وهو ممسك بفنجان القهوة يرشفه :

ـ أجل هو ـ فنهض من فراشه وراح يرحب به .. ثم قال :

ـ أجئت تسأل عن رفيقك الصبي ؟..

ـ نعم أين يكون الآن ؟.

ـ كان هنا .. وعندما تحدث لنا عن نفسه بأنه وحيد والدته رحمناه ورأفنا به وأكرمنا مثواه ، ولم يكن لدينا أدنى شك بأنك سوف تـأتي على أثره حينما أخبرنا الفتى عن تفاصيل قصة والدته معك وكنا ننتظر مجيئك بفارغ الصبر .. ثم استرسل (الحريشا) في حديثه قائلاً : ولا تظن اننـــا حريصون على مجيئك لكي ننتقم منك من أجل ما قمت به نحونا من غزواتك المستمرة المتكررة فتلك أشياء متبادلة بيننا ونتمنى ان نقهرك أسيراً باحدى تلك الغزوات وجهاً لوجه ، وانما كان حرصنا من أجل ان نكرمك على وفائك مع رفيقـك . ثم ختم حديثه بقوله : ويجب ان تثق انك لو لم تشرب قهوتي فانـك لن ترى مني الا واجبات الضيافة والكرم ..

ـ هذا شيء لا استغربه منكم لأنني شخصياً لو حكمت عليكم ظروف كظروفي ورمى بكم (الفال) في بيتي كما ساقني القـــدر إليكم لمـا رأيتم مني الا الاكرام والاحترام نفسه الذي رأيته منكم .. ثم أردف قائلاً : ان أعظم اكرام تقدمونه لي الآن هو ان تسلموني الفتى ..

ـ ان الفتى عندما وصل إلينا وجد عقيلات(١) قاصدين الشام فذهب معهم جيراً ، صباح امس الماضي وقد حاولنا ان نرده عن عزيمته مقدرين انك سوف تأتي على أثره لا محالة ، ولكنه رفض وأصر الا ان يـــذهب في سبيله طمعاً منه بالأجرة ..

ـ هل تسمح لي أن أذهب متبعاً أثره لعلي ألحق به قبل ان يصل الى الشام؟.

ـ معاذ الله كيف تذهب قبل أن نقدم لك ما تفرضه علينا واجبات الضيافة!

ـ انا لا أشك في كرمكم وسخائكم ولذلك أرى انكم عندمـــا تسمحون لي

---

١ ـ كلمة عقيلات يقصد بها تجار الابل .. وأكثر من اختص بتجارة الإبل أهل القصيم فيقـــال عقيلات وعقيل ومفردها عقيلي ..

بالذهاب هذه الليلة تكونون فعلتم نحوي جميلاً كبيراً لأنني أخشى ان يدخل الفتى مدينة الشام وعندئذ سوف يصعب العثور عليـــه بحكم جهلي بالمدن وعـدم معرفتي لأهلها ..

ـ كما انك ترى من واجبك ان تلحق برفيقك وتعود به الى أمـه مهما كلفك ذلك من عناء وتضحية فنحن ايضاً نرى ان من واجبنا ان نقدم لك واجبات الضيافة كعربي كريم استضاف عربياً من أمثاله ..

ثم اردف (الخريشا) قائلاً : من العبث ان تفكر بأن تذهب من هنـا قبل ان أقدم لك قراك وادعو أعيان قبيلتي على شرفك ..

ـ ليس لدي ما أقوله الا المثل العربي القائل : (الضيف بحكم المضيف) وانما أريد ان تكون الضيافة غداء مبكراً لكي اذهب لطلب الفتى لعلي الحق به قبل ان يدخل المدينة ..

ـ كنت أود أن أجعل ضيافتك غداء وعشاء ولكن مراعاة لظرفك الراهن ما عليّ الا ان أوافقك على طلبك ..

كان الفصل صيفاً وليل الصيف كعادته قصير، لذلك لم يتسلل النوم الى عيني الضيف ولا المضيف ، فالأول مهتم بمصير فتاه، والثاني ينتظر انبلاج الفجر بفارغ الصبر لكي يبكر ما استطاع بتقديم الوليمة لضيفه ..

وما ان ادبر الليل وانحسر ظلامه المدلهم أمام انوار الفجر البهية كانحسار الخمار عن جبين الفتاة الحسناء حتى قـــام المضيف يحث رجاله بالاسراع ما استطاعوا بانجاز الضيافة ، وبدعوة اعيان القبيلة للحضور ليسلموا على ضيف الشرف ويشاركوه بالدعوة التي أقيمت على شرفه ..

كان الضيف مستيقظاً بطبيعته عندما أشعل رجال المضيف النـــار وراحوا

يعدون العدة لانجاز القهوة في ذلك النادي الذي بدأ يتوافد عليه رجال القبيلة بين كل فترة وأخرى يقف المضيف يقدم رجال قبيلته قائلاً : هـــذا فلان يا غريب الخ ..

وما ان ارتفعت الشمس قليلاً حتى انتهت الوليمة ، وكان المدعوون قـــد تكاملوا ، عند ذلك مد الخوان وجيء بالجفان المجللة بالخرفان الكثيرة العدد ومن تحتها الثريد الممزوج بمرق اللحم وزبد الضأن ، وما ان انتهى الضيف والمدعوون من تلك الوليمة الدسمة حتى شرع غريب بتوديع مضيفه وراح يواصل رحلتـه مقتفياً أثر الفتى بقدر ما اوتي من السرعة محاولاً ان يدركه قبـل ان يصل الى المدينة فيصعب عليه معرفة مكانه ..

كان لدى غريب ذلول من النجائب السريعة العدو ، وكانت المسافة التي بين الشام وبين الأرض التي سافر منها الفتى كفيلة ان يتمكن غريبـــاً من اللحاق بالفتى قبل ان يدخل الشام بفضل سرعة عدو راحلته النجيبة التي لم يدخر وسعاً من حثه لها بقدر ما لديها من قدرة على الجري .وكانت المشكلة انه تمكن من ان يصل قرى دمشق دون ان يلحق بالعقيلي ، ودون ان يجد في طريقة أثراً لابله ، ولكن هذا لا يمنعه من أن يستمر في سبيله لعـــله يجده في احدى القرى او على ابواب الشام .. وهكذا مضى الرجل في طريقه ، حتى وصل ضواحي المدينـة بدون جدوى ، فدخل قلب الشام وهـــذه اول مرة يرى غريب مدينة الشام فسار بين اسواقها مدهوشاً من مناظر عاصمة الأمويين ومن اشجارها البـــاسقة وأنهارها الجارية فوجد رجالاً يضع أكثرهم فوق رأسه طاقيـة حمراء ، خلافـاً لما يعهده عند رجال القبائل من لبس العباءة والعقـال ! وكان كل منظر يراه من العمران ولبـــاس الرجال والنساء يختلف عما يـــألفه ، فحاول ان يسأل عن رفيقه ولكن يسأل من ؟.. وإذا سأل من هو الذي يعرف بدويا جاء مع تجار بدو من جنسه ودخلوا مدينة الشام ..

وبينما كان راكباً ذلوله ويسير في وسط الفيحاء هناك صاح به أحـد رجال شرطة الأمن قائلا :

– أين تريد يا بدوي ؟. وكان البدوي حافظاً اسم التاجر الذي استأجر فتاه ولذلك أجاب الشرطي بكل براءة قائلا :

– أريد فلان العقيلي ..

– من هو فلان ؟ .. وماذا يعمل ..

– فلان العقيلي المشهور اما تعرفه ؟..

– لم اسمع بهذا الاسم مدة حياتي ..

– قل لي ما هي صنعته ؟.

– لم يكن صانعاً وانما هو عقيلي ..

– ماذا تعني بالعقيلي ؟.

– الحضري الذي يبيع ويشتري (بالبعارين) ..(١)

– ما هي (البعارين) .

– كيف اما تعرف (البعارين) ؟ .

– لا لم اسمع بهذا الاسم ..

– الزمل والنياق ..

– يعني الجمال ؟ .

– أجل .

– انت تقول حضري وأنا لا أعرف حضريا يمتهن التجارة بالجمال ..

– نعم حضري ومن اهل القصيم ..

---

١ – اي الإبل مفردها بعير وهي لغة عربية .

– ما هو القصيم ؟ .
– كيف لا تعرف القصيم ؟ ..
– لا ولم اسمع بهذه البلاد مدة حياتي ..
– كيف ذلك الم تسمع بنجد ؟ ..
– نعم اسمع بانبج التي هي من قرى حلب ..
– انا اقول لك (نجد) وانت تقول (محلب) ما هو محلب ،لم اسمع به؟..

وبينما البدوي والشرطي في أخـــذ ورد فإذا بالقدر يسوق عقيلياً كان يتسمع جميع ما دار بين البدوي والجندي من اول كلمة الى آخر كلمة مما جعله يتدخل في الموضوع محاولاً ان يحل الاشكال ، ولكن الشرطي اعـترض وقال :

– ما الذي دخلك في موضوع لم تكن مسؤولا عنه ؟ فبادره العقيلي بقوله :
– ان الرجل يسأل عن شخص من جماعتي وأعرفه ..
– أنت بدوي وهذا يسأل عن شخص حضري ..
ومن هنا تدخل البدوي بالحديث وقال :

– الصحيح ان مثل هؤلاء العقيلات الذين يقال لهم عندنـــا حضراً ليسوا بالحضر الحقيقيين .. وإنما الحضر هم اشباه هذا الذين لا يعرف واحدهم اسم القصيم (مشيراً بيده الى الشرطي) ..

هذا وقد ترك الشرطي البدوي بجانب رفيقه العقيلي الذي افاده بـأن فلاناً الذي يسأل عنه بعدما كان ناوياً ان يأتي بأبله ليبتاعها بالشام بدل رأيه وذهب بها الى مصر لأن اثمان الابل مرتفعة في مصر اكثر منها في الشام ..

وقع هذا الخبر على غريب وقوع الصاعقة ، وشعر انه سوف يبدأ رحلته من

جديد ، من الشام الى مصر ، وما دام انه اوشك ان يضيع في مدينة الشام وان لا يجد من يهديه السبيل الى العقيلي ، ولا من يعرف اسم نجد لولا ان القدر ساق له عن طريق الصدفة ذلك العقيلي ، فإنه في مصر سوف لا يجد من يهديه الى صاحبه .. فما عليه والحالة هذه ان يترك صاحبه العقيلي ليرسم له الطريقة التي يسير عليها فيما إذا وصل مصر ، ليهتدي الى المكان الذي يجد فيه العقيلي المستأجر للفتى .. وفعلا لقنه العقيلي اسم الحي الذي يجد فيه – العقيلي في مصر او يجد فيه من العقيلات من يدله على صاحبه .

ولما لم يجد بدا من الذهاب الى مصر ، فقد أشار عليه العقيلي بأن لا يذهب على ظهر ذلوله من الشام الى مصر وإنما يذهب في القطار عن طريق فلسطين حتى يصل الى العريش .. الخ .. وكانت المشكلة بالنسبة لغريب انه فارغ اليد من النقود . وأهل المدن ليسوا كالبدو يجد من يضيفه حتى ولو كان عدواً كما فعل (الحريشا) ، فأخذ رأي العقيلي في هذا الموضوع فأبدى رأيه له بأن يبيع ذلوله هذه في الشام لينفق ثمنها ، كما هداه الى المكان الذي تباع فيه الابل والذي يكون فيه رجال من العقيلات الذين يعرفون أثمان الذلول النجيبة كذلوله فانصاع غريب لرأي العقيلي الذي ذهب به الى المكان الذي تعرض فيه الابل وتولى العقيلي بيعها بنفسه وقد كان مخلصاً وأميناً حيث باع الذلول بثمن مغر لم يحلم به غريب ، وعندما وجد غريب في العقيلي الامانة والاخلاص ذهب وسلمه بندقيته وعتادها ليبيعها له ايضاً فأخذهما العقيلي وباعهما بثمن أثلج صدر غريب الذي صرف ثمن الذلول والبندقية بجنيهات ذهبية وربطها في حزام طواه على بطنه وراح من فوره يقطع تذكرة في القطار بواسطة رفيقه العقيلي الذي لم يتركه حتى هداه الصراط المستقيم . .

ذهب غريب يردد اسم البلد الذي يقيم فيها العقيلات خوفاً من ان ينساه وكان اسم البلد (المطرية) فذهب يردد هذا الاسم باليوم والليلة أكثر من مائة مرة .. ولم يجد غريب هذه المرة مشقة في سفره بحكم تعاليم صاحبه العقيلي التي أوصاه بأن لا يحيد عنها

والتي نفذها بحذافيرها حتى وصل الى القاهرة ومن هناك ظل يسأل المارة عن المطرية الى ان وجد من يهديه اليها ، وفي المطرية راح يسأل عن الحي الذي يقطنه عقيل المحتفظ باسمه من صاحبه الذي في الشام ، فوجد ايضاً من يدله عليه ، ولم يتعب كثيراً بالسؤال عن عقيل كتعبه في الشام خاصة في ذلـــك الحي الذي يقطنه العقيلات بكثرة ، ومن أول سؤال ألقاه على رجل عـــابر سبيل من سكان تلك البلدة يسأله بـــه عن بيت من البيوت التي يسكنها أي واحد من عقيل ساعتها أرشده المسؤول الى طلبه ؟.. وما ان وصل ذلك البيت حتى وجـد كثيراً من الرجال الذين لم تكن لهجتهم غريبة عليه ، تلك اللهجة التي لم تسمعها أذناه منذ ان فارق بيت (الحريشا) اللهم الا بتلك الفترة القصيرة التي التقى فيها بالعقيلي في الشام .. وبعدما احتسى أكوابـــاً من القهوة الشقراء المزوجة بالهيل ذي الرائحة الشذية عند ذلك سأل عن العقيلي الدي استأجر فتاه ، فأخبر انـــه في طريقه اليهم وسيصل اليوم او غداً.. ولما كان العقيليون ن اعرف الناس بلهجات القبائل العربية بحكم أعمالهم كتجار ابل تفرض عليهم الاتصال المستمر المبـــاشر بجميع القبائل العربية وخاصة قبائل شمال الجزيرة وسورية والعراق ، فانه من مسلمات الأمور ان يعرفوا لهجة غريب بأنه من قبيلة شمر . ولدلك لم يكونوا بحاجة لأن يسألوه من أي قبيلة يكون فهذه الناحية عرفوها من اول كلمة نطق بها لسانه ولا سيما ولغة قبيلة شمر لها علامات تعرف بها بكل سهولة وانما أرادوا ان يعرفوا هذا الرجل الذي تعبر شخصيته من اول وهلة لمن يراه بـــأنه ليس بذلك البدوي العادي . ولذلك اوعزوا لواحد منهم بأن يوجه اليه السؤال التـــالي :

- من أي بطن من شمر يكون أخو العرب أمن عبده ام من سنجاره ؟..

- بل من سنجارة ..

- من اي فخد من سنجارة ؟ ..

- فصمت البدوي قليلا ثم أجاب بكلفة وبلغة تعبر عن استيائه من هـذا السؤال الذي لم يستـغه البدوي بفطرته وقال :
- من آل زميل .

ومن هنا أدرك السائل أن المسؤول تضايق من هذين السؤالـين ولذلك ترك الأسئلة الأخرى التي إذا أجاب عليها المسؤول يستطيع أن يحكم السامعون على معرفة شخصية الرجل بالقرينة ، وبعد صمت طويل أديرت بعده أكواب القهوة والشاي ، واحتسى البدوي من الاولى مـا راق له وانطلقت أساريره عندئذ سأله صاحبه قائلا :

- من أي فخذ أخونا الكريم يكون من آل زميل . .
- فعاد البدوي الى صمته وقطب بحاجبيه ثم قال وهو يتهيأ للقيام : .
- من الشلقان . . ثم اتبع هذه الكلمـة العبارة التالية (على الخـير والشر)(١) .

وعندما وقف متهيئاً للخروج قفز الرجـال الذين في النادي يريـدون أن يعتذروا منه ويحاولوا أن يعود الى مكانه كضيف . وفي تلك اللحظـة دخل رجل من العقيلات يعرفه غريب معرفة جيدة كما أنه يعرف غريباً معرفة راسخة فسلم الاثنان على بعضهما بحرارة ، وعند ذلك لم يكن أصحاب النادي بحاجة الى بذل أي مسعى لاعادته كما أنهم لم يكونوا بحاجة الى من يعرفهم بشخصيته فقـد عرفوا اسمه من صاحبهم عندما بادله بالتحية بقوله (مرحب يا غريب) وإنمـا عليهم الآن أن يقدمـوا له أقصى ما يمكنهم من واجبـات الضيافة والحفاوة والاكرام . .

---

١ - تقال هذه الكلمة في الحالات الاستثنائية عندما يكـون المسؤول لا يعرف ما يلاقيه من سائله من صداقة او عداوة ..

وقد ظل غريب عند العقيلات موضع الاجلال والاحترام ضيفاً عزيزاً الى أن جاء العقيلي مستأجر رفيقه وكان سرور غريب لا يعادله سرور عندما وجـــد الفتى العنزي سليما ومعافى من كل أذى ..

ومن فوره أخذ بيده وقفل عائداً الى أهله وعندما وصل اول قبيلة من بادية الشام اشترى من ثمن ذلوله وبندقيته ذلولا اقلته وفتـاه حتى وصلا أهلها حيث وجد العجوز ام الفتى كا نقله لنا الرواة تهيم بين بيوت الحي بصورة فاجعة وقد فقدت كثيراً من نور بصرها على ابنها الوحيد .. وعلى وشك أن تفقد البقيـــة الباقية من نور عينيها فيما لو عاد غريب إليها بدون أن يسلمها ابنها يداً بيد ..

اقتصاصاً للمقتول ومحواً للعـــار

- ٥ -

كما انه من سعادة المرء ان يوفق بابن نجيب يرفع ذكره ، كذلك من ســـوء طالعه أن يبتلي بابن عاق نذل يلصق العار والخزي بوالده واسرته ..

وهذا ما ابتلى به نمش(١) بن دعسان من العار الذى جره عليـــه ابنه ذعار وذلك في عام ١٣٢٦ هـ .

حل (ذعار) ضيفاً على أمير بلدة الزُّلْفِي(٢) فوجد عند مضيفـه شخصاً من قبيلة عتيبة يدعى (عويهان الصل) في حوزته فرسٌ أصيلة غنمها من قبيلة شمر ومن عشيرة الاسلم بالذات ، فبات تلك الليلة كل من العتيبي والمطـــيري ضيفين عزيزين عند أمير البلاد . وفي الباكر خرجا جميعاً كل منهما قاصداً أهله.. وبعدما قطعا مسافة بعيدة حطا عن راحلتيهما في أرض خصبة ليبيتا تلك الليلة على ان يجددا السفر في الغد ، بات العتيبي آمناً غير خائف غارقاً في سباته ، بينما المطيري لم يتسلل النوم الى عينيه ، وإنما كان جل همه هو ان يثق من نوم رفيقه

---

١ ـ نمش بن دعسان من قبيلة مطير ومن الدياحين .

٢ ـ الزلفي بلدة في نجد معروفة .

ليجهز على حياته ويغدر به طمعاً بالفرس ، وما ان وثق من نوم رفيقـــه حتى وثب عليه وقطعه إرباً بمديته ، وعندما نفذ المجرم خيانته امتطى الفرس وذهب الى أهله مدعياً انه غنم الفرس من قبيلـة شمر التي بينها وبين قبيلتـــه عداوة تقليدية ..

مضت ليال وأيام والغادر مرفوع الرأس بين قبيلته ..

اول نكبة تلحق بالخائن الغادر !!!

كانت الفرس التي ادعى الغادر انه غنمها من قبيلة شمر : من جياد الخيـــل الأصائل المشهورة عند قبائـــل الجزيرة والذي يغتنم مثـل هذه الفرس يكون موضع اجلال عند قبيلته ولا سيا إذا كان غنمها جاء عن طريق طراد الفرسان وجهاً لوجه اي بصورة يكون الفارس الذي غنمها طرح صاحبها ارضاً بعد قتال مرير ، ولكن هذه الفرس لم تأت الى يد صاحبها الاول الذي هو العتيبي إلا عن طريق (الحيافة)(١) والحيافة تعتبر شجاعة ومغامرة ولكنها لا تجعل لصاحبها من القدر بين قومه كا للفارس الذي يغتنم الفرس من صاحبها وجهـــاً لوجه كما اشرنا آنفـــاً .. وعندمـا افتخرت قبيلة مطير على قبيـــلة شمر بِـغُنم الفرس منها ردت الاخيرة جواباً على افتخار رجال الاولى : بأن هذه الفرس التي تفخرون بها ليست من سلالة خيل شمر لأن امها جاءت (قلاعة)(٢) من خيـــل مطير في المعركة الفلانية التي وقعت في مـــكان كذا وفي وقت كـــذا بينما انتم اخذتموها عن طريق الحيافة .. وعندما حققت قبيلة مطير في الأمر وجدت ان

---

١ ـ الحيافة هي انه اذا كان بين قبيلة واخرى عداوة يأتي بعض الافراد ليلا ويختطف فرساً أو ابلا من العدو وبصورة اشبه ما تكون بالاختلاس وكان العتيبـــي المغدور به قد اخذ الفرس بهذه الطريقة .

٢ ـ القلاعة : هي التي تغتنم من فارسها بصورة علانية في احدى المعارك سواء بقتل صاحبها او بطرحه ارضاً .

ام الفرس حقيقة من خيل (وطبان الدويش(١)) وعندها ذهب وطبان وأخذ الفرس من يد الغادر بحجة ان الفرس ابنة فرسه وكانت حجة مقبولة في العرف المتبع بحالة كهذه ، فما كان من الدويش إلا ان اتخذ هذه الحجة وسيلة لاستعمال نفوذه الذي لا مرد له عند قبيلته بحكم انه كان رئيس القبيلة الوحيد في نجد الذي يصدر أوامره على قبيلته دون ان يجد من يعارضه في القبيلة بأسرها ..

المقصود ان الغادر أفلس من الفرس التي قتل صاحبها طمعاً بها وكل ما في الأمر هو ان ظلت يد الخائن ملوثة بلطخة العار ..

كل خفية عليها من الله بيّنه ! ! !

يعود بنا الحديث الى اهل القتيل الذين ذهبوا يلتمسون الحقيقة من مصدرها ولا زالوا يواصلون البحث والتنقيب عن ابنهم حتى بلغهم العلم اليقين الدي أفادهم ان – ابنهم وصل يوم كذا بلدة الزلفي ومصطحباً فرساً اغتنمها من قبيلة شمر وأنه حل ضيفاً عند أمير الزلفي .. وعلى أثر هذا النبأ شد العتيبيون رواحلهم وذهبوا الى أمير الزلفي ليتأكدوا منه وعندما وصلوا هناك وحلوا ضيوفاً عند الأمير وفهم المضيف الغاية التي جاء من أجلها ضيوفه عندئذ أكـد لهم بأن ابنهم ضافه في يوم كذا وبصحبته الفرس التي كذا لونها مؤكداً أنه اختطفها من قبيلة شمر وأنه ذهب من عنده بصحبة ذعار بن نمش المطيري وكان هدا آخر العهد به ، فما كان من العتبان بعدما تلقوا هذا النبأ إلا انذهبوا الى رئيس قبيلة مطير المدعو (سلطان الدويش) وحلوا عنده ضيوفاً مطالبين بدم ابنهم ، وكان وجود الفرس أكبر دليل على صحة دعواهم التي دعمها شهادة أمير الزلفي وكثير من اهل البلدة نفسها ، وفي الحين الذي استقبل الدويش (العتبان) كضيوف

---

١ ـ وطبان من اسرة الدويش صاحبة الرئاسة المطلقة على قبيلة مطير .

أعزاء ، في الوقت ذاته بعث رسلاً من رجاله ليحققوا مع المدعى عليه ، ولكن المتهم لم ينتظر حتى يحقق معه بل فر هارباً ..

كاد المريب ان يقول خلوني !!

وذلك أنه بمجرد ما بلغه الخبر بأن هناك قوماً من قبيلة عتيبة يسألون عن ابنهم المفقود الذي كذا صفته ونعته ، مجرد ما تأكد من ذلك فر هاربا عن أهله وقبيلته بل وعن الأراضي النجدية كلها قاصداً الكويت ليتوارى عن أنظار القوم فترة الى أن يسبل الزمان ذيل النسيان على جريمته النكراء ثم يعود بعد ذلك الى عشيرته كأن لم يكن فعل شيئاً ..

كان فرار المجرم دليلا قاطعا على اثبات جريمته ، ويؤكد الرواة على رأسهم المرحوم عبد العزيز السديري الذي تولى وزارة الزراعة في المملكة السعودية ان والد الجاني وعموم اسرته أصبحوا امام قبيلتهم منبوذين ومقاطعين مقاطعة صارمة لا هوادة فيها بصورة أجمعت عليها رجال قبيلة مطير عن بكرة أبيها ، واتخذت نحوهم قراراً جماعيا بأن لا يكلم أي واحد من رجال القبيلة اسرة الغادر ولا تنكح نساؤهم ولا يزوج رجالهم من القبيلة وكان من نتيجة هذه المقاطعة الصارمة ان اضطر والد المسيء على أن يتخذ تدابير حاسمة ليغسل وصمة العار عن نفسه وعن اسرته ، وكانت الخطة التي اتخذها الاب تتلخص بما يلي :

أولاً — أنه رحل عن قبيلته وراح واستوطن مدينة (عنيزة) إذ لم يكن بوسعه ان يظل بين ظهراني رجال قاطعوه بهذه الصفة ..

ثانيا — قرر ان هذا العار الذي ألبسه إياه ابنه الغادر لا يمكن أن يمحى إلا بقتل الغادر نفسه ولذلك حالما وصل الوالد بلدة عنيزة كلف ابنه الثاني شقيق

القاتل بأن يذهب ليقتل أخاه وأقسم الشيخ لأبنه هذا بأنــه سوف يقتل نفسه فيا إذا لم ينفذ ما أمره به ولم يتأخر الفتى عن السفر الى الكويت تنفيذاً لما أمره به والده وما أن أبلغ المجرم خبر أخيه حتى جاء يستقبله ولم يتصور أن أخاه جاء ليقتله وإنما ظن وهما بان أخاه جاء من أجل أن يشاركه وحشة الغربة وفي أول ليلة بات بها الأخ عند أخيه وثب عليه وذبحه بمديته وهو يقول :

– اقتصاصا لمن غدرت به وغسلاً للعار الذي البستنا إياه بين رجالنا ..

وبعد ذلك حز رأسه وأدرجه في خرقة من القماش وذهب رأسا الى قبيلته حسب تعاليم والده وعندما وصل هناك وجد مجلس الدويش حاشداً بشخصيات القبيلة عندئذ أخذ رأس أخيه وألقاه في وسط مجلس الدويش ثم عاد الى والده وجاء به الى قبيلته وظل بعدها يتصدر الأندية باحترام وتقدير من جميع رجال القبيلة بعدما كان مقاطعا منبوذاً ..

الفرس تعود الى ورثة المغدور به !!

اما الفرس التي اختطفها العتيبي المغدور به من قبيلة شمر ، والتي كانت لقمة سائغة لوطبان الدويش على أساس انها من سلالة خيله ، وان الذي غنمها شخص من قبيلته ، هكذا حجة الدويش وقــد تكون حجة مقبولة فيا لو كان الذي اختطف الفرس من قبيلته اما وقد ثبت الآن بالدليل القاطع بأن الذي اختطف الفرس هــو العتيبي المقتول غدراً فعلى هذا الأساس تكون الفرس ملكاً لورثة العتيبي ..

وعلى ضوء هذا المنطق استطاع ابن غش ان يأخذ الفرس من الدويش ويسلمها الى ورثة العتيبي ، وما كان من قبيلة عتيبة الا ان رفعت الراية البيضاء لابن غش(١) .

---

١ - الراية البيضاء هو أن يؤتى بعصا طويلة كالرمح ويوضع على رأسها خرقة بيضاء ثم يطاف بها بين قبائل الجزيرة العربية وكثيراً ما يطاف بها في المواسم الكبيرة التي يحضرها العرب بكثرة كموسم الحج . ويكون لهذه الراية أثر عميق في نفوس كل من يرى هذه الراية ويتحتم على من يحمل الراية ان يتخلل الصفوف منادياً بأعلى صوته قائلا (بيض الله وجه فلان ابن فلان) . وكل من يسمع هذا النداء يحمل نفسه على احترام هذا الشخص المنادي باسمه بحكم ان العادة المألوفة تقضي أن لا ترفع الراية البيضاء بصورة كهذه بين صفوف القبائل الا للمرء الذي فعل من الجميل الشيء الكبير الذى فيه تفان وتضحية وعلى العكس ترفع الراية السوداء بصورة مماثلة للمرء الذي يعمل قبيحاً ..

ويؤكد الرواة الثقاة ان اسرة المقتول اي العتيبيين رفعوا الراية البيضاء ثلاث سنوات على التوالي في المواسم الكبيرة . كموسم الحج في منى وعرفات .

بشّر القاتل بالقتل ولو بعد حين

-٦-

كل جريمة فيما اعتقد أهون وأخف من جريمة قتل النفس . والقتــل من حيث هو ما لم يكن قصاصاً او خطأ او دفاعاً عن النفس فانه يكون جريمة نكراء .. والجرائم تختلف باختلاف بواعثها فـــالقتل الذي ينجم عن فورة غضب مثلا يختلف عن القتل الذي يصدر من انسان لا غـــاية له الا ان يقتل أخاه الانسان لينهب ماله او أرضه او سلطته الخ .. ولذلك نجد ان القاتل الذي من هذا النوع سرعان ما تقتص منه يد العدالة بطريقة لا يفكر بها ولم تخطر له ببال . كهذه الحادثة التي اقدم بها المجرم على قتله لنفس بريئة بدافع الجشع والاجرام والظلم ، وشاء الله ان يكون قتل القاتل على يد ابن اخته ، وشرح القصة كما يلي :

كان المعروف ان صحراء الجزيرة فيما سبق لا يستطيع المسافر ان يقطعهـــا حتى يكون معه رفيق من احدى القبائل التي يمر (١) بأرضها لكي تحميه من هذه القبيلة .. وهذا الرفيق يعتبر هو المسؤول عن الرجل المسافر ، ومن يعتدي عليه فانما هو معتد على حرمة الرفيق . وبين عام ١٢٨٠ هـ و ١٢٨٥ جاء شخص من أهل مدينة بريدة يدعى (صالح الصقعبي) يمتهن حرفة التجارة ورمى بـــه

---

١ - راجع ص ٩٢ - ٩٣ الطبعة الثانية الجزء الأول من شيم العرب للمؤلف .

الفال الى الأرض التي تقطنها قبيلة العجمان ، فاصطحب رفيقاً من العجمان يدعى (حمد بن قرعان) وظل التاجر بحماية حمد حتى ظن انـه تجاوز حدود الأرض التي يقطنها العجمان ، عند ذلك ترك حمد رفيقه على أساس انه سوف يتخذ رفيقاً من احدى القبائل الأخرى المتاخمة ، ولكن الذي حصل هو انه ما ان توارى حمد عن رفيقـه حتى انهالت غارة الغزاة من قبيلة حمد نفسها فـدافع التاجر ببندقيته عن نفسه ما استطاع ، وأخيراً طوقه الغزاة المجرمون وقتلوه وتقاسموا ماله وكان الذي تولى تنفيذ القتل بالتاجر الشهيد خال حمد رفيق التاجر ومجيره ولم يعلم حمد عما تم برفيقه ..

وبعد مضي مدة من وقوع الحادثة سافر حمد بصحبة خـالـه ومن الصدف الغريبة ان طريقهما جاء على المكان الذي قتل فيه التاجر وكان حمد رديفـاً لخاله وفجأة ضحك الخال بدون أي سبب وكان لا بـد لابن الأخت أن يسأل خاله قائلاً :

ـ ما الذي اضحكك يا خال ؟..

فرد عليه بقوله :

ـ شيء مضى وانقضى يا بني ..

ـ ناشدتك الله ان تخبرني به ؟

ـ اضحكني صاحب هذا القبر .. حضري قتلته وعندما كان على عتبة الموت كان يصرخ قائلاً يا حمد يابن قرعان وهو لا يعلم ان قـاتله خال حمد نفسه .. ولذلك ضحكت الآن عندما رأيت قبره وتذكرت سفاهة رأية عندمـا راح يستنجد بحمد على خاله ..

ـ أهو التاجر يا خال الذي كذا صفته ؟..

ـ نعم هو بذاته ..

وعندئذ وثب ابن الأخت على خاله وطعنه بخنجره التي مزق اشلاءه بهـــا وهو يقول :

ـ فليبشر مستنجدي .

وبعد ما قضى عليه حفر قبره ودفنه بجوار رفيقه (١)

---

١ ـ رويت هذه القصة من عدة مصادر وآخرها المرحوم فهد العيسى وذلك في عـــام ١٣٧٩ هـ ١٩٥٩ في مدينة جدة .

لولا وجود القصيدة لضاعت القصة

-٧-

ولولا خصال سنها الشعر ما درى　　بناة العلى من أين تؤتى المكارم

مما لا جدال فيـــه أن بعض القصص لولا وجود القصائد الشعبية لضاعت آثارها من الوجود ولله در الشاعر القائل وخاصة مثل هذه القصة التي كنت أسمع بقصيدتها منذ أن كنت طفلا بدون أن أعرف شيئاً عن القصة ذاتهـا الا أنني بعد ما بلغت من الوعي حداً مكنني من معرفة معاني الشعر من حيث هو بعد ذلك ، أدركت ان تلك القصيدة ترمي الى معنى يشير به الشاعر الى وفـاء قام به تجاه رفيقه ، ولكن لو سألتني وقتها عن الشاعر او عن القصة التي أثارت شجون الشاعر وشحذت ظروفها قريحته ، لو سألتني عن ذلك لما استطعت ان أفهم شيئا بهذا الشأن الا بعد ان كرست جهودي نحو القيام بتسجيل شيم العرب وبما لا شك فيه ان الكثير ممن يحفظون القصيدة لا يعرفون شيئا عن قصتها ما عدا القليل من أهــالي بلدة الشاعر نفسه وخاصة رواة الأدب الشعبي

والقصة حدثت في عام ١٢٨٠ هـ . على وجه التقريب :

وخلاصتها أن نفراً من بلدة الرس(١) سافروا لاداء فريضة الحج وفي عودتهم سقط شخص منهم عن راحلته فتحطمت ساقه ، ويدعى هذا الشخص (جارد ابن ذياب) فحاول رفاقه ان يحملوه على الراحلة ولكن الجريح مـــا استطاع الركوب وظل يئن ويضجر من تأثير الكسر الذي أصابه فظل رفاقـه حيارى في أمره وبقوا يتداولون الرأي فيه ماذا يصنعون بـــه انقسم رأي الركب الى قسمين : قسم منهم يرى ان يحمل فـــوق راحلته بصرف النظر عن كونه لا يتحمل ركوب الراحلة والقسم الآخر يرى ان ليس من الشيم والتقـاليد العربية بحالة كهذه ان يرغموا رفيقهم على شيء لا يستطيع احتماله كجريح .. وكان على رأس كل فريق من هـــذين الفريقين المتخالفين بالرأي شخص قوي المعارضة ، فرئيس أصحاب الرأي الأول يـدعى صالح بن رخيّص ورئيس الجانب الثاني فتى يسمى (خالد العلي) وبعد الجدال الطويل بين الفريقين رجحت كفة ابن رخيص فقرر القوم ان يحملوا الجريح على راحلته بـــدون ان ينظروا لعدم احتماله وأصبح خالد العلي وحيداً برأيه حيث تخلى عنه رفاقه وراحوا يؤيـدون فكرة ابن رخيص مخالفين رأيه الذي يشير بـــأن يظلوا جميعاً يعتنون برفيقهم الجريح حتى يجبر عظمه ويبلغ من الصحة درجة يستطيع معها ركوب راحلته بدون كلفة .. وعندما رأى خالد ان رفـــاقه اجمعوا على رأيهم لم يسعه الا ان يذعن للأمر الواقع .. وفي الحين الذي جـــاء القوم ليحملوا الجريح على راحلته عند ذلك اغرورقت عيناه وأشار بطرفه الى خالد اشارة يؤخذ من معناها انه يستنجد بخالد فكأنه يقول باشارته هذه : (ادركني يا خالد ...)

أثارت هذه الاشارة نخوة خالد وعندها آلى على نفسه بان لا يتخلى عـــن رفيقه حتى يجبر كسر ساقه او ان يموتا معا ، وقد حاول رفاقه ان يقنعـوه ولكن محاولتهم تفتت على صخرة عناده وإرادته الفولاذيتـــين وعندما رأى الركب اصراره تركوا عندهما ما استطاعوا من المـاء والزاد وذهبوا لينجوا بانفسهم لئلا يفتك بهم الظمأ .. أما خالد فقد بقي يمرض رفيقه الجريـح ويعتني

(١) الرس احد بلدان القصيم

به عناية لا يقوم بها إلا والدته الحنون الى ان جبرت عظامه وشفي شفاءً تاماً وذلك بعد مضي ثلاثة اشهر قضاها خالد بجوار رفيقه وكانا على وشك بان يفتك بهما الظمأ لولا وجود ما وجده خالد بمحض الصدفة .. أما من حيث الطعام فقد كانا يعيشان على الصيد الذي يصطاده خالد ببندقيته خاصة بعدما انتهى الزاد الذي تركه رفاقهما ، وكانت النهاية ان عاد خالد برفيقه بعد مضي تلك المدة التي ظن أهلهما انهما ماتا ظمأ وجوعا ...

واليك بعضا من القصيدة التي أنشدها بطل القصة خالد والتي كما اشرت آنفا لولا وجودها لدرست القصة وانمحت ..

ولما كان مطلع القصيدة والبيت الذي يليه يبعدان بنا عن صميم المعنى الذي نحن بصدد شرحه فقد رأيت ان اختصر القصيدة وان لا آتي منها إلا بالأبيات التي تعبر تعبيراً واضحا عن تصوير الشاعر للقصة كقوله :

يا بنْ رْخَيّص كِبْ عَنّكَ التّزواريب

عَمارنا يا ابنْ رْخَيّص عوّارى

يخاطب الشاعر ابن رخيص باعتبار انه كان زعيم القوم الذين يرون الرأى الذي يرمي الى حمل رفيقهم الجريح . . والمعنى هنا ان الشاعر يزدري ابن رخيص ويقول دعني من حديثك الذي تقصد منه تثبيط الهمة . . وفي عجز البيت يقول الشاعر ان حياة بني الانسان كلها محدودة وأشبه ما تكون بالعارية فيجب والحالة هذه ان يفعل المرء فيها ما أمكنه من جميل وتضحية فهذه الحياة زائلة ..

خَـوّينا ما نَصَلبِهْ بالمْصاليبْ

ولا يِشْتِكي مِنا الجِفا والعزّاري

يقول ان الرفيق له حرمة مرموقة عندنا ولا يمكن ان يمس بسوء ولا يرى منا جفاء .. وأنه من المستحيل ان تشد وثاقه على ظهر المطية :

لا َزِمْ تجيك أُمي بكَبْدَهْ لَوَاهيب
تبكي ومن كثر البكا ماتدارى
تسألــك باللي يعلم الجهر والغيب
عن ابنها اللي لكْ خَوِي مبارى
قل ابنكْ قَعَدْ بعاليات المرَاقِيب
في سِهلة ما حَولِه إلاّ الحبارى
يَتْنى خَوِيّه لِين يَبْدى به الطيب
و إلا فيجرى له من الله جارى

بما أن هذه الأبيات الأربعة متصل بعضها ببعض لذلك وجدت ان من الأنسب أن لا أفصلهن عن بعضهن ..

يقول الشاعر مخاطباً رفاقه عندما سافروا وتركوه :
يا أيها الركب سوف تأتيكـــم والدتي محروقة الفؤاد تبكي بكـــاء مراً وتسألكم بالله الذي يعلم الغيب والعلانية قائلة : أين ابني الذي ذهب مرافقاًلكم وعدتم بدونه ؟ .

هذا هو شرح البيت الأول والثاني من الأربعة ، ويقول بطل القصة وشاعرها في البيت الثالث والأخير :

اذا أتتكم والدتي وسألتكم عني مبدية شوقها بحرارة فقولوا لها ان ابنك

ذهب به الوفاء والتضحية في سبيل حياة رفيقه الى الحـــد الذي جعله يجلس في رأس جبل عال ليس لديه جليس ولا انيس ما عدا طيور الفلاة كل ذلـــك من أجل الوفاء لرفيقه الجريح وأكدوا لها بأنه سوف يظل بهذا الموقـع الى ان يبرأ رفيقه او يأتيه أمر من قضاء الله وقدره فيتوفى ، فحينئذ يكون قد قام بواجبه تجاه رفيقه .. ومن سياق القصيدة ليبدو انهما كانا في رأس جبل عال ..

وقد ظل في جانب رفيقه حتى تم شفاؤه فرجعا الى أهلهما سوياً .

واليك القصيدة بكاملها :

١ – يا ابن رخيص كبّ عنك الزواريب
عمـــارنا يـــا ابن رخيص عوارى

٢ – خوينـــا نصلبـــه بالمصاليب
ولا يشتكي منـــا الجفا والعزارى

٣ – لازم تأتيك أمي بكبدها لواهيبْ
تـَبْكي ومن كِثـْر البكا ما تدارى

٤ – تسألك باللّي يعلم الجهر والغيب
عن ابنها الـلي لـك خوى مبـــارىْ

---

١ – كب : دع . الزواريب – التثبيط .

٢ – خوينا : رفيقنا . الغزاري : المعـــاملة السيئة . المصاليب ؛ الكيفية التي أرادوا ان يحملوه عليها . أى ان يشد وثاقه على سرج الراحلة .

٣ – لازم : لا بد . لواهيب : جمع لهيب . تدارى : ترأف بنفسها .

٤ – خوى مبار : رفيق مساير

٥ - قل ابنك قـَعدْ في عالياتْ المراقيبْ

في سهلة مـــا حــوله الا الحباري

٦ - يَتـْنى خـَويـّهْ لين يبدى به الطيب

والا فيجري له مـــن الله جاري

---

٥ - المراقيب : الجبال . الحبارى : نوع من الطيور مفردها حبارى .

٦ - يتنى : ينتظر . لين : الى ان . الطيب : الشفاء .

الفصل الثاني

النخوة العربية

رُبَّ (وامعتصماه) ! انطلقت مِلْءَ أفـواه الصبايا اليتم
لامَسَتْ أسماعهم لكنّها لم تُلامِسْ نَخوَةَ (المعتصم)

عمر ابو ريشه

بنجدة الفرد انجد الوطن !!!

- ٨ -

مما يدعو الى الأسف بل والى الأسى والألم المرير ، اننـا كعرب مهملون الى ابعد حدود الاهمال الاحتفاظ بكل ما يمت الى تاريخ اسلافنا الأدبي والاجتماعي والسياسي والقومي بأرسخ الصلات الوطيدة .

واذا كان الاهمال هذا ظاهرة محسوسة عند جميع ناطقي الضاد بصورة عامة، فانه عند ساكني شبه الجزيرة بل بعبارة اوضح وأصح عند عرب نجد اهمال يتجاوز الحد ، وذلك للسبب الآتي :

وهو شيوع الأمية واعتمادهم في حفظ الاحداث والوقـائع على ذاكرة الرواة القصاصين فتكون الحادثة مثلاً ذات الأهمية محفوظة في صدور الرواة الى مـدة اقصاها قرن او قرنان ، واذا توفي هؤلاء الرواة ولحق بهم الناقلون عنهم ، فان الحادثة تدرس وتختفي من عالم التاريخ لسببين : السبب الرئيسي هو موت الجيل

الاول من الرواة والجيل الثاني الذي يليه ، واما السبب الثاني فهو وقوع أحداث من جديد تضيع القديمة في خضم الاحداث الجديدة .

وهكذا يضيع تاريخنا القومي ويختفي أثره من عالم الوجود ، بينما نجد الأمم الاخرى تحتفظ بتاريخها الماضي كاحتفاظها بقوتها اليومي ، واذا وقع لأي فرد من رجال تلك الأمم حادثة من الحوادث التي تسترعي الانتباه سواء أكانت تلك الحادثة من الاعمال الخاصة بالابتكار الصناعي او بالابداع الفكري او بالانتاج الادبي او بالمغامرات البطولية .. أجل اذا نبغ اي فرد من اولئك في اية ناحية من تلك النواحي نجد انهم يقدمون لذلك النابغ في حياته من الاوسمة والنياشين والثناء العاطر ويقيمون له المهرجانات والحفلات ويضعون له الراتب الذي يضمن له عيشة هنيئة سعيدة مدة حياته ، اما اذا مات فانهم يصنعون له تمثالاً تذكارياً ويقام له مهرجان سنوي كلما جاءت الذكرى التي توفي فيها .

ومن أوضح الأدلة على اهمالنا لتراثنا وعناية الأجانب بمجدهم ، اننا عندما نقارن بين ما قام به الضابط الطيار الالماني الذي اختطف السنيور موسوليني من قلعته ونذكر تلك الجعجعة التي أقامتها حكومة المانيا وقتها بصورة خاصة ، وما قامت به الدول الأوروبية بصورة عامة بما في ذلك اعداء المانيا النازية .. كل من هؤلاء وأولئك تضافرت جهودهم بالدعاية الرنانة التي أقاموا الدنيا وأقعدوها حتى بحت اصوات المذيعين وملئت أعمدة الصحافة الأوربية ، وألفت المؤلفات وترجمت تلك المؤلفات الى عدة لغات وأخذت منها الأفلام السينائية في كثير من دول العالم .

أقول : عندما نقارن بينما قام به الأوربيون الغربيون والشرقيون من اهتمام وتمجيد وثناء خالد لذلك الطيار الالماني ورفاقه الذين اختطفوا السنيور موسوليني

من قلعته أبان الحرب العالمية الثانية ، وبين العرب الذين اختطفوا الأمام فيصل ابن تركي آل سعود من سجن محمد علي الخديوي .. نجد البون شاسعاً الى مـا لا نهاية له . أقول ذلك ومرارة الأسى تحزّ في نفسي، عندما أجد اولئك الأجانب يفعلون من التشجيع لرجالهم العاملين كل ما يمكنهم فعله لايجاد تنافس ومسابقة على الابداع والأعمال الجدية انى كان نوعها، بينا نحن لا نعبأ بمثل هذه الأمور الا كا يعبأ الطفل بالألعوبة التي تقدم اليه فيفرح بها الطفل في ساعتها فرحة ارتجالية موقتة ، وبعد فترة وجيزة يركلها برجله زاهداً بها وذاهبــاً ينقب عن العوبة ثانية من جديد .

هذا المثل على بساطته يوشك إن يكون مطابقاً لواقع أمرنا من حيث اهمالنا لتاريخ أسلافنا وعدم اهتمامنا بتشجيع العاملين اني كانت اعمالهم .

***

قد تكون دراستي للتاريخ بصورة عامة أكثر من دراستي لأي فن كان .. وخاصة تاريخ بلادنا العربية ، وكثيراً ما احصر اهتمامي بمتابعة الاحداث ذات الاتصال المباشر بشيم العرب ، سواء ما يصدر عن جهود الجماعات او ما يصدر عن المجهود الفردي .. وكنت قد درست اسباب العدوان التركي الذي قـام به ابراهيم باشا الخديوي على قادة الجزيرة العربية آل سعود ؛ سواء مـا كان في عهد الامام عبدالله بن سعود عندما استولى ابراهيم باشا عليه في عام ١٢٣٣ هـ ١٨١٨م او ما كان بقيادة خورشيد باشا الذي استولى على الامام فيصل بن تركي آل سعود وذلك في عام ١٢٥٤ هـ ١٨٣١ م .

كل ذلك درسته بتدبر وامعان كما اطلعت على قصة هروب الامام فيصل من

سجنه في مصر ومجيئه الى نجد، ولكن الشيء الذي لم أطلع عليه بل ولم يذكره أي مؤرخ من المؤرخين الذين اطلعت على مؤلفاتهم، هو اسم الاشخاص الذين غامروا بحياتهم واختطفوا الأمـــام فيصل من معتقله في مصر ، وحتى المؤرخ عثمان بن بشر عندما جاء الى هذه الناحية لم يشر اليها لا من بعيد ولا من قريب ، وانمـا مر عليها مر الكرام بكتابه (عنوان المجد) ص ٩٩ ج ٢ الطبعـــة ١٣٤٩ هـ فقال مانصه حرفياً :

(في اول هذه السنة يعني سنة ١٢٥٩ هـ نزل الامام فيصل من حبسه بحبال لما اكثر التذلل والتضرع عنـــد ربه والابتهال ، ونزل من رأس القاهرة ومعه أخوه جلوى وابن عمه عبدالله بن ابراهيم وابنه عبدالله . ومضى المؤرخ الى ان قال .. وكانوا قد واعدوا ركائب تحتهم فركبوها فساروا الى جبل شمر وأرسلوا الى عبدالله بن علي بن رشيد يخبرونه بمجيئهم فتلقاهم بالرجال والرحائل ودخلوا بلدة حائل ، وقابلهم بالتكريم والاكرام وعظمهم غـــاية الأعظام ، وقال أبشروا بالمال والرجال والمسير معكم والقتال) .

المقصود هنا هو ان ابن بشر الذي يعتبر تاريخه مرجعاً في هـــذا الشأن ، لم يشر الى الرجال الذين اختطفوا الأمام فيصل من سجنه ، وكل ما في الأمر انـه قال : (وكانوا قد واعدوا ركائب تحتهم فركبوها) ، اما الرجال الذين جاؤا بالركائب والذين لولا وجودهم لما استطاع الامـــام ان يهرب من سجنه ، هؤلاء الابطال الشجعان اصحاب النخوة العربية لم يذكرهم ابن بشر مع الأسف ، وانما ذكر الركائب .

وفي احدى المناسبات التي اجتمعت بها بالأخ الاستاذ العلامـــة الشيخ حمد الجاسر ، دار البحث بيننا حول تاريخ بلادنا فقال الجاسر انه وجد في مكتبة

شركة ارامكو في الظهران نبذة مختصرة عن تاريخ نجد نقلهـــا الاستاذ بديع البستاني ، عن المرحوم الشيخ ضاري الفهيد الرشيد ، وانــه اي الاستاذ الجاسر أخذ عنها صورة فوتوغرافية .

ولما كنت اعرف ان ضارياً من الملمين بتاريخ نجد ، كما انه في الوقت ذاتــه شاعر شعبي مجيد ، فقد ابديت رغبتي للاستاذ لجاسر بـــأن يطلعني على النبذة المذكورة وقد كان الجاسر وقتها يقيم في بيروت ، وكانت النسخة في الرياض ضمن مكتبته هناك .. ولكن الاستاذ الشهم طلب النسخة من الرياض بناء على رغبتي وعندما جاءت سلمني اياها .

وقد أعدت قراءتها ثلاث مرات ، وأحسن شيء اعجبني فيها هو ان الاستاذ البستاني نقل الرواية عن الشيخ ضاري بتعبيره الشعبي على علاتــــه ، وعلى وجه العموم لم يكن في تلك النبذة شيء غريب عليّ من حيث الأصل والجوهر ، اللهم الا الشيء الذي هو العمدة في بحثنا هذا وأعني به ما ذكره ضاري بصورة اجمالية عابرة عن النفر الذين اختطفوا الامام فيصل بن تركي من وسط معتقله في مصر ، فكل ما في الأمر ان ضارياً عندما جاء الى هذه الناحية قال ما نصه : (وجاء الامام فيصل بدو واختطفوه من مصر) الخ .. بدون ان يذكر اسم البدو بــل ولم يذكر اسم القبيلة التي ينتسب اليها هؤلاء البدو ، ولست ادري هل ان الشيخ ضارياً يجهل اسماء هؤلاء البدو ، ويجهل ايضاً اسم القبيلة التي ينتمون اليها ، او انه لا يجهلهم ولكنه لا يريد ان يذكر اسمهم ، لأنهم قد يكونون من غير قبيلته ، فان كانت الاولى فهي مصيبة من مثل ضاري الملم بأخبـــار العرب ، وان كانت الثانية ، فالمصيبة اعظم ، وعلى اي شكل فان ضارياً اعطانا دليــلا نستند اليـه بقوله : جاء بدو و ختطفوا الامام فيصل ، أي انـــه بعبارته هذه كان أوضح تعبيراً من ابن بشر الذي يذكر الركائب بدون ان يذكر الرجال الذين أعـدوا

الركائب وجاؤا بها.. وهكذا تضيع علينا معرفة هؤلاء الرجال اصحاب النخوة العربية الذين اختطفوا زعيمهم ، تضيع بين ابن بشر الذي لم يذكر الا الركائب وبين ضاري الذي لم يذكر الا البدو .

وبعد .. فقد اشرت منذ قليل الى الدعاية الرنانة التي أقامها الأوروبيون للطيار الالماني ورفاقه الذين اختطفوا الزعيم الطلياني من معتقله ، ويطيب لي ان أقول الآن يا ترى لو ان هؤلاء البدو الذين قدموا حياتهم قرباناً على مذبح النخوة والنجدة لزعيم وطنهم والذين غامروا بحياتهم وبراحتهم وجاؤا من قلب الجزيرة العربية ممتطين رواحلهم وقطعوا مسافة ما بين مصر وأقصى نجد لا تقـل عن مسيرة شهرين للركائب ، لا اولئك الطيارين الألمـان الذين لا تتجاوز مشقة سفرهم ساعات محدودة في الجو ، أقولها ثانية وثالثة لو ان مغامرة هؤلاء البدو عند اولئك الأجانب الذين يعيرون مثل هذه الأمور جلّ اهتمامهم أيمكن ان تدرس مآثرها وينسى اسماء رجالها الابطال الاشاوس كما طوى اسماءهم الاهمال والنسيان عندنا .. هذا مع البون الشاسع بين الزعيم الطلياني السنيور موسوليني الذي عندما ظفر به شعبه مزق اشلاءه وقتله شر قتلة .. وبـين الزعيم العربي الامام فيصل الذي عندما جاء الى شعبه ابناء الجزيرة استقبلوه بقلوب طافحة بالولاء لشخصه والايمان بزعامته والاجلال والتقدير لذاته ، لأن الوطن أصيب بنكسات واضطرابات بعد اعتقال الأمام فيصل فكانت عودته الى الوطن عودة الاستقرار والاطمئنان .

وكانت نجدة اولئك البدو وللأمام فيصل من معتقله نجدة للوطن بـأسره ونجدة لأمة بكاملها لا نجدة لشخص بمفرده .

والشيء الذي اخم به بحثنا هذا هو انني سوف أسعى ما استطعت بالاتصال بالشيوخ الرواة في الجزيرة لعلي أصل الى معرفة اسماء هؤلاء الرجال لكي أخلد

ذكرهم بصورة اوضح بها اسماءهم واسم القبيلة التي ينتمون اليها ، لاعتقادي ان عودة الامام فيصل الى الوطن بفضل مساعي اولئك الشجعان ذوي الشهامة تعتبر نقطة تحول في تاريخ وطننا العزيز (١) .

---

١ - بعد ان انتهيت من كتابة هذه القصة ذهبت الى الوطن في ١٠ شوال سنة ١٣٨٣ وقد سنحت لي الفرصة بالاجتماع ببعض الرواة فسألت عن اسماء اصحاب النجدة فلم أجد من يخبرني عنهم سوى شخص من حاشية الملك فيصل بن عبد العزيز وهو المدعو سعد بن عيسى فهذا الرجل يؤكد ان الذي قام بهذه النجدة شخصان من قبيلة عتيبة احدهما يدعي حزام الهرار والثاني يسمى المريبض .

أخو النخوة الذي حارب المستعمرين بسلاحهم

- ٩ -

لم تكن الحرب التي شنها الايطاليون سنة ١٩١١ م على عرب ليبيا حرباً استعمارية فحسب، بل وحرباً صليبية، وذلك ان البابا نفسه تولى توزيع الصلبان على قادة الغزاة الفاتحين ، وكانت نواقيس النصر تدق في الكنائس في كل مناسبة يسفك بها الغزاة دم الابرياء الليبيين او يغتصبون أرضاً من أراضيهم ، الامر الذي خلق في نفوس ذوي الشهامة العربية ـ والغيرة الاسلامية استعداداً لمحاربة هؤلاء الصليبيين الطغاة .

وكان في مقدمة المجاهدين البواسل محمد صالح حرب(١) الذي أخذته النخوة العربية والغيرة الاسلامية وضحى برتبه العسكرية ورواتبه وهجر أهله وبلاده وراح يكافح في جانب اخوانه العرب الليبيين رابطاً مصيره بمصيرهم ، مفضلا

---

١ ـ هو رئيس جمعية الشباب المسلمين في الجمهورية العربية المتحدة ، وكان وزيراً للدفاع في حكومة علي ماهر في مصر .

حياة المجاهدين بصحراء ليبيا القاحلة على رفاهية العيش في ضفاف النيل .

كان الايطاليون بحربهم الصليبية لليبيا يعتمدون الى حد كبير على الانجليز بحكم الرابطة الصليبية والاستعمارية وذلك منذ بداية هجومهم على ليبيا ، اي قبل وقوع الحرب العالمية الاولى وكانت المؤازرة التي يقوم بها الانجليز للطليان تقتصر في بداية الامر على حصار ليبيا اقتصادياً ، ولما كانت مصر وقتها ترزح تحت السيطرة الانجليزية فقد كان من السهل على الانجليز ان يحكموا الحصار الاقتصادي على المجاهدين وأن يمنعوا عنهم أية معونة تأتيهم من اخوانهم العرب سواء كانت هذه المعونة مؤناً او ذخيرة أو مجاهدين ، كان الانجليز يفعلون ذلك قبل ان تقع الحرب العالمية.. اما بعد ان وقعت الحرب واصبحت ايطاليا حليفة للانجليز ضد المعسكر الالماني فإن من بدهيات الامور ان تصبح مساعدتها لايطاليا مساعدة عسكرية ومما لا شك فيه ان أية مساعدة لايطاليا سوف تكون على حساب المجاهدين الليبيين .

كان محمد صالح حرب وقتذاك على رأس قوة عسكرية مصرية متاخمة للحدود الليبية برتبة (قومندان – مقدم) وفي ذات يوم امر جنوده بأن يأخذوا كامل استعدادهم وان يسيروا قدماً نحو الجهة الغربية . . وخرج يقودهم جهاراً ، وعلى مرأى من القادة الانجليز الذين كانوا يعتقدون انه خرج بجنوده – للتدريب او الاستطلاع ، اما انهم يظنون بأن الجرأة ستبلغ به الى الحد الذي يجعله يخرج من عندهم بجنوده عياناً بياناً لينضم الى صفوف المجاهدين ويحاربهم بسلاحهم .. هذا الظن كان ابعد ما يتصورونه لعدة امور :

– منها ان المجاهدين لم يكن وضعهم يشير الى اية علامة من علامات النصر بل كانوا في اسوأ حالة من المجاعة والحرب الدامية امام قوة الاشرار التي تفوقهم عدداً وعدة اضعافاً مضاعفة ..

– ومنها انه هو وجنوده كلهم اصحاب عائلات في مصر وليس من المعقول ان – يغامروا جميعا هذه المغامرة اليائسة لمناصرة رجال ليس هناك اي امل محسوس لفوزهم على عدوهم الغاشم ، ولكن محمد صالح اخلف ظنهم وذلك انه لم يقف به الامر بأن انحاز الى صفوف المجاهدين فحسب ، بل ذهب في طريقه واتصل بعمد ومشايخ مرسي مطروح وضمهم اليه وبعد ذلك جمع العمد والمشايخ والضباط وألقى فيهم كلمته التاريخية قائلا :

– نقف الآن بين معسكرين احدهما معسكر الانجليز اعداء الله والوطن .. والآخر معسكر العرب والمسلمين المجاهدين وقد املى علي ضميري وواجبي الديني بمحاربة الانجليز ، وها انذا عقدت العزم وتوكلت على الله لأحاربهم فمن كان منكم حريصا على حياته او لا يستطيع فراق اهله وتحمل ما يخبئه لنا القدر من مستقبل مليء بالكفاح والاهوال الجسام فليعد بأمان ولن احول بينه وبين رغبته .. ولكن بشرط ان يترك ما معه من سلاح وذخيرة ومؤونه ..

ولما كان الكلام الذي يصدر من القلب يمضي كالسهم الى قلب السامعين فقد كانت النتيجة ان استجاب جميع جنوده وضباطه ومن معه من المشايخ لرغبته وقرروا ان يموتوا جميعا برفقة قائدهم او يحيوا جميعا ..

وكانت ثورة محمد صالح مفاجأة للانجليز وخاصة انضمام بعض القبائل اليه كأولاد علي الذين انقادوا لرغبته .. وقد ابلى الرجل في جميع المعارك التي خاضها ضد المستعمرين بلاء حسنا ..

ويتضاعف اعجابنا وتقديرنا للبطل محمد صالح حرب انه اقدم على تلك المغامرة بدون ان يأخذ رأي ضباطه ، وكما ذكر عنه الاستاذ محمود شلبي (في كتابه سالف الذكر ص . ٥) بقوله : انه لم يعلم عن خطته التي اتخذها سوى ضابط من ضباطه فقط ، أما البقية فانهم لم يعلموا شيئا عندما خرج بهم حتى فاجأهم بما هو عازم عليه ، ولئن دلّ ذلك على شيء فانما يدلنا على ثقة الرجل بنفسه كقائد يدرك مدى هيمنته على نفوس

ضباطه وجنوده ولولا ثقته بنفسه وإيمانه بالله لما اقدم على هذه المغامرة قبـل ان يأخذ رأي جميع ضباطه، لأن خطته هذه بالامكان ان تفشل فيما لوقدر ان احد ضباطه غدر به وأطلق عليه رصاصة من خلفه .. وعندها سوف تنقلب الخطـة رأسا على عقب .. ولكـن الرجل كمـا اشرت يبدو انه راسـخ الإيمان بالله ووطيد الثقة بنفسه وفسيح الأمل بنفسه وبرفاقـه جميعـا ضباطا وجنودا وعمداً .. ومشائخ .

النخوة التي أسرني صاحبها بفضله

- ١٠ -

اذا كنت أشعر براحة كبرى عندما أسجل أية حادثة من الحوادث التي تمت بصلة وثيقه الى شيم العرب بصورة عامة ، فانني ولا شك سوف أشعر بسعادة تغمر كياني ولذة لا تعد لها لذة عندما أدون حادثـة من شيم العرب كهذه التي أسداها فاعلها الى مصدر وجودي بهذه الحياة ، ولئن كنت اعتبر ان المجهـود الذى ابذله في خلود شيم العرب بشكل عام لشرفا اعتز به ، او فرض كفايـة اقوم به ، فانني اعتبر ان تسجيلي لقصة صاحب هذه النخوة العربية فرض عين بالنسبة لكاتب هذه الأحرف بالذات ..

كان والدى رحمه الله كشأن الكثير من رجال ذلـك العهد الـذين يرون ان اظهار العطف الكثير للولد يضعف شخصيته ، ولذلك لا اذكر منـذ ان كنت طفلا ان والدي قبلني الا في حالة قدومه من سفر او ذهابه الى سفر . .

وفي ذات يوم وجدته طبعني بقبلة عطف تنم عن أنه مسافر الى جهة ما ثم يعود بعد ذلك ، الا انني رغم حداثة سني شعرت بهاجس طاف بمخيلتي يوحي الى ان تلك القبلة سوف تكون آخر قبلة من والدي ، فذهبت مسرعا من المكان

الكائن جنوب البلدة الى المنزل الذي يقيم فيه أبي ، وهو شمال البلدة قاصداً أن أتمتع اكثر برؤيته وقد خيل إليّ انني لن أراه أبداً بعد ذلك ، وعندما وصلت منزله ودخلت قاعة البيت ولم أره ، ذهبت لأنظر الى عدة السفر التي أعهدها في البيت كالرحل والخرج والقربه الخ .. وعندما لم أر أثراً لأي منها ، أيقنت أن والدي سافر فعدت اسأل عنه زوجته لازداد يقيناً فكان جوابها ان اجهشت بالبكاء ، فقارنت ساعتذاك بين ما دار بمخيلتي وبين بكاء تلك المرأة فتضاعف تشاؤمي فخنقتني العبرة ، وخرجت من المنزل أسكب دمعاً غزيراً ، وكنت أظن ظناً يكاد ان يكون يقيناً قاطعاً بأن أبي نفذ فكرته التي كانت تدغدغ خياله منذ فترة من الزمان وهي عزيمته على السفر الى العراق ، وكنت اذكر رحلته في العام الماضي عندما كنت بصحبته وما لقيناه من أهوال ، كان موضوع الغرابة والعجب اننا نجونا من الموت المحتوم(١) بمعجزة الهية ، وعندما اذكر ذلك يتضاعف خوفي ويزداد قلقي على أبي ، بحكم ان السفر الى خارج البلاد في ذلك العهد لم يكن متيسراً الا باذن خاص من ولاة الأمر ، اذاً والدي حاول الحصول على الاذن ، ولم يوفق ، وهذا معناه انه سوف يعرض نفسه الى مصير تكون النجاة منه ليست مضمونة بقدر ما يكون الخطر محققاً محتوماً .

كادت المخاوف ان تتحقق

فهمت من زوجة والدي بعد ان عدت اليها في الغد ان أبي سافر يصحبه ثلاثة من قبيلة شمر بادية بلادنا (حائل) ، وهذا الخبر طمأنني الى حد ما ، فذهبت أعد الأيام بالدقيقه منذ الليلة التي سافر بها أبي ، وكل يوم يمر لم اسمع شيئا عـ ه يجعلني ازداد – اطمئناناً على نجاته من رجال الأمير ابن مساعد حاكم حايل الحالي ، حيث كان جنوده يتجولون على رأس الحدود المتاخمة للعراق ،

---

١ ـ انظر القصة بكاملها في ج . ٢ ـ بعنوان « الرحل الذي كان سبباً لامتداد أجلي »

الأمر الذي جعلني اعتقد ان رفاقه البدو بحكم خبرتهم الواسعة في طرق الصحراء سوف يسلكون به سبيلا بعيداً عن أعين جنود الأمير ، ولكنني عندما اذكر ان الفصل وقتها صيف ، تنبعث مخاوفي من جديد لعلمي بأن رفاقه مهما حاولوا ان يتجنبوا الطرق التي تبعدهم عن رؤية جنود الامير فــإنهم سوف يضطرون مرغمين الى المرور بالآبار ليسقوا رحالهم ويملأوا قربهم ، وهذه الآبار من شأنها ان يراقبها رجال الامير بصورة مستمرة لكي لا يفلت من أيديهم أحــد من المشتبه بأمره .

لم أبق بحائل بعد سفر والدي اكثر من ثلاثة ايام حيث ذهبت بصحبة رجل من أهل المدينة يسمى (أحمد شعبان) جاء الى حائل ليشتري سمناً ويذهب به الى المدينة فذهبت بمعيته راكباً على ظهر احدى الرواحل التي تحمل اسقية السمن، ومن المدينة شخصت الى جدة بصحبة قافلة مماثلة للأولى وفي جدة أقمت مــدة تقارب عشرة أشهر حيث أصبت بمرض الحمى (الملاريا) ، وهناك بلغني ان والدي وصل بغداد وانه حــل ضيفاً على المرحوم الملك فيصل بن الحسين ، كما بلغني ان دورية الامير ابن مساعد التي يرأسها (زبار الجميلي) (١) التقت بــه على بئر يسمى الحزل (٢) واعتقلته حين لم تجد معه وثيقة تدل على انــه مسافر بإذن من المسؤولين ، ولكنه هرب من السرية ووصل العراق .. وكانت الاخبار التي وصلتني بخصوص افلاته من قبضة هذه السرية متضاربة ، فهناك من يقول : ان زبارا رئيس السرية كان صديقاً لوالدي وانه اغضى طرفه عنه وتركه يهرب.. وهناك من يقول انه جاءه اشخاص من رجال قبيلة شمر واختطفوه ليلا من بــين ايدي الجنود ، وكانت الشائعة الاولى اكثر شيوعــاً ، بل كانت هي الارجح والأعظم رواجاً .

---

١ - زبار الجميلي من قبيلة حرب .

٢ - الحزل : بئر عذب ماؤه وخصبة تربته اكثر ما يقطنه قبيلة شمر ويقع شمالا عن مدينة حائل ومتاخماً للحدود العراقية .

ولما كنت دون بلوغ سن الرشد ، فانني لم أستطع ان أفنـد الاولى بالمنطق السليم الذي يؤخذ من مفهومه بأن رئيس السريـة اذا كان صديقاً وفيـاً لأبي ، فانه يتغاضى عنه من الأساس ويتجاهل وجوده ، فانني بطبيعة الحال لم أتوصل لمعرفة كنه هذه الحقيقة الواضحة الملحوظة .

وبعد مضي اربع سنوات قضيتها متجولاً بين السودان فالقاهرة ، في رحلة يطول شرحها لم أعلم شيئاً عن حياة والدي خلال تلك الفترة، بعد ذلك اجتمعت بشخص يدعى سعيّد المرجان من أهالي نجد ومن ساكني مدينة بريدة ، التقيت به في جوار الأزهر في القاهرة ، وبعد ان عرفته بنفسي أفادني ان والدي توفي منذ ثلاث سنوات في عمان .

ومن القاهرة شخصت نحو سوريـة حيث وجدت هنـاك الكثير من سـاكني بلدتي ومن باديتها .

أخو النجدة المزيف

وفي سورية التقيت بشاب يدعى (مدلول الغيثي) من قبيلة شمر نجد الذي راح يروي لي الصورة التي اعتقل بها والدي في تلك السفرة وانـــه اختطفه من ايدي الجنود الذين اعتقلوه ويزعم (مدلول) انه كان احد الرجـال الذين اخذتهم النخوة وغامروا حتى اختطفوا ابي من بـين ساجنيه ، وذهب يروي القصة على النهج الآتي فيقول :

كنت أحد رفاق والدك الثلاثة عندما سافرنا من مدينة حائل مساء متجهين نحو العراق وبعد ما قطعنا الكثير من حدود المملكة وأوشكنا ان نصل الحدود العراقية هناك اضطررنا بدافع الظمأ لأن نتجه الى احدى الآبار القريبة منا فكان أقرب الآبار الحزل ، فقصدناه وبعد أن أسقينا رواحلنا وعبأ كل منـــا سقاه ،

هناك فوجئنا برجال الأمير ابن مساعد ، ويمضي الراوي بحديثه فيقول : لما كنا الرفاق الثلاثة بدوا ، فان رئيس جنود ابن مساعد اعرض عنا ، وراح يطلب من ابيك بصفته حضرياً الوثيقة التي تخول له السفر ، ولما لم يجد معه شيئاً من ذلك اعتبره هارباً ، فاتخذ نحوه الاجراءات اللازمة ، حيث اعتقله ووضع حديداً في رجليه ، كما وضع يده على راحلته وأمتعته ، أما نحن الرفاق فلم يعترض لنا بسوء ، ويواصل (مدلول) حديثه فيقول : وقد تظاهرنا تلك الليلة أمام رجال ابن مساعد بأننا لسنا مهتمين بأمر رفيقنا حتى مضى النصف الاول من الليل وعندئذ تسلل واحد منا واختطف السجين ، بينما ظل الاثنان كميناً يحمي ظهر الخاطف والسجين معاً ، ببندقيتهما ، وختم (مدلول) حديثه بأن قال وقد تمكنا من اختطاف رفيقنا من بين أيدي رجال الامير ، ولما لم يكن في قبضتنا عدة لفك الحديد الذي وضعه رئيس الجنود في رجلي رفيقنا فقد ظل ذلك الحديد برجليه حتى وصلنا مدينة النجف العراقية وفصمنا عنه القيد ..

انتهت رواية مدلول الى هذا الحد تلك الرواية التي كدت اؤمن بصحتها إيماناً كاملاً وذلك للأدلة المتوفرة الآتية :

اولاً — ان الرواية الاولى القائلة بأن رئيس جنود ابن مساعد هو الذي اخلى سبيل والدي عامداً متعمداً .. هذه الرواية بدأت تتقلص وبدأ يحل محلها الرواية المعاكسة القائلة انه اختطف رغم إرادة رئيس جنود الامير ..

ثانياً — ان راوي الحادثة يقدم لي ادلة تثبت صحة روايته ، منها انه ينعت ذلول والدي بأوصافها الكاملة ، كما ينعت منزل والدي في حائل ، ويذكر لي الظرف الذي سافروا فيه من البلاد ، وأكثر من ذلك هو انني عندما عدت الى ذاكرتي بدا لي ان هذا الشاب سبق ان رأيته ليلا في منزل والدي قبل ان يسافر ابي بيوم واحد وأكثر من ذلك أيضاً أن الشاب ذهب يذكرني بتلك الليلة التي رأيته فيها ، إذن كل القرائن تفيد أن (مدلولاً) صادق بروايته القائلة أنه أحد

الرفاق الثلاثة الذين اختطفوا والدي ، بل ويؤكد أنه هو البطل الاول الذي تنكب ببندقيته وتوشح بعتاده ، واختطف السجين من الرجال المحيطين به ، والدليل الأخير هو انني شاهدت رأي العين شجاعة أقدم عليها مدلول لايسعني شرحها ، ولكنها تعبر بأن مدلولاً مقدام لا يبيت على الضيم . وفاتك خطير إذا نيل من كرامته ..

كان من شأن هذه الأدلة المتعددة أن تجعلني أصدق مدلولا بروايته وأعتبره منقذاً لأبي ، ومسدياً إليّ معروفا كبيراً لا يمحى أثره من نفسي، ولكن فيما بعد بدا لي (مدلول) وان كان شاباً شجاعاً بلا شك ليس ذلك الشجاع الشهم اخا النخوة الذي تدفعه شجاعته وشهامته ونخوته الى التضحية بنفسه في سبيل الغير ، كما بدا لي منه أنه لا يبالي ولا يخجل من أن يتحدث عن نفسه بالشجاعة والبطولة حديثاً لا يمت الى الحقيقة بأدنى صلة من الصلات .

كيف عرفت أخا النجدة الحقيقي ؟ ..

كانت الخلاصة التي استنتجتها من حديث مدلول مضمونها كما يلي :

اولاً – انني اعتقدت ان الأدلة التي أوردها مدلول من حيث نعته لمنزل والدي ولذلوله ، وما ذكر من أنه رآني ، وما أظن انني رأيته ، كل هذه القرائن جعلتني أعتقد بل أجزم أنه صادق بقوله بأنه أحد رفاق والدي الثلاثة وأن رئيس سرية الامير ابن مساعد لم يعترض سبيلهم بصفتهم بدوا ولا تنطبق عليهم القوانين التي يجرى تطبيقها على الحضر ..

ثانياً – اعتقدت جازماً أن والدي اختطفه رجل بين جنبيه من النخوة والشهامة والشجاعة ما يجعله يغامر بنفسه ولو أدي الأمر الى ان يضحي بحياته في سبيل نجدته له ، كما اعتقدت أيضا ان اختطاف ابي جرى على نفس

الاسلوب الذي ذكره مدلول ، وبات لدى من اليقين القاطع ان مدلولا وان كان كاذباً بروايته عن نفسه ، ولكنه صادق من حيث وقـــوع الحادثة وتفصيلها ، ولكن الشيء الذي اصبحت بحاجة الى الوصول اليه هو معرفة بطل الحادثـة ، بعد ان ثبت لديّ بأن الحادثة وقعت على النهج الذي شرحه مدلول .

ومدلول يعرف ولا شك من هو الذي قـــام بتنفيذ المغامرة ولكنه من المستحيل ان يصدقني الحديث ويخبرني بالحقيقة ، كما انني ايضاً من المستحيل ان أثق بروايته بعدما عرفته جيداً .

وبعد رحلتي تلك عدت الى بلادي حائل بعـد مضي تسع سنوات خرجت منها كما ذكرت آنفاً دون بلوغ سن الرشد وعدت اليها شاباً مفتول الساعد أمرد لم يكتمل الشعر بوجهي بعد ، وكنت كلما انظر الى جدران بلادي المبنية بالطين يخيل إليّ انها هبطت عن ارتفاعها الذي كنت أعهده سابقـــاً ، فاذهب اسأل نفسي هل ان الأمطار أثرت في بنيان الطين الى الحد الذي جعلها تتلاشى شيئاً فشيئاً بهبوط مستمر ؟.. ام أن نسبة الهبوط جاءت معاكسة لنسبة النمو الذي امتدت به قامتي ارتفاعاً مضاعفا عن ذي قبل ، وكان الجواب الأخير منطقيـاً اكثر من نظريتي الخاطئة الأولى .

ولم يستعص عليّ معرفة بطل الحادثة خاصة بعد ان وصلت البـلاد التي هي عاصمة للقبيلة، وما ان ذهبت اسأل همساً حتى جاءني الخبر اليقين على يد شخص يدعى (عقيل (١) الجيشي) الذي اذكر انه همس بأذني قائلا :

ـ أحقيقة تريد ان تعرف الرجل الذي اختطف والدك من بين يدي ساجنيه ؟..

---

١ ـ عقيل الجميشى اصله من قبيلة عنزة ولكنه يعيش في وسط قبيلة شمر منذ وقت طويل ..

قلت برغبة أكيدة وحرص شديد ..

ـ أجل من هو ؟..

فقــال :

ـ انه خلف بن الويش ...

ـ من أي قبيلة ؟..

ـ من شمر ..

ـ من عبده والا من سنجاره والا من الأسلم ؟..

ـ بل من سنجاره ..

ـ من أي بطن يكون ؟

ـ من الزميل ..

ـ أهو على قيد الحياة ؟..

ـ أجل ومنذ مدة قريبة اجتمعت به ..

ـ اين يكون الآن ؟..

ـ في الصحراء الشمالية .

ـ في أي موقع ينزل ؟..

ـ شأنه شأن كل بدوي لا مكان له معين ، اللهم الا المكان الذي يتوفر فيــه الكلأ والمرعى الخصب لإبله .

ـ هل يأتي للمدن ؟..

ـ في المناسبة النادرة ..

ـ كيف عرفت انه هو الذي قام بتلك المغامرة ؟..

ـ كيف لا عرف والرجل صديقي الحميم ..

ـ أيمكن ان تروي لي قصة مغامرته ؟..

ـ أجل ، ولكن من الأحسن ان نبتعد قليلاً عن هذا المكان ..

كان الحديث الذى دار بينى وبين عقيل في مدينة حائـــل في وسط الموقع

الذي تجلب فيه الابل آنذاك في وسط السوق المسمى بـ (المسحب) من الناحية الشرقية ، ولما كان ذلك المكان حاشداً بالناس بصورة دائمة ، فقد اخذ بيدي عقيل الى مكان نا. لا يسمع حديثه احد وراح يروي لي الحادثة من الفها الى يائها..
وكانت رواية عقيل والرواية التي اوردها (اخو النجدة المزيف مدلول) تكاد ان تكون صورة طبق الأصل وان يكن ثمة اختلاف فإنما هو ـ اختلاف بالشكل فقط ..

اما من حيث الاصل فليس هناك اي اختلاف ، الا انه بدل ان يكون (مدلول) على حد قوله هو الذي حمل بندقيته واختطف السجين بحديده ، تكون الرواية الحقيقية على النهج الآتي :

جاء بطل القصة خلف وأعد راحلتين وجهزهما بكل ما يلزم من عدة السفر ثم جاء وتسلل هو ونفر من عشيرته الاقربين مدججين بالسلاح وقصدوا السجين المقيد بالحديد وكان في وسط رجال الامير المحيطين به من جميع الجوانب ، وكان الوقت بعد مضي النصف الاول من الليل ، وفي تلك اللحظة اختطف السجين اثنان من المغامرين ، والبقية ظل كل واحد منهم موجهاً فوهة بندقيته نحو الجنود النائمين الذين اصبحوا محروسين بعدما كانوا حارسين وقد استمر هؤلاء بمراقبتهم لحركات الجنود حتى جاءتهم اشارة من رفاقهم الذين اختطفوا السجين تفيد بان المغامرة انتهت ومعناه ان السجين نفذ من مصيره المجهول وحمله صاحبا الذلولين اللذان كان (خلف) احدهما بل هو الدماغ المفكر برسم المغامرة وهو المنفذ لها عملياً ..

وبالرغم من ان علامات الصدق وأدلة الوقار واضحتان على سيماء (عقيل) الذي اعهد انه على قيد الحياة منذ خمس عشرة سنة من هذا العام ١٣٨٤هـ١٩٦٤م بالرغم من ذلك فانني لم اكتف برواية الراوي واقف عند حدها ، بل رحت اتحقق من الثقاة هل هو من الرجال الذين تؤخذ روايتهم ؟. فكانت رواية كل

من سألته عن عقيل تفيد بأنه رجل ثقة صدوق ولم يختلف بتزكيته اثنان ..

وعندما تأكدت صحة رواية عقيل ، ذهبت اسأل عن بطـــل القصة خلف قاصداً ان ازداد تأكيداً عن معرفة شخصية الرجل وماضيه ، اعتقاداً مني ان نخوة كهذه لا يقوم بها الا رجل له ماض في الشهامة والرجولة ..

وحينما ذهبت اواصل اسئلتي عن الرجل ، توفر لديّ اكثر من دليـــل بأن الرجل جم المروءة شجاع ابي ، لا يبيت على الضيم وانه سبق ان قام بمغامرة لا تقل شأناً عن مغامرته هذه في عام ١٣٢٥ هـ عندما اهانه في مناسبة ما (سالم ابن سبهان) ، فما كان من ـ خلف ـ الا ان اغار على ركائب ابن سبهان ونهبها وباعها في العراق نـكاية به واخذاً بثأر كرامته منه ، والذي يقدم على مثل هذه المغامرة في ذلك العهد لا يستغرب منه ان يقدم على مغامرته هذه .

لا خيل عندي اهديها ولا مال

بعد ان توفرت لديّ الادلة بصحة رواية الراوي ، ثم ثبت لدي بدليـــل لا يقبل الشك بأن خلفاً اهل لأن يقوم بمثل هذه النخوة ، بعد ذلك بقيت اتمنى ان تتاح لي الفرصة المناسبة التي اتمكن بها من ان أكافيء هذا الرجل حسبما استطيع سواء مكافأة مادية ان امكنني ذلك ، والا فمعنوية ..

وفي سنة ١٣٥٧ هـ تجهز نفر من ساكني حائل رجالاً ونساء قاصدين تأدية فريضة الحج ، ولما لم يكن سبيل المواصلات ، كما هو الآن متيسراً ولم تكـــن السيارات متوفرة ، فقد كان الامر طبيعياً بأن يكون سفر هؤلاء الحجاج على الأبل ، وعندما وصلوا الى مكان يسمى (وادي الليمون) ويبعـــد عن مكة مقدار ثلاثة ايام للإبل ، في هذا المكان حطوا عن رواحلهم ليرتاحوا قليـــلا ، فـكان من امرهم ان اهملوا رواحلهم من ان يوكلوا واحداً منهم يتولى رعايتهـــا

فكانت النتيجة ان ذهبت الابل ترعى من الكلأ بدون ان تجد احداً يحرسها او يحد من حريتها في الحين الذي كان اصحابها في غفلة عنها ، ولم ينتبهوا الا بعد ان قطعت أبلهم مسافة بعيدة وتوارت عن الانظار ، ومما زاد الطين بلة كونهم في ارض مجدبة لا يبين فيها اثر الابل ، وغاية ما هنالك ان هب كل فرد منهم ينقب عن الابل ، وكانت النهاية ان جاء المساء وعاد جميع المنقبين بلا جدوى ، وظلوا بحالة من اليأس لا يحسدون عليها ، وكان من بينهم نساء لا يستطعن ان يتحملن من العطش والمشقة ما يتحمله الرجال .

وفي اللحظة التي فرغ بها صبر الرجال فضلاً عن النساء ، وشعروا جميعهم بسوء المصير ، في هذه اللحظة الحاسمة نجا هؤلاء بأعجوبة غريبة ، وذلك انه من قبيل الصدف الطيبة جاء فتيان قاصدين الحج ، وفي مسيرهم هذا وجدوا هؤلاء الرجال والنساء ضائعة رواحلهم وكان موعد الحج قريباً لا يسمح لهم بأن يتأخروا من اجل ان يفتشوا عن الرواحل الضائعة .. والمسافة بين مكة وبين الموقع الذي ضاعت فيه الرواحل ليست مسافة تنتهي بسير الساعات بل ولا بسير اليوم الواحد او اليومين والرواحل التي تقل هؤلاء الفتيان ليس باستطاعتها ان تحمل راكبيها وتتحمل الرجال والنساء الضائعة رواحلهم فأصبح هؤلاء الفتية مضطرين لأحد الأمرين : اما ان يحملوا تلك النساء واولئك الرجال حتى يوصلوهم مكة .. وهذا يعني انهم اي الفتيان سوف يسيرون مشياً على الاقدام مسافة لا تقل عن ثلاثة ايام او ان يذهبوا ويتركوهم عرضة لفتك الجوع والظمأ بهذه الصحراء الخالية من الغذاء والماء ، وكان هذا الاختيار الاخير أضمن لراحة الفتيان ، ولكنهم فضلوا نجاة وحياة تلك النساء واولئك الرجال الكثيري العدد على راحتهم ، فحملوا النساء اللواتي كن في الهوادج على رواحلهم كما كنّ من قبل كما حملوا الرجال ايضاً ، وظلوا يسيرون على اقدامهم حتى اوصلوهم مكة وادركوا الحج بكل سهولة ..

كنت ايامها في مكة ، فجاءني احد الرجال الذين ضاعت رواحلهم يقص

علي القصة من اولها الى آخرها ، ويصف كيف كان كل واحد من اولئك الفتيان ينافس رفيقه على حملهم وحمل امتعتهم، وعلى خدمتهم والعناية بهم حتى اوصلوهم مكة الخ ..

وعندما انتهى المتحدث من حديثه الذي اذا لم تخني الذاكرة انه صالح العلي (١) الخير الله قال :

ـ لقد جئت اليك لا من أجل أن أسرد اليك القصة ولكنني جئتك لأمر ثان ، قلت :

ـ ما هو هذا الأمر ، فقال :

ـ نحن نود أن نكافئهم على أعمالهم هذه مكافأة معنوية ، لأن البدوي يفضل الأمور المعنوية أكثر بكثير من الأمور المادية ، ولولا ذلك لكان بإمكاننا ان نجمع لهؤلاء الفتيان مالاً ونقدمه لهم مكافأة على معروفهم .. ولكنهم لن يقبلوا ذلك ، وهذا مما جعلني آتي اليك لأطلب منك أن تنشد قصيدة تثني عليهم بها لأعتقادي أن القصيدة سوف يكون لها أكبر وقع في نفوسهم ..

ثم مضى محدثي وقال :

ـ ألا ترى انهم يستحقون ذلك ؟. فقلت :

ـ أرى أنهم قاموا بواجب تفرضه عليهم الشيم العربية أولاً كما يفرضه عليهم الضمير الانساني ، لأنه ليس من الشيمة العربية أن يرى عربي أخاً له بحالة يهدده فيها العطش ـ والجوع بالموت ثم يتخلى عنه .. كما انه ليس من الوجدان الانساني ان يرى الانسان أخاه ـ الانسان عرضة للهلاك مهما كان لونه أو دمه او معتقده،

---

١ ـ صالح الخيرالله من بلدة حائل ولا يزال على قيد الحياة .

فيكفي أنه انسان .. فمن واجبه ان ينقذه ما استطاع الى ذلك سبيلا ..

ثم مضيت وقلت من أي القبائل يكون هؤلاء الذين اسعفوكم ؟.. فقال :

ـ من قبيلة شمر ..

ـ فقلت اذن هؤلاء بادية بلادكم فأصبح الواجب عليهم مكرراً .. بحكم انكم ولا بد تعرفونهم شخصياً كما يعرفونكم ، فصمت محدثي معترفاً بالأمر الواقع .. فعدت اسأله على سبيل الاستفهام قائلا :

ـ من أي فروع القبيلة رفاقكم ..أهم من عبده أم من سنجارة أم من الأسلم؟.

ـ من سنجارة ومن فخذ آل زميل ..

فعدت أكرر سؤالي ثانية :

ـ أكلهم من آل زميل ؟. فقال :

ـ أجل ..

والواقع انني بعدما عرفت ان هؤلاء من فخذ (خلف بن لويش) ذلك الرجل الذي أسدى الي معروفاً بنجدته والدي ، بعد ذلك قلت في نفسي :

لقد سنحت لي الفرصة لكي أقوم بما يفرضه علي الواجب نحو هـــذا الرجل الشهم ولو بتأدية شيء قليل من الواجب المعنوي والأدبي بتنظيم أنشودة شعبية مليئة بالثناء العاطر الخاص بفخذ خلف متخذاً من مدحي للفتيان الذين حملوا الحجاج وسيلة أصل على ضوئها لمدح خلف الذي غامر بنفسه وانقذ والدي من مصير لا يعلمه إلا الله ..

وكم كنت أتمنى ان لديّ من وضعي الاقتصادي ما يمكنني من أن اكافئه على معروفه بشيء مثمر ثمين أقدمه له بدون ان يعلم أنه مني كما قـدم اليّ معروفاً

بدون ان يخبرني بمعروفه ..

أجل كم كنت أود وأتمنى ذلك ولكن ظروفي القاسيـة وقتها حالت دون تحقيق أمنيتي هذه ..

ولما كان العرب قديماً وحتى عهدنا القريب وخاصة البادية منهم يعتبرون الشعر نبراسهم الحي وعنوان مجدهم الفذ وسجلا جوهرياً راسخاً لمآثرهم الخالدة ، فقد وجدت من اللازم علي أن أكسو خلفاً وفخذه حلة من الدرر الشعبية لكي أخلد بها مجده ومجد فخذه ما دامت اللغة الشعبية عامرة ليتناقلها الركبان ، ويشدو بها الفتيات والفتيان في كل زمان ومكان ..

وهذا هو جهد المقل وفقاً لقول الشاعر العربي :

لا خيل عندك تهديهـا ولا مال

فليسعد النطق ان لم تسعد الحـال

وهذه القصيدة التي أشير اليها لم تكن محفوظة عندي بكاملها، ما عدا الأبيات المناسب ذكرها للموضوع لا كمطلع القصيدة وبعض أبيات منها جاءت كما يلي :

بَيْضَا تشيَّدْ فَوْقَ عالِي طوِيَلهْ

في روس عالي شاغـات المشاهيل

الشرح : كنت ذكرت في قصة ابن نمش المطيري في كتابنا هـذا ذكرت أن العربي إذا شاء أن يشيد بمدح فرد أو جماعة ما يلجأ الى استعمال خرقة بيضاء يضعها على رأس عصا طويلة كطول الرمح ثم يطوف بها في أندية العرب الكبيرة وينادي بأعلى صوته قائلا : (بيض الله وجه فلان بن فلان) .. وكل من يسمع هذا النداء يعرف عن طريق البداهة ان المنادى باسمه فعل فعلا جميلا يستحق

التقدير والاجلال ، وينعكس الأمر فيا اذا كان الفعل قبيحاً عندئذ يوضع على رأس العصا خرقة سوداء ويقول حاملها (سود الله وجه فلان) .. وبقدر مـا كان الأول ينظر اليه بعين التقدير والاجلال بمجـــرد ما يسمع عنه ذلك الفعل ، ينظر الى الثاني بعين المقت والازدراء ..

وهذا ما قصدت بمطلع قصيدتي أعني ان هؤلاء الفتيان يستحقون ان ترفع لهم الراية البيضاء ..

من قُوْر (مَكَّهْ) لَيِن رأس الرّعيلة
تَشْهر وتوضي مِثْل ما يوضي سَهَيْل

في هذا البيت قلت يجب ان لا تكون هذه الراية البيضاء في مجتمع محدود وأن لا تكون مجرد خرقة لا يعلم عنها ولا ينظر اليها الا من يراها نصب عينيه ، بل يجب ان تكون بضوئها واشراقها كضوء أحد الكواكب المسمى بسهيـــل بصورة يرى نوره الوهاج المواطنون الذين في مكة والذين من وراء جبلي طيء وربما يقال لماذا لم تقل كما تضيء الشمس أو البدر عوضـاً عن (سهيل) لكي يكون أبلغ من حيث المعنى ، وجوابي على ذلك هو انني حاولت فعـــلا ذلك ولكن قافية الشعر حالت دون ما أريد ..

لعيال (غلبا (١)) كاسْبِينَ النّفيله
نضايض الغلمان غوشٍ مشاكيل

كان هناك سائل يسألني قائلا : لمن هذه الراية البيضاء التي ترفع له ؟. ومن هذا الذي يستحق هذا الإطراء والثناء فأجيبه قائلا:ان هذا الثناء لهؤلاء الفتيان الشجعان الأشاوس المنتسبين الى هذه القبيلة .

---

١ ـ غلبا كنية لقبيلة شمر وعيال يعني أبناء .

أثني على اللّي يفْعَلُون الفَضِيلـَة
وخصّكم يا مَعتزين على (زُمَيْلْ)

أقول : أن من طبيعتي أن أثني على كل من يصنع الجميل وأقدر أي انسان يفعل الفضيلة . وفي عجز البيت أشرت بأنني وان كنت أنظر بعين الاعتبار كل من يفعل الفضيلة أنى كان مصدرها ولكنني في هذه المناسبة يكون ثنائي هذا خاصاً بكم انتم يا بني زميل واسم (زميل) معروف بأنه الجد البعيد الذي ينتسب اليه هؤلاء الفتيان وعلى رأسهم بطل القصة خلف بن لويش ..

أحْيَوا سلومْ (غرَيّب) في خليـله
شُوّمنْ لهم يا لابسات الخلاخيـل

أشير بهذا البيت الى نجدة (غريب بن معيقل الشلاقي) الذي سبق أن شرحت قصته مع رفيقه بعنوان (مغامرة بحنكة ص ٣٥) وهو في الوقت ذاته أحد الابطال السبعة الشلقان الذين حملوا رفيقهم الجريح خمسة عشر ليلة .. أنظر قصتهم في (ص ٧ ج ٤) (كما ورد اسم غريب في الجزء الأول من شيم العرب الطبعة الثاني ص ٢٤٢) . والجدير بالملاحظة ان غريباً ورفـاقه الذين حملوا الجريح (وخلف بن لويش) بطل القصة والفتيان الذين حملوا الحجاج كلهم ينحدرون من أصل واحد وجد واحد وهو (زميل) .

وفي عجز البيت معنى يستعمله الشعراء الشعبيون دائماً في الاطراء للمدوح ، ومعناه انني اخاطب فتيات الحي قائلا يجب عليكن ان تنكحن من هـؤلاء الفتيان ـ البواسل لكي تنجبن ابطالاً من نمطهم ..

لِـ (عُبَيْد) والعِفْرِي ومن يَعتِزى له
ولـ (عقابْ) زِجّنْ بالعَذارى هَلاهِيل

عندما جاءني الرجل سالف الذكر الذي طلب مني ان أنشد قصيدة بهؤلاء الفتيان طلبت منه ان يوافيني باسمائهم فقال انهم كثيرون فقلت : وافني باسماء البارزين منهم فقدم لي بعضاً من اسمائهم وهم هؤلاء الذين وردت اسماؤهم في هذا البيت والاسماء الاخرى تأتي في البيت الذي يليه ، فالذين في هذا البيت هم عبيد بن ثنيان ، العفري ، عقاب السعدي . وزدت الاخير منهم بالاطراء لسبب ذي اهمية يطول بنا شرحه .

ومن المعلوم انني لا اعرف منهم احداً اللهم الا عقاب السعدي فقد رأيته قبل ذلك رؤية خاطفة .. وكان عدد هؤلاء الفتيان عشرين شخصاً حسب رواية الراوي ، وكما ذكرت آنفاً ان غايتي من نظم القصيدة واطرائي لهؤلاء الفتيان هي بالدرجة الأولى والثانية ان اصل بثنائي الى بطل القصة (خلف بن لويش)

واذا سألني القارىء عن السبب الذي يجعلني امتنع عن الاشادة باطرائه والاعلان بثنائي عليه بصورة واضحة ، أجبت ان الظروف في ذلك الوقت لا تسمح لي بذلك خوفاً من ان يكون ثنائي عليه واطرائي له يسببان له أذى ، ولذلك جئت باسمه ضمن هؤلاء الفتيان الذين حملوا الحجاج من قبيل التغطية ، ويشفع لي بذلك انه (اي خلف) كما اسلفت من نفس الفخذ الذي ينتمي اليه الفتيان ، وهذا هو السبب الرئيسي الذي جعلني انظم هذه القصيدة لكي اصل الى الاشادة باطرائي لخلف بما يلي :

و (خلف) اذا منه تعَلّى الاصيلة

ابن لويش يستاهلْ المدحْ والقيلْ

يستاهل التمجيد راع الجَميلة

سَوّى سُواةٍ مَا تسوى بذا الجيل

هذان البيتان هما بيت القصيد حيث وصلت الى غايتي المنشودة وهي ثنائي على (خلف) .. وقد اكدت في البيت الاول بانه فارس وانه يستحق الاطراء ويجب ان يثني عليه نظماً ونثراً ، وفي البيت الاخير دنوت حول الغاية التي أصبو اليها وقلت ان العمل الذي قام به هذا الرجل بتضحية وتفان ونخوة اصيلة ليس من اعمال جيلنا الحديث وانما هي من اعمال العرب القدماء ...

كان من شأن هذين البيتين ان جعلا في نفوس اولئك الفتيان شيئاً من اللوم الموجه اليّ على اعتبار انني تركت اسم بعض من الذين ساهموا باسعاف الحجاج وجئت باسم خلف الذي لم يحضر القضية ، وحتى الذين استثنيت اسماءهم من العشرين الباقين حتى هؤلاء لم ينلهم من الثناء مثلما نال خلفا ..

وكم حاولت اقناعهم بواسطة من يتصل بهم مؤكداً لهم بأنهم لو تعمقوا بتدبر الامر بدقة لعلموا ان خلفاً هو صاحب الفضل عليهم ، ولولا خلف لما جادت قريحتي ببيت واحد يشير ادنى اشارة اليهم ، وليس هذا انكاراً لجميلهم ، ولكن العمل الذي قاموا به لا يعدو ان يكون فضيلة من مثات الفضائل التي يقع امثالها كثير في حياة العرب ، ولكنها ليست من النوادر التي تعتبر غريبة من نوعها في شيم العرب .

وانني اذ اورد تلك الابيات فانني ارجو ان يسمح لي القارىء فيما اذا اطلت عليه ، لانني اردت ان استشهد بما هو مؤيد للقصة ومنسجم مع واقعها ..

*

وبعد .. فقد تحسن وضعي الاقتصادي عن ذي قبل ، الامر الذي جعلني احرص حرصاً شديداً على معرفة خلف . وفي عام ١٣٧٠ هـ ١٩٥٠ م التقيت بالاخ سليمان الشنيفي في دمشق وكان الشنيفي وقتها اميراً لـ (لِيْنَة) المركز الذي اصبح الان قرية تقع شمالاً للحدود السعودية ومتاخمة للحدود العراقية

وطبيعة الحال تجعل الصلة مستمرة بين أمير (لِيْنَةَ) الشنيفي وبين (خلف ابن لويش) ، ولذلك سلمت للشنيفي رسالة وأبديت رغبتي الملحة بأن يحرص على أن تصل هـذه الى يد خلف ، ولما كنت أيامها أعمل في مفوضية حكومة بلادي ، في دمشق ، فقد أكدت لخلف برسالتي بأنني حريص على رؤيته وطلبت منه أن يحدد لي الزمان والمكان ، لكي أزوره ، ولم يأت اليّ منه إجابة مع أنه ورد اليّ من الشنيفي رسالة تفيد بأنه بعث رسالتي مع رجل ثقة سلمها لصاحبها.

وبما أن البدوي كما اسلفت لا يستقر في مكان معين وانما يتبع مواقع الأمطار ويرحل من مكان الى مكان حتى يجد الأرض الخصبة التي يوجد فيها الكلأ الوافر بكثرة ، وفي عام ١٣٧٢ هـ ١٩٥٢ م هطلت الأمطار الغزيرة في ارض الأردن في الحين الذي كانت الجزيرة العربية قاحلة مما اضطر عشيرة خلف أن ترحـــل بماشيتها الى هناك ، ومن المعروف ان من يكون في الأردن يصبح قريباً من دمشق فقرب هذا المكان الى مقر عملي ، جعل الرجل الوفي يحرص على تنفيذ رغبتي التي وصلت اليه ضمن رسالتي ، يضاف الى ذلك انه وجد رجلا من أعيان عشيرتـه يدعى (هتاش الكلب) لديه عزيمة على زيارة المرحوم الشيخ عبد العزيز بن زيد سفير المملكة السعودية في دمشق وقتـذاك بحكم رابطة صداقة قديمة بين السفير وهتاش ، عند ذلك وجد خلف انه ما دام (هتاش) يريد ان يذهب الى دمشق لأقصد له إلا زيارة صديقه ، فان من حقه أن يذهب هو لزيارة ابن صديقه فجاء الرجلان تدفعهما ظروف متشابهة هذا يريد زيارة صديقه وذاك يريـــد التعرف والزيارة لإبن صديقه .

الحسرة التي لا زالت مرارتها في نفسي ؟؟..

كان من توفيق هتاش أن وجد صديقه في دمشق ، ولعدم توفيقي ان خلفاً لم يجدني هناك ، حيث كنت ذاهباً للقاهرة أمثل حكومتي في مؤتمـــر مقاطعة

اسرائيل المعقود في الجامعة العربية وذلك في تاريخ ٢٨ ذي القعدة ١٣٧٢ ولما كنت المندوب الدائم وقت ذاك لحكومتي لهذه المهمة. فقد صادف سـوء الحظ أن يكون مجيء هذا الرجل في الظرف الذي عقد فيه المؤتمر ، واقولها مرة ثانية وثالثة أنه من سوء توفيقي ان الرجل نزل في الاراضي الأردنية القريبة لدمشق بدون ان يكون لدي علم به . وجاء الى دمشق وظل خمس عشرة ليلة ينتظرني في الحين الذي كنت في القاهرة بدون ان يكون لي عـلم انه موجود في دمشق وسافر من دمشق بدون أن أعـلم عنه أنه جاء للشام بقصد زيارتي ، الا بعد ان مضى شهران من عودتي الى دمشق عند ذلك علمت بمجيئه ، والاسوأ من ذلك انه ترك الشام بدون ان يعين المكان الذي اتجه اليه .. ومن المؤلم حقـاً بالنسبة لكاتب هذه الأسطر انني لم أعلم عن مجيئه الا بمناسبة عابرة جاءت بمحض الصدفة وذلك اني .. كنت أسير في احد شوارع العاصمة الأمـوية دمشق وبقرب قصر العدل ، في ذلك المكان بالذات التقيت بشخص يدعى (فهد العديـلي (١)) وبعد ان تبادلنا التحية العابرة صافحني وبعد ان خطا خطوتين مدبراً عاد لي فقال بلغة فاترة وبصوت خافت وبتعبير لا يوحي بأدنى اهتمام :

ـ مر بنا رجل يسأل عنك منذ شهرين .. فقلت :

ـ الذي يريدني يجدني !..

فأدبر فهد من عندي كما مضيت في سبيلي بدون أن القي لكلمته هذه بالاً ، بل ولم أعرها اي انتباه ، ولم يخطر لي ببال قطعيا أن هذا الشخص الذي يشير اليه العديلي باشارته الباردة هو خلف الذي أكن له في ضميري من الولاء والتقدير والمودة منزلة لا يضارعها إلا منزلة والدي ..

---

١ ـ فهد العديلي من قبيلة شمر ومن فخذ صاحبنا خلف نفسه ، وهو حضري مولود في حائل ويقيم وقتها في قرية عدره القريبة من دمشق .

وبعد ان قطع المديلي ما يقارب عشر خطوات شعرت بنفسي بحافز يحدوني الى الاستفسار عن هذا الرجل الذي جاء يسأل عني ، ولم يكن هــذا الشعور مبنياً على ما أتوقعه او اظنه بأن السائل عني خلف ذاته، وانما كان ذلك الشعور صادراً عن حب الاستطلاع ليس إلا ، ولذلك عدت اقتفي أثر فهـد حتى اذا دنوت منه أشرت اليه بالوقوف ، ثم قلت له :

ـ من هو الذي سأل عني ؟

فقال :

ـ عود من عربنا (١)..

ـ يعني بدوي ..

ـ أجل .

ـ ماذا يريد ؟..

ـ لا أعلم ..

ـ أما تعرف اسمه ؟..

ـ بلى كيف لا ..

ـ ما اسمه ؟..

ـ خلف بن لويش ..

الحقيقة انني عندما سمعت هذا الاسم أحسست بشيء غمر كيــاني ومهما أردت ان اصف ذلك الأثر الذي استولى على شعوري وحواسي فانني لااستطيع وصفه البتة ..

---

١ ـ أي شيخ مسن من قبيلتنا .

بذلت أقصى جهدي وهل يلام المرء بعد الاجتهاد ؟..

وكل مالدي انني عدت استفسر من فهد بشغف وبحرص لا مزيد عليه فقلت:

ـ أين يكون خلف الآن ؟؟

ـ لا أدري ..

ـ من هو الذي يستطيع ان يهديني عليه هنا ؟

ـ لا أعرف احداً يعرفه ..

ـ أين كان مسكنه عندما جاء الى دمشق ؟؟

ـ كان عندي ضيفاً مدة خمس عشرة ليلة ، وكل ما فهمت انــه قضى تلك المدة بانتظارك ..

ـ ألا تعلم الجهة التي اتجه نحوها ؟.

ـ الذي أعرفه أنه بلغه الخبر ان أهله رحلوا من الاراضي الأردنية واتجهوا نحو العراق وفهمت انه سوف يذهب للعراق عن طريق جزيرة الفرات السورية ولا أعلم عنه اكثر من ذلك ..

الواقع انني تحيرت في أمــــري فحاولت ان اقتفي اثره ولكن أي أثر أقتفيه ، بدوي يسير في الفلاة والذي يريد ان يتتبع اثره أشبه ما يكون بمن يحاول ان يقتفي طيراً في الجو ، ومع ذلك لم أيأس بل ذهبت اسأل عنه واتتبع اخباره قاصداً انني متى ماعرفت المكان الذي يستقر به ان أمكن له الاستقرار، ذهبت اليه بقدر ما استطيع من السرعة .

وبعد سؤالاتي المتتالية فهمت ان الرجل بعدما سافر من الشام اتجه فعلاً الى العراق عن طريق جزيرة الفرات فواصلت سؤالي عنه فأخبرت انه نزل ضيفــاً

عند شخص يدعى منيس (١) بن سعدى الساكن في قرية تسمى (تل كوشر) فذهبت أطلب مركز تل كوشر بالهاتف فكلمني شخص عرفني ولم أعرفه يقول عن نفسه انه فلان (القصير) وأصله من القصيم ، فكلفت القصير ان يسأل منيس بن سعدى هل يوجد عنده ضيف يدعى خلف بن لويش فواعدني القصير بأنه سوف يذهب ليسأل منيساً ثم يعود ويخبرني هاتفياً على الرقم الهاتفي الذي قدمته له في دمشق .. وكان القصير وفياً بوعده حيث اتصل بي وأفادني بأنه سأل منيساً ولم يجد عند المسؤول ما يفيد السائل .

الخبر الاسود المشؤوم

كنت شديد الحرص على رؤيته وعلى معرفته اعتقاداً مني بأن رؤيتي له تقوم مقام رؤيتي لوالدي وكنت اريد ان أروي القصة نقلاً عنه واريد ان اتصوره امامي عندما يروي لي بداية المغامرة وكيف كان شعوره عندما جاء يتقدم ذويه الاقربين حاملاً سلاحه مصمماً على ان يأخذ بيد والدي من سجن مجهول مصيره به الى السلامة والنجاة أو ان يقتل بجانب السجين ..

وكنت واثقاً من انه يعرف ابي حتماً ، ولكن الشيء الذي كنت حريصاً على الألمام به هو معرفة الحافز الذي دفع خلفاً الى هذه المغامرة ، لأن الروايات عندي مضطربة ، فمن قائل انه بين والدي وبين خلف صداقة متينة ، وان مغامرة خلف كانت بدافع وفاء منه لصديقه ، وانه عندما بلغه خبر اعتقال قائد السرية لصديقه ذهب ساعتها بحجة انه زائر لامير السرية ، ولكن قصده الحقيقي هو ان يعرف المكان الذي فيه السجين ليرسم خطته التي يختطفه بها ليلاً وهناك من يقول : ان خلفاً جاء الى قائد السرية بقصد الزيارة فعلاً . وبدون ان يعلم شيئاً عن حالة السجين وان قضية سجن ابي كانت مفاجأة له عندما رآه ملقى

١ - منيس من قبيلة شمر الفرات النازلين في الحدود السورية المتاخمة للحدود العراقية .

على الارض والقيود برجليه وان السجين عندما رأى خلفاً اوعز له باشارة خفية تعتبر استنجـــاداً بنخوته وان هذه الاشارة اثارت نخوة خلف ونفذ على اثر هذه الاشارة مغامرته تلك ..

كان حرصي شديداً للغاية من اجل ان اراه لأوفق بين الروايتين وان كان من المحتمل جداً انني ارجح الاولى بحكم انني اعرف ان اصدقاء والدي من البدو اكثر من اصدقائه من الحضر ، ولكن بعدما عرفت ان الرجل جاء الى دمشق من اجل زيارتي فقط ، تضاعف حرصي على رؤيته عن ذي قبل مضاعفة لا استطيع التعبير عنها ..

ولا تستطيع يا اخي القارىء العزيز ان تتصور أثر الصدمة التي منيت بهـا عندما فوجئت بذلك الخبر الاسود المشؤوم الذي نقل اليّ نعي خلف ..

آمنت بك يا آلهي انا لك وانا اليك راجعون !...

مما لا شك فيه ان كل من على وجه الارض مصيره الفناء سواء طال به الزمان أو قصر ولكن عندما يفاجأ المرء بوفاة امرىء عزيز كان يود ان ينظر اليه أو يجتمع به ولو فترة وجيزة عندما يفاجأ بذلك فان حزنه قد يختلف عن حزن غيره ، وهكذا كان حزني على خلف اعظم من ان اصفه بقلمي واجل من ان اعبر عنه بدمعي ، وان كنت لم ادخر وسعاً من ان اسكب الدمع الغزير ولكن كما قال المرحوم محمود سامي البارودي .

فزعت الى الدموع فلم تجبني

وفقد الدمـع عند الحزن داء

وما قصرت في حزن ولكـــن

اذا عظم الأسى ذهب البكاء

فاذهب يا خلف الى رحمة الله وفسيح جنانه .. ولئن غاب جسدك عن هذه الدنيا الفانية فان ذكرك سوف يبقى خالداً، ومجدك التليد سوف يظل باقياً ما دامت شيم العرب خالدة ، ولئن لم يسعدني الحظ على القيام بواجبك بحياتك ، ذلك الواجب الذي اعتبره من اقدس الواجبات ، فانني لن ادخر جهداً من تخليد ذكرك والاعتراف بفضلك .. فنم هادئاً عليك رحمة من الله وغفرانه .. وهـذا لسان حالك يا خلف يذكرني بقول الشاعر سالف الذكر محمود سامي البارودي :

سيذكرني (بالمجد) من لم يلاقـني

وذكر الفتى بعد الممات من العمر

•

تعليق

لئن فاتتني الاشارة الى ناحية ذات اهمية في مـــتن القصة ، فانني اود ان استدركها في الهامش ، وهي انني عندما قسوت بالعتاب على فهد المديـــلي مضيف خلف على عدم أخباري بمجيء خلف وقصده اياي قائلا له : لماذا لم تخبرني بمجيئه ببرقية تبعثها اليّ عندما كنت في القاهرة لحضور المؤتمر المذكور ..

فرد عليّ المديلي بقوله :

انني لا اظن انك حريص الى هذا الحد على رؤية خلف ، فغضبت اكثر عليه وقلت :

ـ أرجل كخلف بالنسبة اليّ يجهلك الامر انني لا اهتم بأمره ولا احرص على القيام بواجبه ؟.. فقال المديلي :

ـ طبعاً يجهلني ذلك لأنني لا اعرف أن بينك وبينـــه ادنى شيء من الصداقة .. فاستغربت ذلك قائلا :

ـ ألم يحدثك خلف بقصته الطويلة مع والدي ، قال :

ـ كلا لم يأت ذكر والدك على شفتي خلف خلال المدة التي قضاها عندي ..

ومن هنا تضاعف اعجابي بذلك الرجل الجم المروءة الذي لم ترض شيمتـــه ان يذكر شيئاً من جميله الذي كان ولا زال طوقاً في عنقي ..

مغامرة في سبيل النخوة ومن اجل النخوة

- ١٠ -

مما لا شك فيه ان شر آفة ابتلي بها العرب هي آفة التفرقة ، ولولا ذلك لكان بالامكان ان نقول ان الصفات والسجايا التي توجد عند العرب قل ان توجد عند أية امة كانت ، ولكن هذه الصفات الحميدة من الاثرة والتضحية الخ .. كلها مع الاسف تذوب على صخرة التفرقة وعدم اذعان بعضهم لبعض .. ولم يحدثنا التاريخ ان العرب غلبوا وهم متحدون ...

كانت فترة وجيزة جداً في تاريخ العرب عندما اتحد بنو قحطان وعدنان في القرن الأول الهجري ففي تلك الفترة الوجيزة فتحوا مشارق الارض ومغاربها وارهبوا سكان البسيطة ولكن متى كان ذلك ؟..

كان في الحين الذي لا يقبل الكفؤ ان يتولى قيادة الامة وهو يعلم ان في امته من هو اكفأ منه لقيادتها ، حتى ولو رشحته امته لرئاستها فانه يتخلى عن ذلك الترشيح ما دام انه واثق ان بين ظهراني امته من هو اقدر منه للرئاسة واصلح منه للزعامة وأعظم منه كفاءة لسياسة الامة ، وأقدم منه كفاحاً واوفر منه رصيداً في النضال ..

كما تخلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مؤتمر السقيفة عن الخلافة التي رشحه لها المهاجرون

والانصار ، اي جميع قادة ناطقي الضاد من العدنانيين والقحطانيين كلهم رشحوا عمر للخلافة ولكنه تخلى عن ذلك الترشيح وقال كلمته الخالدة :

ـ من يتقدم على أبي بكر .. ثم خرق الصفوف وقال : امدد يدك يا ابا بكر لنعاهدك على الخلافة .

بهذا الايثار وبهذا التجرد عن الذات استطاع العرب ان يكون لهم كيان في عالم التاريخ .. وعندما ننظر الى كفاءة عمر بن الخطاب واخلاصه وكفاحه وشجاعته وماضيه قبل الخلافة وعدله وانصافه بعد الخلافة ونجده مع ذلك تخلى عن الخلافة وذلك عندما ادرك ان ابا بكر اقدم منه في الكفاح وأوفر منه رصيداً في سبيل نصرة الاسلام عندما كان الاسلام في المهد ، واربط منه جأشاً حينما توفي النبي صلى الله عليه وسلم عندما فقد عمر صوابه وقال :

(من قال ان محمداً مات ضربت عنقه) وأصلب منه موقفاً عندما حدثت الردة ، واراد ابو بكر ان يجهز جيشاً ليغزو المرتدين ، وعارضه عمر الرأي فقال ابو بكر كلمته المأثورة :

ـ أجباراً في الجاهلية ، وخواراً بالاسلام يا ابن الخطاب ..والله لو منعوني(١) عناقاً كانوا يدفعونه على عهد رسول الله لجاهدتهم حتى يدفعوه) ..

وعندما نقارن بين موقف عمر وتخليه عن رئاسة الخلافة التي هي اكبر منصب في العالم العربي والاسلامي ، ثم نقارن الآن بين بعض قادتنا الحاليين عندما يرتفع احدهم الى منصة الحكم لا بانتخاب اجماعي وافق عليه الرأي العام العربي كما وافق على انتخاب عمر بن الخطاب وانما استولى على تلك المنصة بالمدافع والرشاشات والمصفحات والطائرات ، ونجده يستميت على هذه الكرسي ،

---

١ ـ العناق بن المنز

ومن المستحيل ان يتخلى عنه لمن هو اقدم منه بالكفاح، او من له رصيد شعبي ونضالي بين صفوف امته العربية.. أجل من المستحيل ان يتجرد عن منصبه لمن هو اقدم منه وأولى. من المستحيل ان يتجرد عـن منصبه لمن هو خير منه حتى ولو عرف عن نفسه وعرفه المواطنون انه ليس له في ميدان الكفاح اية سابقة، كما ليس له من الرصيد الشعبي مايزن مثقال ذرة لا قبـل توليه المنصب ، ولا في حالة تبوئه اريكة الحكم ، ومع ذلك فانه لم يترك منصبه بمحض ارادته لمن هو اكفأ منه .. الا بقوة المصفحة والمدفع والمدرع تلك القوة التي جاءت به هي وحدها وهي التي تزيحه عن منصته ليس الا ..

والشيء الوحيد الذي يعزينا في عالمنا العربي من حيث التكتل ، هو انه مهما يكن بينهم من التفرقة والقطيعة ، فانهم عندما يعتدى عـدوهم المشترك على احدهم يتناسون احقادهم ويتكاتفون صفاً واحداً ضد هذا العدو، ومن مسلمات الامور ان اسرائيل لم تتوقف عن اهدافها الاستعماريه من حيث التـوسع في ارض العرب الا بدافع خوفها من ان العرب مهما يكن بينهم من خلاف وشقاق فان هذا الخلاف وذلك الشقاق سوف يتمزقان ، ويحل محلهما الوئام والالفـة والاتحاد ، عندما تحاول اسرائيل ان تقوم بأى هجوم عـدواني على احدى الدول العربية .

وبعد .. فانني عندما اورد تلك الشواهـد والادلة المستمدة من تاريخنا العربي الماضي وتاريخنا الحالي الذى نعيشة اليوم ، فانني اريد ان اوافي القارىء بحادثة قد تكون جزئية ضئيلة بحد ذاتها ، ولكن رغم ضآلتها نجد ان فيها ما يعبر عن خلق العربي وغيرته علي ابن عمه عندما يناله أذية من الاجنبي ، فانه وقتها ينسى جميع ما بينه وبين ابن عمه من احقاد وضغينة .. ويفعل ما وسعه من الجهد لمناصرة ابن عمه مهما كان الثمن غالياً ، ومهـما يناله في سبيل هذه المناصرة من عناء ونصب سواء بماله أو بنفسه ...

تفوق البدوي على الباريسي

وهذا ما وقع مع احد رؤساء قبيلة (الفدعان) المدعو (عبيد بن غبين ١) مع (بشير بن ٢ هويدى) وذلك عندما سجنت الحكومة الفرنسية الاول في ايام الحرب العالمية الثانية حوالي عام ١٣٦٢ هـ ١٩٤١ م على يد (الكولونيل اردوال) ذلك المستعمر الغشوم الطاغي الذي لم يقف به الامر الى اختطاف بشير من اهله وزجه بالسجن فحسب بل امر بتعذيبه واشباعه لكماً وضرباً بالسياط ، وبعد ان فقد السجين شعوره وحواسه تركه ملقى على وجهه على الارض بين معسكر الجنود في موقع يسمى (عين عروس) ٣ وفي الحين الذى كان السجين يعاني ابشع معاملة يعامل بها الانسان من تنكيل وتعذيب ، في تلك اللحظة ساق القدر الشيخ عبيد بن غبين الى ان توسط بسيارته المعسكر الفرنسى بدون ارادة منه ، ولكن عندما شعر انه لا مفر له من قبضة القائد الفرنسي الطاغية ، عند ذلك دبر حيلة عبرت عن ذكائه وحنكته ، وذلك انه تظاهر انه جاء من اجل ان ينذر القائد الفرنسى عن قوة الانكليز التي توجهت اليه من المكان الفلاني ، ولما كان القائد من الفرنسيين التابعين لفرنسا الفيشية التي اعلنت ولاءها للجيش النازي ضد الحلفاء فانه لم يكذب النبأ الذى جاء به النذير ، بل اعتبر ان النذير من عملائهم المخلصين ، ولحسن حظ ابن غبين ، بل لحسن حظ السجين ان الدلائل جاءت وفقا لما انذر به ابن غبين ، حيث ثبت ان قوة من جيش الحلفاء كانت قريبة من المعسكر الفرنسي ، وتحاول الهجوم عليه ، الامر الذى جعل ابن غبين بعين القائد الباريسي موضع ثقة واجلال ..

كانت العداوة القبلية بين قبيلة ابن غبين الفدعان وبين قبيلة ابن هويدى

---

١ . عبيد بن غبين من قبيلة عنزه ولاسرته زعامة عشيرة الفدعان سابقاً وهو من بادية سورية .

. بشير بن هويدي رئيس قبيلة العفادلة وهم فلاحون ويقطنون الجهة الشمالية في سورية وابن اخيه فيصل نائب القبيلة في البرلمان السوري سابقاً ..

٣ . عين عروس : بلدة سورية متاخمة للحدود التركية من الناحية الشمالية .

المعادلة قائمة على قدم وساق ، وكان القائد الفرنسي يدرك هـــذه الظاهرة ، ولذلك خيل اليه ان عبيداً عندما جاء ينذره عن هجوم القوة الانجليزيه ، كان بدافع من رضاه عنه بسبب انتقامه من عدوه .

بون شاسع بين التفكيرين

نظر عبيد بن غبين الى السجين فوجده بحالة يرثى لها فاخذته النخوة العربية على ابن عمه العربي ، تلك النخوة التي طغت على جميع ما في نفسه من عـداوة وضغينة ، واحقاد قديمة ، فسرح تفكيره من ناحية واحدة فقط ، وهى الوسيلة التي تمكنه من اختطاف السجين ، اما القائد الفرنسي فكان تفكيره محصوراً على ما يتوهمه من ان عبيداً جاء شامتا بالسجين ، وان انذاره جاء نتيجـــة لقيامه بسجن ابن هويدي وتنكيله به ..

وهكذ كان البون شاسعا الى ما لا نهاية له بين تفكير ابن غبين وبين تفكير القائد المستعمر .

وقد إستطاع البدوى ابن غبين ان يدرك مـــا يدور في مخيلة ابن باريس ، ولذلك أراد هذا البدوى الأمي التمادى بخدعته لأبن باريس ويضلله اكثر فراح يقترح عليه بأن يذهب ليسبر غور القوة الانجليزية التي سبق ان انذره بها والتي جاءت مجهزة من العراق بغية الهجوم على فرنسا الفيشية ، ولم يسع القائد الباريسي إلا ان يرحب بهذه الفكرة ، ويثني ثناء عاطراً في نفسه على عبقريته الفـذة ، ورجاحة عقله الفسيح الذي استطاع ان يصيد عصفورين بحجر ، وهو انه تمكن بدهائه وحنكته ان يعتقل ابن هويدى عدو ابن غبين وباعتقاله له استطاع ان يكسب مغنماً آخراً وهو مجيء ابن غبين متطوعاً من تلقاء نفسه لخدمة حضرة القائد جزاء لسجنه وتعذيبه لعدوه اللدود ابن هويدى ، هذا جل ما وصل اليه تفكير ابن باريس المتعلم الفسيح الأفق ، أما البدوى فقد ذهب على حد تفكير

الباريسي بأن يسبر له غور العدو ، بينا ذهب ليستوضح السبيل الذى تسلكه سيارته عندما يختطف السجين بصورة تضمن له النجاة ، وعندما رسم الخطة وعرف من اين يكون سبيله حينا يريد الفرار ، هناك عاد اليه يحمل الأخبار المزعجة التي زادته ذعراً وهي أخبار وان كانت من مخيلة أفكار ابن الصحراء، ولكنها من نوع الكذب الذى قال عنه معروف الرصافي :

وأبشع الكذب عندى ما يمازجه

شيء من الصدق تمويها على الفكر

لقد استطاع البدوى ابن الصحراء القاحلة لا ان يموه الأخبار ويقلب الحقائق على ابن باريس فحسب ، بل استطاع ان يخدعه حتى نال ثقته التي مكنته من اختطاف ابن عمه السجين .

ساعة الصفر

كانت الخطة التي رسمها ابن غبين لاختطاف السجين كما يلي :

أولاً – انه امر قائد السيارة ان يقف بها بقرب السجين جنباً الى جنب ، في الحين الذى يذهب الى القائد الفرنسي ليخبره بالاخبار التي من شأنها ان تجعل رأسه يدور في حلقة فارغة ..

ثانياً – على قائد السيارة ان يدير إتجاه السيارة الى الجهة التي يريد ان يسلكها في حالة فراره .

ثالثاً – على قائد السيارة ان يحرك سيارته حالما يخرج من خيمة القائد ، وبعدما يعطيه الاشارة التي تدل على تنفيذ العملية . وفي الوقت ذاته يتم بين

قائدالسيارة وبين ابن الصحراء اختطاف السجين من مضجعه الذى تركه الطاغية فيه بعدما اشبعه تعذيباً وتركه يائسا من حياته ..

وهكذا كان رسم الخطة..وما ان وصل عبيدالىالمعسكرحتى اوقف سيارته بقرب السجين وذهب الى القائد ليخبره بنتائج رحلته ، وبعد ما شرح له مهمته المختلقة خرج منه في الحين الذى كان ابن باريس يفكر بأن يمنح هذا البدوى هبة سخيةعلى هذهالخدمات التي قام بها لا لشيء اللهم إلا تقديراً من حضرة الكولونيل الذى سجن عدوه وعذبه.. هذا أبعد ما وصل اليه تفكير ابن باريس العبقرى .

وفي الحين الذى كان سعادة القائد في بحر من التفكير المزدوج ، تارة يفكر في السبيل الذى ينجيه من جيش الانجليز الذي جاءه زاحفا من العراق حسب المعلومات التي وردت اليه من هذا البدوي الذى لم يكن له به صلة سابقة او صداقة عريقة ، اللهم الا عداوته للرجل السجين حسب القاعدة المألوفة القائلة : (عدو عدوك صديقك) .

وتارة يفكر في المكافأة التي يهبها لهذا البدوى الصديق الصدوق المخلص الذى سخر نفسه وسيارته وقائد السيارة في خدمة سعادة (المسيو اردوال) .

في هذه اللحظة التي كان الباريسي فيها غارقا فيخياله السارح بين الفكرتين، جاءه ضابط الانضباط يخبره بان البدوى اختطف السجين من مضجعه وهرب به بسيارته ، فقفز حضرة القائد بغير وعي ولم يصدق الخبر كقضية مسلم بها حتى خرج لينظر بنفسه الى السجين هل لا يزال في مكانه كما يعهده ، فألقى نظرة الى المكان فوجده خاليا من صاحبه فالتقط (الناظور) لينظر الى سيارة البدوي فوجدها تنهب الأرض نهبا ولم ير إلا الغبار الذى يكسو السيارة .

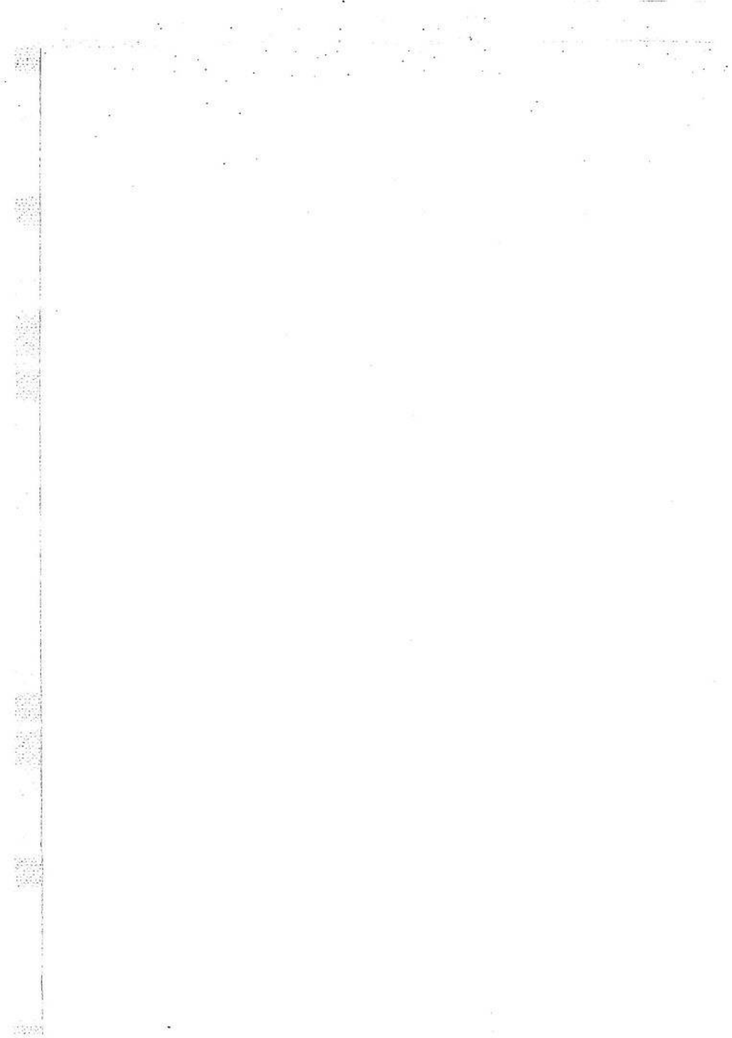
فكانت خدعة ابن البدوية لابن الباريسية اكبر مصيبة على الاخير من اختطافه للسجين من بين يديه ومن وسط معسكره عيانا بيانا .

عبيد بن غبين



فــلاَ راي الاّ أنَ تكونَ بنَخوْة

فإنكَ مقصودُ المَكَانــةِ واضحُ



فقلتُ تعلمْ انمـا هـي خطـة

يطول بهـا مجدٌ وتخشى فضائحُ

فقد يهلك الرعديد في عقر داره

ويَنجو من الحَتف الكميُّ المشايحُ

محمود سامي البارودي

فأمر سعادته سياراته ان تجري خلفه عسى او لعل ان يحـــدث في سيارة البدوي خلل فيلقي جنوده عليها القبض . ولذلك ذهبت مجموعة من سياراته ، ولكن بعدما قطع الرجل مسافة يصعب على جنود الطاغية اللحـــاق بصاحب النجدة ، يضاف الى ذلك هو ان قائدي سيارات المستعمر كانوا عرباً فتعمـدوا ان لا يجدوا باللحاق خلف الهارب .

كانت الخطة التي رسمها ابن غبين ناجحة والعاقبة حميدة ، وتأكيداً لما سلف ذكره بأن بين قبيلتي ابن غبين وابن هويدي عداوة تقليدية ، تأكيداً لذلك هو ان ابن غبين ما استطاع هو بنفسه انيذهب بابن هويدي حتى يوصله اهله وذلك خوفاً من أن يناله اذية من بعض الشباب الطائشين من قبيلة الهويـــدي ، ولذلك بعث عبداً مندوباً من عنده يخبر اهل بشير بن هويدي ، فجاء من اهـــله من يستلمه ..

واجمل ما في هذه الحادثة هو ان بطليها (اي ابن غبين وابن هويـــدي) كلاهما لا زال على قيد الحياة حتى هذه اللحظة في ١٠ رجب ١٣٨٣ الموافق ٢٥ نوفمبر ١٩٦٣ .

نخوة وشجـــاعة ووفـــاء

- ١٢ -

هذه القصة التي بين يدي القارىء بعيدة العهد وقد رويتها عن المرحوم عبد العزيز السديري واذا شئنا ان نقارن بين العهد الذي عاش فيه بطل القصة وبين وقوع الحادثة نجد ان الحادثة وقعت على وجه التقريب في منتصف القرن الثاني عشر الهجري أي قبل نيف ومئتي سنة .. ولولا ان العرب مغرمون بحفظ القصص النادرة ، يتوارث روايتها الأحفاد عن الأجداد حتى تكون سجلا خالداً في صدور الرواة لا تطمسه السنون .. لولا ذلك لدرست هذه القصة وذهبت في صدور الرواة الذين لقوا ربهم وفي صدورهم من القصص الرائعة ما يستحق الخلود كهذه القصة وأمثالها .

وبطل قصتنا هذه فتى يدعى شامان الخالدي (١) ولشامان من المغامرات في ذلك العهد شهرة واسعة النطاق ، وكان (حايفا) (٢) ماهراً وشجاعاً

---

١ - شامان من قبيلة بني خالد بادية الاحساء الذين كان لهم صولة وجولة في عهد اميرهم ابن عريعر .

٢ - كلمة حايف تطلق على الفتى الشجاع الذي يغزو اعداءه بمفرده فيختطف منهم اطيب ابلهم وانجب خيلهم .

مغامراً لا يخشى المنية .

وفي هذه القصة ما يعطينا أكثر من دليل على أن الكسب المـــادي ليس له أدنى أهمية بالنسبة للكسب المعنوي في نفسية العربي وانما هدفه وغايته الأشياء المعنوية أولاً وقبل كل شيء وأما الكسب المادي فإنما هو شيء ثانوي لا يعبأ به .

ذهب الفتى شامان كالمعتاد غازياً قبيلة العجمان وليس بوسعه ان يصب غارته على اعدائه ضحو وانما يغزوهم ليلاً كما هي العـادة المتبعة في أسلوب (الحائف) بصورة عامة وبطريقته المألوفة على أسلوبه الخاص .

رشوة الكلب

وصل قبيلة اعدائه ليلاً .. فاختار أكبر بيوت القبيلة ، فقصده ، فجـــاءه الكلب بحماس ليقطع اشلاءه فقدم له لحماً دسماً مجداً أعـده لمثل هذه المفاجأة ، فتركه الكلب حتى التهم لقمته ثم أقبل عليه ثانية لا بحماسه الأول ولا بنيته السابقة التي كان ينوي افتراسه بها وإنما أقبل عليه حانيا رأسه (يلوي) ذنبـــه على جنبيه بصورة يعبر بها عن الاستسلام والاستجداء وطلب المزيد من الرشوة التي قدمها له العدو الغازي لأهله الذين ائتمنوه على حراسته لهم .
وكان شامان قد تعود القيام بمثل هذه العملية التي يسيطر بها على الكلب.. ولذلك لم يكلفه الأمر اكثر من أن قدم للكلب لقمة ثانية وثالثة الخ .
وفي هذه اللحظة خرج صاحب البيت ليقضي حاجته ، فانطرح شامان على الأرض وفي الوقت ذاته – أشلي (١) – الكلب فذهب يهر فنهره سيده ظانا انه متوهماً بمعرفته إياه فتلكأ الكلب خجلا من سيده وعاد يتلقى الأوامر من سيده الجديد ويطلب المزيد من الرشوة الدسمة ، ولم يتردد الغـــازي من تقديمه قسطا

---

١ ـ أي حرض الكلب على الهجوم ، ويعبر عنها بكلمة (أش) .

أكثر مما قدمه له سابقا بعدما رأى منه تنفيذه أوامره وولاءه له بهذه السرعة وتنكره لسيده القديم ، اصبح الكلب حارسا للغازي . سار شامـــان بخطى وئيدة يتقدمه الكلب وكأن لسان حال الكلب يقول أمض حيث تريــد فانك بأمان وان عيني لتحرسك من امامك ومن خلفك ومن بين يديك .

جدال بين الزوجين !!

أصبح الفتى الآن آمناً غير خائف وما عليه الا ان يمضي قدماً ليتحقق هل عند صاحب هذا البيت الكبير جواد اصيل يستحق هذه المغامرة .. وعنــدما دنا من البيت وجد ضالته المنشودة فرسا كاملة الاوصاف من خيرة الجياد وبالاضافــة الى ذلك يقف الى جانب هذه الفرس الشقراء الطويلة الساقــين القصيرة الظهر ، الكبيرة الحافر ، واسعة المنخرين ، يقف الى جانبها مهرة يقارب سنهـــا عاماً ونصف عام متصفة بالصفات نفسها التي تتصف بها امها .. يا لسهـــا من غنيمة كبيرة اذا تحققت فانها سوف تكون كما يقال بالمثـــل الشعبي (دافنة للفقر) ففرس كهذه لا تقل قيمتها عن ستين ناقة من طيبات الابل وابنتها بعد عامــين سوف تقدر قيمتها بالقيمة نفسها التي تشترى بها امها .. انها غنى العمر ، ومتى يجود الزمان بمثل هذه الفرصة السانحة لمغامر كشامان .

وما عليه والحالة هذه الا ان يختار المكان الذي يختبيء به بصورة تمكنــه من استماعه لحديث الزوجين لعله يلتقط كلمة منها ليهتدي بها الى موقع مفتاح حديد الفرس (١) فجاء واختبأ تحت رواق البيت من الناحية الخلفية فأصبـــح يسمع كل كلمة ينبر بها اي من الزوجين .

---

١ ـ كانت العرب تضع على يدي الفرس حديداً ثقيلا ليكون قيداً للجواد .. وفوق هذا الحديد قفلا محكماً يصعب ان يفتح الا بمفتاح وهذه الاحتياطات كلها من اجل الاحتفاظ بالفرس عن (حائف) مثل شامان .

كان يكتم نفسه بشدة خشية من ان يسمعه أحد الزوجين ..

ولشد ما اندهش الفتى عندما سمع الزوجة تصرخ بأعلى صوتها والعبرة تخنق صدرها قائلة :

ـ أين شامان الخالدي منا الليلة ؟.

فشاء بنخوته المألوفة ان يلبي ندبتها فيقفز من مكانه الذي اندس فيه ولكنه سيطر على أعصابه وراح يصغي الى ما وراء هذه الكلمة بكل حواسه فسمع الرجل يردد على زوجته قائلا :

ـ ماذا تقصدين من ندبتك لشامان ؟.

ـ اريده ينصفني منك باختطافه فرسك التي هي أعز ما تملك بحياتك لكي يحرق قلبك كما احرقت قلبي في هذه الليلة السوداء التي تعتزم فيها النكاح من إبنة فلان ..

ـ تبالك من امرأة حمقى .. اتظنين ان شامان يستطيع ان يحل بأرضي أو يتجاسر على نهب فرسي وهو يعرف انني وراءه .

ـ انني لا اجهل شجاعتك (١) وما لديك من هيبة في نفوس الشجعان ولكن الذي اسمعه عن شامان وما يتناقله الرواة بأنه فتى لا يبالي ان يغزو الأسد في غاباتها ويتحدى الضرغام في عرينه ، ثم واصلت حديثها قائلة :

ـ تالله لئن جاء شامان الليلة هذه فلن أمتنع من ان أهديه الى المكان الذي خبأت فيه مفتاح الفرس ليخطفها نكاية بك . ثم مضت قائلة :

---

١ ـ لم اعرف اسم صاحب الفرس ولكنه بلا شك رجل واثق من نفسه بالشجاعة .

ـ أسألك يا إلهي ان تجيب دعوتي وتزف اليّ شامان بهذه الساعة القريبة ..
فأجابها زوجها بعدما نهض قائما ليذهب الى عروسه الجديدة فقال :
ـ اذا جاء شامان فأنت مسامحة فيما اذا هديتيه الى مفتاح قفل الفرس .. بل آمرك ان تسلميه بيدك المفتاح.. ثم استدرك وقال ولكن بشرط فقاطعته قائلة :

ـ ما هو شرطك ؟.. لعله طلاقي ومضت تقول :

ـ اذا كنت تهددني بالطلاق فانني على أتم الاستعداد لقبوله من الآن ..
فأجابها قائلا :

ـ لا ليس شرطي الطلاق كما تتوهمين فقاطعته الكلام وهي تتنهد بشدة قائلة :
ـ اذن ما هو شرطك ؟. فقال :

ـ ان شرطي الذي اطالبك به هو انه اذا تم لك حلمك الوهمي وجاءك شامان فصمت لحظة خفيفة لكي يختار الكلمة التي تدل على اعتزازه برجولته ثم قال : اريد منك ان تقولي له ان هذه مفاتيح فرس فلان فان استطاع ان يمد يده ويأخذ منك مفاتيح الفرس وهو يعلم انني وراءه فان لك مني اي شيء تطلبينه ..

ـ اطلب منك ان تطلق زوجتك الجديدة فيما اذا تحقق ما اريد ..

ـ أعاهدك الله ان اخلي سبيلها فيما اذا استطاع شامان او غيره ان ينهب فرسي بعدما يعلم انني صاحبها .

قال هذه الكلمة ثم ذهب يتبختر مزهوا بمشيته كالطاووس قاصداً بيت عروسه الحسناء البكر .

مع الحقيقة وجهاً لوجه

كان شامان يستمع لكل ما دار بين الزوجين من الحديث الذي كان اسمه محور الجدال فيه وكان يتصبر وكأنه على احر من الجمر وينتظر ذهاب الزوج الى عروسه بفارغ الصبر .. وعندما ذهب صاحب البيت الى عروسه راح شامان يتبعه ليتأكد من بيت العروس لكي يواجهه بالحقيقة وجهاً لوجه وليثبت له صحة نظرية زوجته بأنه من نوع الفتيان الشجعان المغامرين الذين لا يتردد احدهم عن ان يتحدى الاسد وسط عرينه .

كان العريس يسير والغازي يسير وراءه مسافة غير بعيدة .. وكان الكلب يسير خلف سيده القديم وامام سيده الجديد .. وكان الاول يظن انه يسير خلفه ليحرسه ، بينما الاخير واثق بانه يسير امامه ليحميه مقابل اللقيمات الدسمة التي قدمها له كرشوة مقدمة .. ثم جلس الاول لقضاء حاجته ووقف منه شامان بمكان ليس ببعيد ، وبعد ذلك مضى حتى دخل خدر - عروسه ، وبعدما وصل هناك .. عاد الفتى شامان كما عاد الكلب راجعاً يسير امامه حتى ادخله بيت سيده .

كانت لحظة سعيدة ممزوجة بالدهشة عندما وقف الفتى شامان ينادي المرأة باسمها الذي عرفه من زوجها في تلك الساعة التي دار فيها الجدال الطويل بين الزوجين .. قائلاً :

- ها انذا شامان الخالدي يا فلانة .. لقد سمعت كل ما دار بينك وبين بعلك من - أول كلمة الى آخر كلمة ..

- وماذا تريد ان تفعله الان ..

- اريد مفتلح حديد الفرس ..

ـ معاذ الله كيف افعل ذلك انالفرس (كحيلة عجوز (١)) وهي كل ما يملك زوجي أبو فلان ..

ـ ليس عليك لوم من ناحية زوجك بعد ما سمعت حديثه الذي سمح لك به بان تسلميني مفتاح الفرس مشترطا بان تخبريني باسمه ظنا منه ان مجرد معرفتي لاسمه يجعل الرعب يدخل في قلبي فيمنعني الخوف من اغتصاب فرسه ونسي انني وان كنت اشهد له بالشجاعة ولا شك بحكم ما نسمع عنه من شهرته كفارس شجاع ولكن بالنسبة اليّ ارى ان اختطافي لفرسه اصبح يحمل ثلاثة معان :
اولاً ـ انني اجد لذة لا تعادلها اية لذة عندما تكونغنيمتي فرس رجـــل شجاع مشهور ذائع الصيت كزوجك اكثر الف مرة من اختطاف فرس رجل نكرة خامل الذكر .

ثانيا ـ ان القضية بالنسبة اليّ الآن اصبحت تحديا سافراً منه لرجولتي وهي بالنسبة لك انت بالذات امست رحمة لك وفرجا بصفته اعطـــاك عهدا بانه سوف يطلق زوجته التي دخل عليها الان ..

ثالثا ـ اجدني باغتصابي لمثل هذه الفرس اكون ربحت غنيمة دسمة قل ان يجود عليّ الزمان بكسب جواد من نوعها ..
كانت الزوجة تصغي الى حديثه بكل جوارحها فقاطعته الحديث قائلة :

ـ لا مانع عندي من ان أدلك على مفتاح الفرس ولكن بشرط واحد ..
ـ أريد منك ان تقيم من حسابك الامر الاخـــير وتكتفي بالامرين الاولين ..

ـ مــاذا تقصدين من ذلك ؟ ..

---

١ . (كحيلة عجوز) اصل من اصول الخيل المشهورة عند العرب .

ـ اقصد ان تكتفي بالكسب المنوي وتترك الكسب المادي ..

ـ كيف يكون ذلك والأمريقضي بأن الكسب المنوي لايتم الا بعد تحقيق الكسب المادي .. فلو لم اذهب مثلا بالفرس معي الآن فمعناه ان بعلك سوف يخيل اليه وهما بأنني تركت فرسه خوفاً منه وهذا شيء لا استطيع احتماله .

ـ الذي اعتقده جازمة بأنك عندما تذهب الى زوجي الآن وانت ممتـــط فرسه ثم تروي له القصة بكاملها فانه بلا شك سوف تأخـــذه الدهشة وسوف يفاجأ بذهول يفقده رشده وخاصة بعدمايرى انك تمكنت من رقبته كما تمكنت من اختطافك لفرسه وساعتذاك سوف يتبدل موقفه من تحديه لك منذ قليل الى طلبه منك ان تتكرم عليه بالفرس .. فان لم تفعل فسوف يطلب منك ان تترك له المهرة .. ومن هنا قاطعها الفتى قائلا :

ـ سوف لا استجيب لطلبه ابداً اللهم الا بشرط واحد وهو ان يتخلى عن زوجته العروس ويسمعني طلاقها ويعود اليك هذه الليلة ..

فقالت وهي تكاد ان تطير من الفرح .

ـ لا شأن لي بذلك فهذا شيء متروك أمره اليك ، وقد شعر من هذه الجملة الأخيرة بأن لسان حالها يقول : اذا ظفرت به فلا يفلت من يديك حتى يطلق عروسه .. فأعاد الجملة مكرراً اياها قائلا :

ـ قضية طلاقه لعروسه شرط اساسي بالنسبة لكسبي المنوي ولن اتخلى عن فرسه ما لم يسمعني طلاق العروس بل ما لم يبت عندك الليلة هذه .

فأجابته وكل جوارحها تتهلل سروراً وطرباً ويوشك بها ان ترقص لسماعها لهذه الجملة المعسولة قائلة :

ـ لقد قلت لك ان هذا شيء متروك امره اليك .

ـ اين مفتاح حديد الفرس ؟.

ـ ها هو تحت مخدتي خذه .

أخذ الفتى المفتاح وفك حديد الفرس ثم تنكب سيفه بعدمـــا استوى على صهوة الجواد وعندئذ دنت منه قائلة :

ـ دعني أسير أمامك لأهديك بيت العروس .

فأجابها بقوله :

ـ لقد عرفته .. فبادرت تسأله بدهشة واستغراب :

ـ كيف عرفته ؟.

ـ عندما ذهب من عندك رحت اقتفي أثره .. وكنت اشعر بحافز يحدوني بأن اضرب عنقه بالسيف جزاء لما سمعته من اعتداده بنفسه الذي بلغ به حداً جعله يستهتر بالرجال ولا يقيم لهم وزنـــاً .. ولكن كلما هممت بضرب عنقه أخذتني الشيمة والخجل من نفسي معتبراً ان القتل بطريقة غدر ليس من خلق وشيمة الرجل الواثق بشجاعته ومروءته وقد ظلت الشيمة وحب الانتقـــام يتصارعان في كياني حتى تغلبت الأولى على الثانية فعدت شاكراً الله على عدم قتلي له .

فأجابته بلغة تحمل الشماتة ببعلها الذي هجرهـــا وذهب الى عروســـه الجديدة قائلة :

ـ ها انت الآن سوف تقتله بلا سلاح قتلا معنوياً اسمى من القتل المادي .

ـ ولاجل ذلك تركته واخليت سبيله وكان باستطاعتي ان اضرب عنقه ثم آتي اليك باسلوب التهديد والعنف حتى تدليني على مفتـــاح الفرس بحافز من الخوف لا برضاك كما فعلت الآن .

ـ بورك فيك من فتى شهم شجاع جم المروءة .

فأجابها وهو يعتز بنفسه مزهواً فوق صهوة الفرس فقال :

ـ اتريدين أن تقتفي اثرى لتسمعي ما نصل اليه من نتيجة قد تكون سارة بالنسبة اليك ؟.

ـ الامر متروك اليك .

ـ ها انا ذاهب اليه فاتبعيني .

فذهب الفتى ممتطياً الفرس والمهرة تسير بجانب والدتها والزوجة تسير من خلفه، حتى اذا وصل الى بيت العروسين ترجل عن الفرس وربطها بأحد اطناب البيت .. فدخل البيت حيث وجد العروسين عاريين في حـــالة من .. فصرخ بصوت مرتفع كان له في اذن العروسين وقع كالصاعقة قائلا :

ـ ها أنا شامان الخالدي جئتك وهذه فرسك ومهرتك قد ربطتها في طنب بيتك وقد كنت خلف رواق بيتك منذ اول الليل وسمعت كل ما دار بينك وبين حليلتك من الجدال كما انني سرت خلفك عندما خرجت من بيتك قاصدا بيت عروسك هذه.. وعندما جلست لقضاء حاجتك كنت منك قاب قوسين او أدنى.. لقد اشرت الى هذه الناحية لكي تكون على يقين من قولي عندما اؤكد لك بأنني هممت بضرب عنقك حينا خرجت من بيتنك جزاء لاستهتارك بالرجال، ومن لم يهب الرجال لم يهب.. ومن هاب الرجال تهيبوه.. وها أنذا متمكن من عنقك ومن فرسك

ومهرتها ولن تفلت مني حتى تعطيني عهداً بما اريد .

كان العريس بحالة ذهول من تبدل الموقف المفـــاجيء من سدرة تشبه نشوة الخمرة بل هي الخمرة بذاتهاالى وقوعه بين‌يدي فتى يريد ان يحكم عليه بالاعدام او ان ينفذ فيه ما يريد .. بينا يجد نفسه مجرداً من أي‌سلاح يكافح به عن نفسه سوى السلاح الذي اعده لعروسه ..!؟ فأخذ فترة كالمغمى عليـــه بعد سماعه صوت الشاب ورؤيته له شاهراً سيفه فوق رأسه .. لم يكن بينه وبين الموت الا لحظة يوميء بها الفتى بسيفه على عنقه وبعد الدهشة والذهول المفاجي، استعـاد الرجل شجاعته فقال بعدما جرع ريقه الجاف :

ـ الحق ان من لم يهب الرجال لا يهـــاب والا من يقول ان ابن انثى سوف يقهرني كما قهرتني الان .. ثم صمت ثانية وقال :

ـ ماذا تريد ان افعله الآن ؟؟

ـ اريدك ان تسمعني طلاق عروسك الآن وخير لك ان تفارقها حياً من ان تفارقها ميتاً .. فلك ان تختار احد الامرين ..

ـ قضية العروس سبق ان طلقتها مقدماً ..

ـ لم افهم معنى ذلك ؟..

ـ الم تسمع ما قلته لزوجتي عندما كنت مختبئاً في مكانك الذي لم يخطر لي ببال ان القضية سوف تتحقق وانك سوف تقف مني بهـــذه السرعة موقف المتحدي وجهاً لوجه :

ـ آه لقد فهمت الآن ما تشير اليه تعني كلمتك التي اكـــدت بها لزوجتك بقولك اعاهدك الله ان اخلي سبيلهـــا فيما اذا استطاع شامان او غيره ان ينهبه

الفرس بعدما يعلم انني صاحبها .

فأجابه العريس الاسير وهو يتلعثم نادماً على هذه الجملة فقال :

ـ أجل ان هذا العهد مني كافٍ ان اعتبره طلاقاً مقدماً بعدما نصرك الله عليّ بصورة لم تنته عند الحد الذي تنهب مني الفرس وحسب . بــل وقهرتني وانا في أحرج الظرف وبساعة لا املك فيهـا اي سبب من أسباب الدفاع عن النفس ..

ـ لا عيب عليك فيما اذا غلبتك في حالة كهـذه ؟.. وانت لو ظفرت بي بظرف كهذا الظرف وتمكنت مني كما تمكنت منك الآن لمـا وسعني الا الاستسلام وفقاً للمثل القائل : (الحر اذا شبكه الصياد يستسلم) .. ثم مضى الفتى وقال :

ـ ولكن العيب فيك استهتارك بالرجال ليس الا .. فرد عليه العريس :

ـ دعني من تكرار الماضي .. فالرجل الشجاع الكريم عندما ينتصر على شجاع كريم من درجته لا يليق به ان يؤنبه او يعاتبه على ما مضى وانقضى ..

ـ صدقت وانني من الآن اقدم لك اعتذاري ثم قال بخجل : وماذا تريد ان افعله الآن ..

ـ اريد ان تترك المهرة وتكتفي بأمها ..

ـ بل سوف اترك لك المهرة وأمها ..

ـ بقي شيء واحد اريده منك ؟

ـ اوافقك على طلبك مقدماً ..

ـ ان ما رأيته منك من شجاعة ومروءة جمة يجعلني ملزماً باكرامك ... ولذلك اطلب منك ان تبيت عندنا الليلة لكي اقوم بضيافتك غداً ..

ـ قلت لك انني موافق على ما تريده مني مقدماً ..

ـ اذن فلنذهب معاً .. ثم قال :

ـ اسمح لي حتى البس ثيابي ..

وفي هذه اللحظة خرج شامان من البيت بعدما ادخل سيفه في غمده .. وبقي لحظة ينتظر العريس اول الليل ، الاسير في منتصفه ، المضيف في آخره ..

اما الزوجة القديمة فقد انتهزت الفرصة التي يلبس فيها زوجها ثوبه وراحت تهرول الى بيتها وهي تكاد ان تطير فرحاً وغبطة .. وبعد لحظة وجيزة خرج الرجل من عند عروسه .. بل من عند مطلقته فاقبل على ضيفه يعانقه بينما جاء الضيف بالفرس يقودها ثم سلمها لصاحبها ..

وعندما وصل الاثنان البيت صاح الرجل بزوجته قائلا :

ـ يا ابنة فلان : يبدو انك بارة بوالديك .. لقد حقق الله امنيتك وكل شيء جاء بالنسبة اليك على ما يرام ..

فأجابت وهي تحاول ان تخفي سرورها المستفيض فقالت :

ـ الخير كله بما يختاره الله سواء بالنسبة اليّ ام بالنسبة اليك ..

ـ اعدي لضيفنا فراشاً يبيت عليه ..

فذهبت واعدت له اطيب ما عندها من فراش.. وما ان جاء الغد حتى اقام المضيف وليمة كبيرة لضيفه دعا على شرفه جميع رجال قبيلته الذين اعتبروا هذه الحادثة من اروع قصص العرب فاحتفظوا بها في سجلهم الشعبي ينقلها الاجيال منذ قرنين ونيف .. حتى دخلت التاريخ كشأن القصص الواقعية التي يحرص مؤلف هذا السفر ان لا يترك اية قصة تقع بين يديه من شيم العرب دون ان يسجلها راجياً ان يقتدي الاحفاد بتراث اهلهم الافاضل وشيمهم

***

عندما يهاجم الوطن عدو بعيد تنسى عداوة ابن العم القريب

١٣

الكثير من هذه الحوادث التي اوردتها في هذا السفر ، كنت معتمداً على ذاكرتي بحفظها ، وذلك منذ فجر الشباب ، وبعضها كنت اكتبه كرؤوس اقلام واضعه في دفتر اعددته لهذه الغاية ، وعندما نقلت من سفارة بلادي في دمشق الى جده ثم الى صنعاء وبعدها الى ليبيا ، تركت الدفتر في احد ادراج مكتبي في منزلي في دمشق .. وكان من نتيجة ذلك ان تصرف ابني الاكبر في المكتبة تصرفاً لم يكن موفقاً فيه ، فضاع الدفتر المذكور كما ضاع معه بعض اوراق لها علاقة ماسة بتاريخ بلادنا الحديث ، الذي رويته من افواه الشيوخ الثقاة الذين بلغ بعضهم العقد العاشر وكان احدهم يروي لي الحادثة وهو اما شاهد عيان لها او ينقلها عمن شاهد الاحداث من الشيوخ القدامى الموثوق في روايتهم على الطريقة نفسها التي نقلتها منهم .

وكان لحسن الحظ ان الدفتر الذي فقد كنت قد نقلت منه الكثير من الحوادث والقصص الى دفتر آخر وسودتها بصورة اوضح واوسع مما كانت في الدفتر الاول ، وظللت محتفظاً بهذا الدفتر في حقيبتي الخاصة اصطحبه اينما رحلت ..

وهذه الحادثة التي أقدمها للقارىء الآن كانت من ضمن الحوادث التي في حقل الدفتر المفقود ، وكان مـن المفروض ان تذهب في طي الاهمال والضياع كما ضاع الكثير من امثالها من الحوادث التي اختفت في صدور الرواة الذين لحقوا بالرفيق الأعلى ، وذلـــك كما ضاع مني السجل لقيدها كذلك ضاعت الحادثة برمتها عن ذاكرتي بحكم طول العهد الذي رويتها فيه ، ولكن بعد هـــذه المدة الطويلة سرعان ما عادت – لذاكرتي وذلك عندما جاءت مناسبة مماثلة لهـا وهي اهتمام اسرائيل بتحويل نهر الأردن ، وعندها حمدت صاحب المثل القائل : (الشيء بالشيء يذكر) .. كما حمدت الظروف التي أوجدت هذه المناسبة .

فأما المناسبة فهي (عندما أعلن رئيس أركان حرب اسرائيل عزمـــه على تحويل مجرى نهر الأردن ، عندئذ ذكرت هذه الحادثة كما ذكرت حوادث أخرى مماثلة ، والحقيقة انني وان كنت تأثرت كثيراً من تحدي اسرائيل للعـالم العربي شأني كشأن أي عربي .. كما تأثرت أكثر من الشقاق والخلافات بين زعماء العرب التي لو لم تكن لما استطاعت اسرائيل ومن دار في فلكها ان تعيش يوماً واحداً في بلادنا العربية ، ولكن حينما تبادر لذاكرتي هذه الحادثة وأمثالهـا مما سوف نورده فيما بعد ، عند ذلك زال تأثري وتبدد تشاؤمي وقلت للسفير في أنقره (الشيخ حسين فطاني) الـذي كان يشاركني الشعور العربي نفسه ، قلت : انني لست متشائماً من تحدي اسرائيل بل وزدت على ذلـــك قائلا : انني أتمنى ان تتمادى اسرائيل بغرورها الاستعماري لأن عدوانها هذا هو الذي سوف يكون حافزاً لتكاتف العرب وتناسي خلافاتهم ، ووقوفهم في جانب بعضهم بعضاً ضد العدو المعتدي .

وكنت مستمداً تفاؤلي هذا من التاريخ الذي دائمـاً يعيد نفسه ، لأن الامم والشعوب وحتى الافراد لا يحكم على حاضرهم الا من ماضيهم .

وهذه الحادثة وان كانت محصورة او محدودة في نطاق قبلي ضيق ، ولكنها تعطي صورة عن الخلق العربي بمفهومه الشامل الفسيح .

قال أحدهما : حتى ولو قطعت رجلي ..!!

وقال الثاني : حتى ولو قتلت أهلي ..!!

من بدهيات الأمور انه عندما يأتي نكرة ما، ومن ثم يحاول ان ينافس رجالاً ذوي شهرة كبيرة مجد عريق وزعامة موروثة ، فانه سوف يلاقي من معارضيه من العداوة والصراع الشيء الذى قد يدفع حياته ثمناً لهذه المنافسة .. وان كتب له النجاح فانه لن ينجح الا بعد صراع مرير ونضال قد يقضي به زهرة شبابه ، هذا اذا توفرت فيه جميع مؤهلات الزعامة وأصبح لديه من الرصيد الوطني القدر الوافر الذي يشفع له بين مواطنيه، ويرغم معارضيه على الاستسلام.

وفتى كعبد الله العلي بن الرشيد(١) ذلك العصامي الذي لمع نجمه في منتصف القرن الثالث عشر الهجري وفي الثلث الأول من القرن التاسع عشر الميلادي والذي توفرت في شخصه جميع مؤهلات الزعامة بكاملها ، ففتى كعبد الله ابن الفلاح البسيط ليس من السهولة بمكان ان يذعن لزعامته ابناء الأسر ذات الزعامة الوراثيه العريقة في قبيلته شمر كابن علي مثلاً أمير بلدة حائل ورئيس عشيرة (عبدة) ، وكابن طواله رئيس عشيرة (الاسلم) ، وهذان الرئيسان من أكبر رؤساء القبيلة ، وهما من أشد المعارضين لعبد الله عندما ولاه الأمام فيصل بن سعود أمارة بلاده حائل ، والمعارضة من الأول كانت أشد ضراوة وأقسى عنفاً من ابن طواله بحكم انه نافسه على امارة بلاده ، وقد وصل الأمر الى ان قتل عبيد شقيق عبدالله رجالاً من آل علي كما ان عبيدا نفسه طعن في أحد المعارك زعيم قبيلة الأسلم المدعو (نعيس بن طوالة) طعنة خطيرة بتر بها رجله من الساق ، الأمر الذي جعل العداوة تتفاقم وتستحكم بينه من جانب وبين ابن علي وابن طواله من الجانب الثاني .. وكل من الجبهتين المتنازعتين لهما انصار من القبيلة نفسها ومعناه ان شقاقهم جميعاً سوف يكون على حساب القبيلة ومن شأنه

---

١ ـ راجع ا ص ١٤٧ من شيم العرب .

ان يضعف شوكتها ويجعل الأعداء يطمعون بسحقها عند أدنى فرصة مناسبة . وعندما نقل الأمام فيصل بن سعود الى مصر ، واختل توازن القوى في نجد وظن اعداء عبدالله الخارجيون والداخليون ان الفرصة المواتية بالقضاء عليه أصبحت متيسرة اكثر من أي وقت مضى بحكم عدم وجود من يحمي ظهره من الخارج ، وفي الفترة التي كان الصراع بينه وبين رؤساء قبيلته قائما ما على قدم وساق في تلك الفترة بالذات ، تجمهر اعداؤه من الخارج وتحزبوا جميعاً لغزوه ببلاده، وهم يحيى (١) بن سليم أمير بلدة عنيزه وعبد العزيز المحمد ر ال ابو عليان أمير بلدة بريدة ويساندهم برجس ابن مجلاد رئيس قبيلة (عنزة الدهامشة) ، ومعنى ذلك ان هؤلاء الغزاة الخارجين أصبحوا غازين للقبيلة بأسرها، وانتصارهم على عبد الله يعتبر انتصاراً على قبيلة شمر ، وفي الحين الذي كان عبد الله في أحرج الأوقات لا يدري هل يقاتل زعماء قبيلته الذين نافسهم على الزعامة ام يقاتل العدو الخارجي الذي غزاه بجيش جرار ؟.

وصديقه الذي ولاه الإمارة الأمام فيصل ابن سعود الذي بامكانه ان يحميه من هؤلاء الذين تحزبوا ضده من الخارج والداخل .. هذا الصديق الحميم استولى عليه القائد التركي خورشيد باشا منذ سنتين ، وأصبح الحاكم في الرياض خالد بن سعود عدو صديقه فيصل ، وخالد لا يكره ان يهزم عبدالله باعتباره من انصار الامام فيصل .

وفي هذا الظرف الذي كان عبدالله محارباً من شتى الجهات سالفة الذكر ، توافد عليه ابنا عمه الزعيمان اللذان نافسها على رئاسة القبيلة وهما (نعيس ابن طواله) رئيس عشيرة الأسلم و (صحن بن علي) رئيس عشيرة (عبدة) وقال الأول لعبدالله :

---

١ - ذكرت في صفحة ١٧٤ الطبعة الثانية الجزء الاول من شيم العرب ان زامل بن سليم هو امير اهل عنيزة في الغزوة المذكورة اعلاه والصواب انه ابن عمه يحيى بن سليم .

– لا يمنعني من مناصرتك كابن عم حتى ولو قطعت رجـــلي لأن القضية أصبحت خارجة عن نطاق عـداوتنا الشخصية ، ودخلت مدخلاً آخراً استغله أعداؤنا لضرب القبيلة بكاملها .

– وقال صحن بن علي :

– لقد جئت نجدة لك حتى ولو قتلت اخواني وأبنـــاء عمي لأن العداوة خرجت عن نطاق التنافس بيننا ودخلت مرحلة أخرى استغلها اعداؤنا جميعـاً وهذا ما جعلني أتنــــازل عن طلبي الثأر منك لئلا يشتت العدو شمل القبيلة ويقضي على كيانها وييتم أطفالنا ويرمل نساءنا بسبب تنازعنا .

وكان من نتيجة تضامنهم وتناسي احقادهم ان صدوا هجوم العدو وهزموه شر هزيمة في المعركة المعروفة باسم (بقعا) الكائنة عام ١٢٥٥ هـ ١٨٤٠ م. (١)

---

١ ـ ومما لا شك فيه ان العرب بعون الله عندما يدركون مـــدى الخطر الصهيوني الذي يهدد كيانهم جميعاً فانهم سوف يتحدون وينسون الخلافات التقليدية فيما بينهم ليقفوا صفاً واحداً أمام عدوهم المشترك .. وهذا ما اعتقده واومن به وأرجو ان يتحقق بعون الله ومشيئته . وما ذلك على الله بعزيز .

الشهامة خصلة جميلة ومن ذوي الفضل أجمل

- ١٣ -

يمرّ على المرء في هذه الحياة ظروف لا يستطيع ان يتصور كنهها ، واذكر انه سبق ان مرّت عليّ ظروف من الصعب جداً ان أصفها وصفاً يتلاءم وحقيقة أمرها ، وكل ما يمكنني ان أعبر عنها هو ان أقول: كان من شأن تلك الظروف ان خلقت مني انساناً انعزالياً لا جليس لي ولا أنيس الا كتابي،وحتى اصدقائي الذين لا أستطيع ان أسلو عن مجالستهم حتى هؤلاء تركتهم ونأيت بجانبي عنهم. وفي ذات يوم وجه اليّ احد الأصدقاء وهو الأخ سعود(١) المشاري السؤال التالي:

ما الذي جعلك معرضاً بصورة نهائية عن مخالطة الناس بما فيهم اصدقائك؟.

فقلت له : أريد أن أنقطع للدراسة من ناحية ، ومن ناحية أخرى وجدت ان في اعراضي عن مخالطة الناس سلامة لي من اذيتهم . فقال :

ـ وهل تظن ان بابتعادك عن الناس سلامة لك من شرهم .. فقلت :

أجل وهل ينال المرءَ شر من الناس الا بسبب مخالطتهم واحتكاكه بهم ؟ .

---

١ ـ سعود من ساكني حائل وهو حالياً يسكن عمان ويحترف الاعمال الحرة هناك .

فقال : – أعتقد ان السلامة من شر الناس من الامور المستحيل تحقيقها سواء اعتزلتهم ام لم تعتزلهم .

قلت : – بل أعتقد ان الانسان إذا ترك الناس وشأنهم فانهم سوف يتركونه وشأنه .

قال : – المفروض ان يكون الأمر كذلك ولكنني أعتقد انتطبيق ماتشير اليه من الناحية العملية والواقعية ان لم يكن مستحيلا فانه شبيه بالمستحيل .

قلت – الأيام بيننا ! .

قال – وهو كذلك ! .

أصاب صاحبي ... وأخطأت

وقد افترقنا ساعتها وأنا مؤمن بصواب رأيي .. ولكن الذي حدث هو انه بعد افتراقنا بيوم واحد فوجئت بحادثة اثبتت صواب رأي صاحبي بقـــدر ما عبرت عن شطط نظريتي،وذلك عندما اعتدى عليّ أحد الاخوان(سامحه الله – في الوقت نفسه الذي كنت منعزلاً فيه عن الناس – بل وفي ساعة كنت فيهـا مضطجعاً على جنبي لم افكر بأذيّة اي مخلوق كما لم يخطر لي ببـال ان يمسي اي كائن بسوء . وقد قمت بعمل يخيل اليّ ساعتها اني قصدت منه الدفاع عن النفس ولكن طيش الشباب وشدة الألم الذي نالني من فتك المعتدي افقــدني صوابي وجعلني لا أفكر ولا أندم على انتقامي من المعتدي إلا بعد ان سبق السيف العذل وبعد ما وقع المحذور الذي كنت ساعياً ما استطعت بالابتعاد عنه بشتى الوسائل وبمختلف الاسباب . وبعد ما أدركت ان دفاعي عن النفس كان قاسياً بل كاد ان يؤدي بالمعتدي الى نهاية حياته ، بعد ذلك ندمت ولكن لات ساعة مندم..

كانت الحادثة في الرياض وكانت الرياض وقتها بلداً صغيراً ومحصوراً عمـاره بعضه ببعض والشيء الذي يحدث في جانبه الشرقي يدري به الذي في جانبـه

الغربي في حين حدوثه بصورة مباشرة وكان من نتيجة ذلك ان بلغ الخبر المرحوم الملك عبد العزيز في حين وقوع الحادثة كما اخبرت ايضاً ساعتها ان الخبر الذي بلغ الملك كان مشوهاً ومقلوبة فيه الحقيقة رأساً على عقب ، وقد أكد لي المصدر الموثوق بأن الغضب بلغ بالملك نحوي أشده ، وأنه أي الملك أمر مدير الأمن العام بأن يعتقلني فوراً ، والحقيقة انه عندما بلغني هذا النبأ اسودت الدنيا في وجهي فلا أرى أرضاً تقلني ولا سماء تظلني .. وكل باب اطرقه أراه موصداً في وجهي وأي سبيل احاول المنفذ منه أجده مغلقا أمامي ، وكان جل همي محصوراً بأن أجد من يفهم الملك عبد العزيز الحقيقة قبل ان ينفذ بي العقاب الصارم .. ولكن مشكلتي هي أنني لا أعرف أحداً أستطيع ان الوذ بجاهه الى ان يبلغ الملك الخبر على حقيقته ، بل ولم يخطر ببالي ان هناك أحداً يستطيع ان يقبلني كمستجير به في حالة غضب الملك المخيف ، وهكذا انحجبت أمامي جميع السبل ، وأظلمت الآفاق في عيني وضاقت بي الارض بما رحبت . وأخيرا قررت بأن أذهب تحت سواد الليل خارج الرياض لأختبيء في أحد بساتين النخل التي كانت لاصقة بمدينة الرياض وقتذاك .. فذهبت أسير بخطى تشبه الى حد بعيد مشية من إصابة شلل برجليه .. وكل ما سمعت حركة شخص يسير من خلفي أو رأيت شخصاً يسير أمامي ظننت ان هذا أو ذاك الشرطي الذي بعثه مدير الأمن لاعتقالي .. ولا زال هذا الذعر يطاردني طول تلك الليله التي ما استطعت ان انام فيها نوماً هادئاً .. بل كل ما دخل عيني النوم قفزت من سباتي مذعورا من وعيد الملك الذي نقله اليّ الثقاة على النهج الذي سمعوه منه .

.. ولا عجب ، فان الذي يعرف هيبة المغفور له الملك عبد العزيز ويشعر أنه مطارد من قبله فانه لا يلام إذا حارب النوم عينيه حتى ولو كان خارجاً عن عاصمة ملكه ، فكيف والحالة هذه بالمرء الذي في قلب مدينة الرياض ، لقد كنت أشعر في تلك الليلة ، ان كل ثانيه تمر عليّ كأنها سنة كاملة ، وبالتالي ذكرت ان هناك شخصاً من ساكني حائل يدعى (محمد المضيبري) وقمت علية

مظلمة ما وأنه طرق أبواباً كثيرة محاولا ان يجد من يرفع مظلمته للمرحوم الملك عبد العزيز فلم يجد من يصغى له او يرفع مظلمته سوى (الشيخ عمر بـــن حسن آل الشيخ الذي رفع قضية ذلك المواطن للملك بصورة مفصلة .وكانت النتيجة ان الملك انصفه خير انصاف ...

اذا ابتليت بمصيبة فعليك بأهل الفضل

عندما ذكرت هذه القضية فكرت بأن اذهب الى الشيخ عمـــر لأشرح له أمري وأطلب منه ان يرفع الحقيقة للملك كما وقعت ، وكنت واثقاً ان الملك إذا فهم الحقيقة عني على الصورة التي تختلف عما فهمها من الجانب الثاني فإنه بلا شك سوف لا يتخذ نحوي العقاب الذي بلغني عنه ، ولكن بعد ما اختمرت في ذهني هذه الفكرة ترددت لعدة امور ، منها ان الشيخ عمر هو رئيس هيئـــة الآمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فقلت في نفسي : من يـدري لو ان الشيخ بلغه خبر قضيتي على الصورة الـتي بلغت الملك ، وعندئذ يكـــون مجيئي له معناه انه سوف يسلمني لدائرة الشرطة ؟ ! ومنها ان معرفتي بالشيخ عمر وقتها كانت ضئيلة للغاية بل وأعظم من ذلك أنه بلغنى عنه وبأن الوشاة الذين لم تخطئني أسهمهم في كثير من الأوقات قد وشوا بي عنده ، إلا ان الرجل لم يأخذ بأقوال الواشين . .

ولكن على أى شكل شعرت في نفسى بأننى لست من المرغوب فيهم عنده فكيف بي اذهب اليه وأقرع بابه نصف الليل ، وأطلب نجدته وحمايته ، وأنا لا أعلم ماذا ألقى منه ، وقد ظللت فترة وأنا في حـــيرة من أمرى بين التردد والاحجام من ناحية وبين الخوف من سطوة الملك عبد العزيز ذلك الخوف الذى وصفته بأنه بدأ يلاحقنى ويطرد السبات عن عيني ، وفي نهاية الأمر اتخذت قرارى الأخير بالذهاب الى الشيخ عمر محدثاً نفسى بأن الأمر لا يخلو من إحدى

الاثنتين : اما ان تقع عليّ الكارثة التي كنت أخافها وأخشى منها ، أو أجد عند الرجل امنيتي التي ذهبت من أجلها ..

فقلت في نفسي : ان كانت الاولى فانني اكون أرحت نفسي من سيطرة هذا الخوف الذي اقّض عليّ مضجعي على اعتبار ان الخوف من المحذور أشد ارهاقا للأعصاب ، وأعظم فتكا في نفسية الإنسان من المحذور ذاته ، كما تصورت الأمر انه إذا كانت الثانية فانى اكون وقتها بلغت ما تصبو اليه نفسى مز امنية ..

وعلى الفور ذهبت من مكاني قاصداً منزل الشيخ عمر الذي كان وقتها في الموقع المسمى بالشرقية ، فطرقت الباب بشدة ، ولحسن الحظ ان الذي أجابني الشيخ بذاته وعندما سمعت صوته طرقت الباب ثانية فنزل اليّ قائلا :

– من هذا ؟ ..

فقلت شخص مستنجد بجاهك ولائذ بحماك ..

فقال : من هذا الشخص ؟ .

فقلت : فلان بن فلان ..

ففتح الباب وأعطاني اشارة بالدخول وكانت اشارته توحي بالطمأنينة ، وعندما أجلسني عن يمينه قال :

ـ ما هو أمرك ؟ ..

ولست أدري وقتها هل سؤاله هذا ناشيء عن عدم معرفته بالأمر ؟ .. أم انه يعلم أمري وإنما يريد ان يستفسر مني ، ولكنني في كلتا الحالتين شعرت براحة واطمئنان لسؤاله هذا فرحت اشرح له القضية بكل صراحة ووضوح .. وعندما استوعب الموضوع قال :

وماذا تريد مني الآن ؟.

عندما قال لي هذه الكلمة أدركت للوهلة الأولى ان لسان حال الرجل لا يعني بهذه الكلمة الاستفهام السلبي ، ولذلك تفاءلت خيراً وقلت له : أريد منك ان تحميني من ان لا تستلمني الشرطة حتى يفهم الملك قضيتي على الوجه الكامل الذي فهمته مني الآن .

فقال : لك ان تختار أحد الأمرين :

ـ اما ان تظل في بيتي وسوف لا ينالك أحد بسوء ما دمت قادراً على الدفاع عنك بقدر ما أودع الله بي من القدرة .

ـ واما ان تذهب الليلة الى حيث تريد وفي الغد سلم نفسك لمدير الأمن وأنا بدوري سوف اذهب للملك صباحاً وأخبره بحقيقة امرك بصورة جلية .

فقلت له : بعدما آمنت بسرعة نجدته وصدق حديثه .

ـ بل أريد أن يكون اختيار أحد الأمرين بيديك والسبيل الذي تختاره لي من هذين الأمرين سوف أقبله بكل اطمئنان وسرور .

فصمت الشيخ قليلا ثم قال :

ـ اذا بقيت في بيتي فانني سوف أصارح الملك بأنك في منزلي ، كما انني سوف أوضح له قضيتك بكاملها ..ولكنني لا أضمن نجاح مجهودي في هذا الشأن عندما يعلم الملك انك بتّ في بيتي ولا زلت فيه كضمان مجهودي عندما تكون قد سلمت نفسك للشرطة .. ثم مضى الشيخ بحديثه الى ان قال : أخشى انه في الحين الذي أشرح به قضيتك الملك وأنت في بيتي قد يقال أن شرحي هذا كان بحافز عن دفاعي عنك كمستجير بي .

اما الثانية : فانه لم يكن اي مجال للظن عندما أشرح قضيتك في الحين الذي تكون به قد سلمت نفسك للشرطة .

وعندما وجدت ان رأى الشيخ بذهابي وتسليمي نفسي لمـــدير الأمن هو الرأي الصائب السليم ـ عند ذلك ذهبت من عنده شاكراً نجدته ومؤمناً بتنفيذ ما وعدني به .

فرحت أسير بخطى وئيدة ثابتة تختلف عن خطاي الأولى ، ولم أعد أخشى من شبح شرطه الأمن كما كنت أخشاه سابقاً .. وقد نمت بقية ليلي نوما مريحا هادئاً وذلك في أحد بساتين النخيل المجاورة لمنزل عبدالله ابن سعدون الحالي . ولم أشعر بأي شيء يقلق بالي حتى انبلج الفجر فذهبت لتأدية الصلاة بمسجد ابن سعدون .. وبعد خروج الشمس بقليـــل ذهبت الى مديرية الأمن حيث وجدت المدير (علي جميل) الذي لم يعرفني وقتها وكان سروره لا مزيد عليه عندمـــا قلت له :

-أحقيقة انك أرسلت رجالاً من جنودك بشأن اعتقال فلان الفلاني- معلناً اسمي الكامل .

فقال: أجل اما تعرف أين يكون هذا الشخص .؟

قلت : هو هذا الذي أمامك ويحدثك الآن .. فقال : أأنت فلان ؟ قلت : نعم هو ، فصاح بجنوده فوراً وعندها تراكض نفر منهم وأودعوني في غياهب السجن او ما يسمى (المصمك) .

وبعد ساعة جيء بي الى مدير الأمن حيث أخذ افادتي ورفعهـــا بدوره الى الملك وكان الشيخ عمر قـــد سبق مدير الأمن وأخبر الملك بالحقيقة ، ثم جاءت افادتي مطابقة لرواية الشيخ ، فتراجع الملك عن عزمه باتخاذ العقاب الصارم الذي بلغنى عنه بأنه سوف ينالنى فيما لو لم أوفق لنجدة الشيخ . ولكنه عاقبنى عقابا تلقيته بكل سرور واطمئنان وذلك لأننى وجدت به رحمة وسلامـــة بالنسبة للعقاب الذي بلغني سابقا .

وبما أن انتقامي من المعتدي «الذي وقع منى بلا شعور» كان قاسيا وخطيراً

فقد أمر الملك غفر الله له بأن أظل في السجن الى ان يشفى صاحبنا المعتدي (١).

وكان أول زائر يأتيني في السجن في ذلك اليوم رجلين الأول رسول الشيخ عمر الذي بعثه ليسأل عن صحتي ويطمئنني .. والثاني صديقي(سعود المشاري) الذي جاءني لا بحافز الوفاء الذي لا يستغرب منه فحسب، بل لأجل ان يعزيني بالجملة التي جاء نصها كالآتي :

ـ لقد اعتزلت الناس قولاً وفعلاً .. فهل سلمت من شرهم :

فقلت : ارجو ان تكون هذه الحماقة التي فوجئت بها هي آخر حماقة ابتلي بها من معتد كهذا .

«ولئن كانت تلك آخر شيء من المعتدي ذاته فانها لم تكن الأخيرة من نوعها بل ثالثي من معتد آخر لا يقل عن الأول حماقة ورعونة اعتداء مماثل وفي ظرف كنت مسالماً به للغاية . »

وبعد فقد كان المفروض ان تطول اقامتي في السجن لولا مساعي الشيخ عند الملك تلك المساعي التي بقدر ما أفادتني في انقاذي من عقـــاب الملك الشديد افادتني ايضا في خروجي من السجن في فترة محدودة .

وفي مناسبة ذكرى لنخوة الشيخ عمر أجدني ملزماً بأن أعترف لهذا الرجل بجميله لا من أجل موقفه معي هذا فحسب بل من أجل انه شحذ همتي ودفعني الى الأمام في مناسبة كان شرحها على الوجه الآتي :

(عندما بدأت حوادث فلسطين المشؤومة قام بعض الأثرياء في بلادنا وفي البلاد العربية يتبرعون بمالهم لهذه الغاية المقدسة .. كما أخذ الحماس بعضاً من الشباب العرب فذهب منهم من ذهب بنية التطوع للكفاح عن فلسطين ، دون غزو المعتدين ، ولما لم يكن بين يدي من المال ما أنفقه كما يفعل الأثرياء الطيبون،

---

١ ـ التعليق على هذه الجملة سيكون في نهاية البحث .

فقد وجدت أن أشارك اخواني المتطوعين بهذا المضمار وعندما عقدت العزيمة ذهبت آخذ رأي شخص من أعز اصدقائي (رحمه الله) فأراد صاحبي ان يثبط عزيمتي بآرائه الانهزامية وحيث ان صلتي بالشيخ عمر بعد تلك الحادثة اصبحت متينة الى الحد الذي جعلني استنير برأيه في الكثير من أموري الخاصة، فذهبت اليه وأوضحت له عزيمتي التي أنوي تنفيذها، وبعد ان شرحت له كل ما في نفسي قلت له :

ـ ما هو رأيك ـ يا أبا حسن في عزيمتي هذه .

فأجابني على الفور بالجملة الآتية التي لا زلت اذكرها لفظاً ومعنى :

ـ أتسألني الرأي في موضوع كهذا .. ثم أردف قائلاً : ألا ليت ظروفي تشفع لي بالقيام بهذا الواجب كما تشفع لك ظروفك من شتى الوجوه .

عندما قال الشيخ هذه الجملة الأخيرة شعرت انه يتلعثم بها وينطق بها بصورة تختلف عن فصاحته المألوفة.. فنظرت اليه واذا عيناه مغرورقتان من الدمع .. فذهبت من عنده متأثراً أبلغ التأثر (١)!.

هذا وأن الشيء الذي احب ان اعلق عليه لم يكن من الأمور ذات العلاقة في موضوع الكتاب وانما هي حادثة مسلية تتلخص كما يلي :

حينما كنت في السجن كان يقدم لي القهوة صبي يبلغ من العمر ما يقارب اثنتي عشرة سنة يدعى محمد مصبوده من احدى قرى الرياض وفي ذات يوم بادرني هذا الصبي بقوله :

ـ عندي لك بشرى سارة ياعم .. فتبادر لذهني على الفور بأنه سمع

---

١ ـ اشرت آنفاً بأنني سوف اعلق في نهاية البحث

خبرا ـ بالافراج عني فقلت له :

ـ بشرى خير ان شاء الله .. فقال بكل بساطة وسذاجة ..

ـ أبشرك ان الشخص الذي اعتدى عليك مات ..

وما ان طرقت اذني هذه الكلمة حتى شعرت بأن صاعقة نزلت عليّ اخرستني حتى عن سؤال الصبي ، والتأكد منه عن صحة الخبر ، وذلك انني واثق بأن بقائي في السجن مرهون بشفائه ، وحياتي مرهونة بسلامته وحياته . . أما إذا قدر له ان يتوفى نتيجة لما أصابه مني كدفاع عن النفس فان مصيري بلا شك ضرب عنقي وفقاً لمـــا يقتضيه الحكم الشرعي حسبما ورد في صميم الدســـتور الاسلامي ..

وقد ذهبت من عند الصبي وهو يظن انه زف إلي بشري سارة بينما وجدتني في حالة لا أحسد عليها ، ولن يفيد الآن لا شفاعة الشيخ عمر ولا سواه . . بل حتى الشيخ عمر لا يمكن ان يبذل اي مجهود لمؤازرتي فيما إذا حكمت عليّ شريعة السماء ..

وفي اليوم الثاني جاءني الصبي كالمعتاد وكنت وقتها قد استرددت شجاعتي وآمنت بمصيري الذي لا مفر منـــه واتخذت قرارا لنفسي بأن احاول ما استطعت بأن اتلقى الموت بكل ثبات وجلد . . ولذلك سألت الصبى بكل اطمئنان قائلا :

ـ من الذى قال لك ان الرجل توفي ..

ـ فقال : لم يقل لي احد شيئا من ذلك ..

ـ فقلت :

ـ إذن كيف عرفت انه توفي .. فقال :

ـ اردت ان ابشرك لتطمئن .. وإلا من حيث الحقيقة لم يتوف الرجل ..

فقلت له وانا اوشك ان اطير من الفرح من ناحية ، ومن ناحية اخرى اوشكت ان اصفعه جزاء تكديره لي طول تلك الليلة ..

ـ اشكرك على بشراك الأخيرة لا على ما فجعتني به بشراك الأولى المشؤومة ..

•

تاريخ النخوة العربية يتكرر !!

- ١٤ -

من يكن له أدنى المام بالتاريخ العربي القديم وبعض المعرفة في تاريخ العرب ، الحديث يتضح له الأمر بصورة جلية ان هناك من الحوادث والوقائع التي حدثت في اكثر من الف عام عند العرب ، حدث ما هو مشابه لها في تاريخنا الحديث بصورة تكاد ان تكون طبق الأصل لتلك القديمة .

من المعروف ان معنا بن زائدة الشيباني كان ممن ظل على ولائه لبني أمية حتى ان الخلافة الأموية انقرضت ولكنه رغم ذلك ظل محارباً بجانب عبدالله ابن هبيرة ومحتمياً في احدى قلاع جزيرة الفرات بدون ان يستسلم او أن ينخدع بالعهد الذي خدع به المنصور ابن هبيرة الذي اعطاه عهداً وبعد ذلك غدر به المنصور ونكث عهده وقتله .

وبعد ان استسلمت تلك القلعة التي فيها ابن هبيرة وممن ابن زائدة ، والتي نعتبر آخر حصن منيع من حصون بني أمية ، بعد ذلك هرب معن وراح متوارياً عن سلطة بنى العباس حتى ان دولة العباسيين وضعت مبالغ جمة من المال لمن يأتي به حياً او ميتاً ، وقصته مع الشرطى الزنجى الفقير من كل شيء الا من المروءة مشهورة ومعروفة في كتب الأدب،ولا اراني.. بحاجة الى شرحها

اللهم الا الاشارة اليها بايجاز ، وهي ان الشرطي القي القبض على معن ، ثم اطلق سراحه وهو يعرفه جيداً ويعرف المبلغ الذي سوف يناله من الحكومة فيما لو جاء به وسلمه للخليفة الذي يريد ان يضرب عنق معن بأي ثمن ..

وقد ظل معن متوارياً عن الانظار مدة ليست بالقصيرة الى ان جاءت وقعة الهاشمية التي قام بها نفر من فارس بعدما قتل المنصور ابا مسلم الخراساني فهب الفارسيون بعد ذلك بثورة مناهضة للمنصور ، وبعدما اصبحت القضية بين العرب والعجم ، عند ذلك خرج معن من المكان الذي كان متوارياً فيه وانتضى سيفه ودخل صفوف العرب ، وقاتل قتال الابطال حتى انتصرت جنود المنصور العرب على الاعاجم .. وكانت مساهمة معن في المعركة من اعظم العوامل التي قوت معنوية المقاتلين واضعفت في الوقت ذاته جبهة العدو ، وهذا ما جعل معنا يحتج على الخليفة المنصور عندما عزله عن ولاية اليمن قائلاً :

ـ ان العامل لا يعزل عن عمله الا لامرين : اما عن ضعف واما عن خيانة .. فهل بلغك عني يا امير المؤمنين واحدة من هاتين الخصلتين :

فقال المنصور :

لم نعزلك لا عن هذه ولا عن تلك ولكنني عزلتك من اجل الهبة التي اسرفت بها للشاعر مروان بن أبي حفصه لقوله فيك :

معن بن زائدة الذي زيدت به
شرفاً على شرف بنو شيبان

ان عـدّ ايام الفعال فانما
يوماه يوم ندى ويوم طعان

فرد عليه معن قائلاً :

والله يا امير المؤمنين ما اعطيته ما بلغك لهذا الشعر ، وانما اعطيته لقوله :

ما زلت يوم الهاشميـــة معلنـــا
بالسيف دون خليفـــة الرحمـــن

فمنعت حوزتـــه وكنت وقاءه
من وقع كل مهنـــد وسنـــان

وعندما سمع الخليفه هذين البيتين اللذين اشار بهما الى تلك المعركة الحاسمة اعاده والياً كما كان من قبل ..

.. وبعد لئن اسهبت في شرح حادثة معن ، فان قصدي ان اقارن بصورة جلية بين تلك الحادثة العربية التي وقعت في القرن الثاني الهجري ، وبين حادثة عربية وقعت في القرن الهجري الحالي بصورة تكاد ان تكون طبق الاصـــل لحادثة معن مع المنصور العباسي ، واليك تفاصيل حادثتنا هذه :

في عام ١٣٣٥ هـ عقدت معاهدة صلح بين سعودبن عبد العزيز بن متعب امير حائل آنذاك وبين نواف بن شعلان رئيس قبيلة الرولة وأمير بلـــدة الجوف وقتهـــا ، والمعاهدة تقضي بأن لا تعتدي بادية واحـــد منهما على بادية الثاني فنفذت تلك المعاهدة من الجانبين ، فترة من الوقت ، وفي مناسبة غاب بهـــا الاول الى مدائن صالح مدة تقارب السنة وفي خلال هذه المدة ، غزا بعض من رجال قبيلته قبيلة ابن شعلان ، فارسل والي ابن شعلان على بلدة الجوف المدعو عامر المشورب رسالة لامير حائل شديدة اللهجة وخلاصة معناها انه يقول :

ـ أنت يا حضرة الأمير بين أمرين : اما انه لا سلطة لك على رجال قبيلتك او انك لا ترعى حرمة الوفاء بالعهد ..

فما كان من سعود الا ان اثارته هذه الرسالة وبعث رجالاً جبابرة من عنده

ليضربوا اعناق كل من هباس بن هرشان وفهاد بن مصطح ونايف السعدي فكل هؤلاء من فرسان قبيلة شمر الذين اعتدوا على قبيلة ابن شعلان واخلوا بالعهد الذي بين الجانبين ، فبعث الامير سعود رجالاً من قبله ليضربوا اعناقهم جميعاً ، فألقوا القبض على الاخير وضربوا عنقه ، كما القوا القبض على هباس ، وكاد ان يكون مصيره كزميله ، لولا انه كان ذكياً وانفلت من ايديهم بقوة السلاح الذي استعمله رجال عشيرته عندما تأكدوا ان القضية فيها قتل لرئيسهم ، اما فهاد : فانه بجرد ما بلغه مصرع السعدي والمصير الذي كاد ان يلاقيه هباس ، عندما بلغه ذلك،هرب الى جزيرة الفرات في العراق ، وفي الوقت ذاته لحق به هباس ، وبعد ذلك بعام واحد نقضت المعاهدات التي بين أمير حائل وبين ابن شعلان امير الجوف ، لاسباب يطول شرحها .. فذهب الاول غازياً بلدة الجوف التي في حوزة ابن شعلان ، وكان عندما غزا الجوف ظاناً انه سوف يحتلها بكل سهولة وذلك للأسباب الآتية :

اهمها ان رجاء بن مويشير احد زعماء الجوف الكبار اقدم على قتل عامر ابن شعلان وبعث من عنده رجالاً يستنجدون بامير حائل بأن يأتي يتسلم الجوف فخرج من بلاده وشخص نحو الجوف قاصداً ان يقنص صيدتين بسهم واحد : اولاً يلبي نجدة من استنجد به وهو ابن مويشير الذى يعتقد ان كل اهل الجوف يشاركونه عندما اقدموا على قتلهم لوالي ابن شعلان .

ثانياً ـ يربح احتلال الجوف ويضيفه إلى امارته ظناً منه ان ذلك لا يكلفه كثيراً من العناء بحكم ان ابن شعلان بدوي يقيم في الصحراء وانه في امكانه ان يحتل البلاد بموافقة اهلها قبل ان يأتي ابن شعلان من صحرائه ، ولذلك خرج من بلاده بجنود قلة كما حصر عددهم الشاعر محمد العوني بقصيدته التي تعتبر وثيقة تاريخية لا من حيث حصره للعدد فحسب بل ومن حيث تفاصيل تلك الحادثة وشرحها ومن معاني القصيدة الاتية يبدو لنا الامر بوضوح وان تقديرات أمير حائل كلها تحطمت على صخرة الواقع ، وذلك انه عندما دنا من الجوف بلغه

الخبر ان ابن شعلان جاء وتسلم البلاد وان الامور تغــيرت عن ذي قبل تغيراً معاكساً .. فاهل البلاد جددوا ولاءهم لابن شعلان ما عدا ابن مويشير الذي قتل والي ابن شعلان فهذا اصبح محاصراً في قصره ومهدداً بين عشية وضحاها من قبل ابن شعلان ..

ولم يسع امير حائل الآن الا احد أمــرين : اما ان يقدم لنجدة ابن مويشير ويغامر بنفسه وجنوده القلة ، او يقفل راجعاً الى بلاده ويكسب السلامة ، فما كان منه الا ان اختار سبيل النجدة على ما فيه من مغامرة مجهولة العاقبة ..

وها هو الشاعر العوني يصف لنا تفاصيل هذه الحادثة فيقول :

جونا مناديب ٍ منَ الجوف ِ يقوْلهمْ
ما عادْ بالجـــوبه يَسوج ْ وَسارْ

وجئنا ثلاثمائة ذِلول نحثها
َنبغَي َنعـــدَل ما َبل ِ وَيسارْ

●

ولما وصلنا الحزل جتنا ركايب
يقولون كل ِ اللي ُيقال بَوارْ

يقولون ابن شعلان بالجوف َنازِلْ
ومــن لكم قبل ِ صديق بارْ

وأبن مويشير تبـــين ِ بفولهم
وَثارتْ عليه الدّيرتـين وَحار

وينخاك يازين الرفيق ودونه
نار بشطر عن سناه بشرار

عيب على مثلي الى حد يثني
الى شاف نيران الحروب كبار

●

١ ـ يقول الشاعر انه ورد الى سعود امير حائل رسل من قبل ابن مويشير سالف الذكر يؤكدون انه لا يوجد في الجوف اية قوة شعبية تؤيد بن شملان .

٢ ـ وعلى اساس هذا النبأ جئنا ثلاثمائة مقاتل ممتطين ثلاثمائة ذلول .

٣ ـ ولكن عندما دنونا من الجوف جاءتنا رسل تنفي صحة الاخبارية الاولى .

٤ ـ ويؤكد هؤلاء بان ابن شعلان لا زال مسيطر أبقوته وجنوده على الجوف وان كلا من يدعي الصداقة لكم انحاز بجانب ابن شعلان ..

٥ ـ ولم يبق الا ابن مويشير بمفرده وهو محاصر من جميع البلدتين الجوف وسكاكا .

٦ ـ وهو يستصرخ وينخا الامير سعود ليخرجه من هذا الموقف الحرج ، وفي الشطر الاخير من البيت السادس يقول الشاعر ان ابن مويشير مطوق بسياج من نار تتقد والذي يحاول نجدته لا بد بأن يصلاه لهيب النار ..

٧ ـ يقول في هذا البيت ان امير حائل عندما قرب من الجوف ادرك ان اقدامه على نجدة مستجيره مغامرة انتحارية كما انه ادرك ايضاً ان تراجعه عن خوض هذه المركة بعدما عرف قوة خصمه عار وجبن ، ولذلك فضل ان يغامر مهما تكن نتيجة مغامرته خطرة من ان يتحمل عار الجبن والهزيمة ..

هذا وان القصيدة التي تشرح تفاصيل الحادثة بوضوح كثيرة وطويلة ، ولكنني اختصرت منها هذه الأبيات كشاهد على صحة الحادثة ، المقصود ان سعوداً اقدم على نجدة مستنجده المحاصر بذلك العدد القليل ، ولكنه لم يصل اليـــه الا بعد معركة دامية .. وكانت النتيجة ان ابن شعلان طوق المنجد والمستنجد به .. وعندئذ اصبح المنجد محاصراً وبحاجة الى من ينجده كحاجة ابن مويشير اليه .. فبعث الامير سعود ابن عمه عبدالله بن طلال الى رجال قبيلته شمر يستنجد بهم فجاء رجال القبيلة عن بكرة ابيهم : وفي مقدمتهم الفارسان اللذان اراد قتلهما الامير سعود بالامس وهما هباس بن هرشان وفهاد بن مصطح ، وعندما اقترب فرسان القبيلة من الجوف وجدوا قبيلة ابن شعلان ومن التف حوله من قبيلة الحويطات برئاسة عودة ابي تايه وقبيلة الشرارات واهل الجوف ماعدا ابن مويشير ونفر معه كل هؤلاء كانوا مطوقين للبلاد وضاربين عليهـا حصاراً من جميع الجهات ..

والخطة التي ينوي تنفيذها المنجدون تقضي بأن يذهب رجال منهم ليخبروا اميرهم المطوق بقدومهم وليتلقوا الاوامر منه بالطريقة التي يختـارها لهم .. هكذا قرر المنجدون ، ولكنهم عندما قربوا من الجوف وجدوا ابن شعلان مطوقاً للبلاد برجاله .. ومن المستحيل ان يفك هذا الحصار بسهولة .. وعندما اجمع رأيهم يتداولون في الامر ، تقدم فهاد وهباس انفسـهم كفدائيين ، على أن يغامرا بنفسيهما ويهجما على جنود ابن شعلان المطوقين للامير سعود ليبلغاه رسالة رجالهم .. وفعلاً هجم الفارسان ليلاً واطلق المحاصرون عليهما النار ، ولكن الله انجاهما في تلك الليلة .. الا انه في اليوم الثاني وقعت المعركة الحاسمة التي دارت رحاها بعنف فقتل فيها فهاد، كما اصيب بها هباس بجرح فوق ساقه وقتلت تحته فرسه ..

وكان في نجدة هذين الفارسين ورفاقهما أثر في انتصار سعود العبد العزيز ابن

متعب على أعدائه كأثر الانتصار الذي احدثته نجدة معن بن زائدة للمنصور العباسي في وقعة الهاشمية سالفة الذكر ..

وهكذا نجد تاريـــخ النخوات العربيـــة يتكرر بعد مدة اكثر من عشرة قرون .

من له صديق وفيّ لا يخاف ! !

- ١٥ -

قد تكون هذه القصة من أقدم القصص عهداً وذلك ان الرواة يؤكدون ان بطلها المدعو سعود بن فريحان بن دباس الكثيري عاش في عهد مانع بن عريعر الذي له مايزيد عن قرنين .. ويقال ان لسعود شهرة بالمروءة والوفاء والنجدة كشهرة عنترة بالشجاعة وكشهرة حاتم بالكرم ..

وعندما كان ابن عريعر صاحب السلطة في شرقي الجزيرة في تلك الفترة اعتقل ابن عريعر شخصا صديقا لسعود وأودعه السجن وشدد الحراسة عليه ، ولكن السجين لم يعبأ بالسجن ولم يتأثر منه بل ولم يحاول ان يطلب العفو من ابن عريعر ليفرج عنه وكان يقول لمن ينصحه بطلب الاسترحام من ابن عريعر ليعفو عنه :

- أنا لست بحاجة لعفوه ولا خائف من عقابه ..

فيقول له الناصحون :

- الا تخاف وأنت في غياهب السجن وتحت رحمته ..

فيرد على ناصحيه بقوله :

- من له صديق وفي لا يخاف ..

وكان اصرار السجين على عدم طلب الرحمة من الامير ابن عريعر أمراً جعل الامير يزداد حقداً عليه وعدم الرحمة به .. يضاف الى ذلك ان الوشاة نقلوا لابن عريعر الكلمة سالفة الذكر كما نقلوا له صلته الوطيدة بسعود بن دباس وعند ذلك شدد الحراسة على السجين ولكن هذا كله لم يمنع سعودا من بذل شتى الوسائل لاخراج رفيقه ..

وبالرغم من ان اخراجه من السجن يستلزم مغامرة خطيرة قد تكون فيها نهاية حياته لأن القضية فيها تحد لسلطة الامير ، ولذلك كانت الخطة التي رسمها سعود لاختطاف رفيقه من السجن فيها منتهى المغامرة والحذر في آن واحد ..

ولما كان الضيوف الوافدون على مضيف ابن عريعر كثيري العدد وبصورة متواصلة مستمرة وخاصة في الليل فقد جاء سعود كضيف ليل وتناول الطعام من ضمن عشرات أو مئات الضيوف وبات أول ليلة في مضافة الامير وظل يتحسس بهدوء مكان السجين حتى عرفه وتركه في بداية الأمر .. وفي الليلة الثانية عرف الطريقة التي يبدل به الحارس رفيقه كما عرف الزي الذي يرتديه الحارس .. وما ان جاءت الليلة الثالثة حتى جاء الى الحارس حاملا سلاحه ويسير بكل رزانة وهدوء نحو الحارس الذي كان ينتظر ان يأتيه البديل ، وكانت الليالي الثلاث التي قضاها في ضيافة الامير كافية لأن تجعله يعرف أسماء الحراس الذين يتناوبون الحراسة على رفيقه .. ولذلك لم تكن مفاجأة للحارس المناوب عندما جاءه هذا يناديه باسمه وبالزي نفسه الذي يرتديه زميله الحارس وفي ساعة قريبة جداً من الساعة التي يأتيه بها بديله ولذلك تنحى عن السجين وسلمه على ما يعتقد لزميله .. وراح هذا واستلم رفيقه الذي كان واثقاً بأنه سوف يختطفه من سجنه لا محالة .. وعندما جاء الحارس ليغير رفيقه لم يجد حارساً ولا سجيناً فراح الى مرجعه يصرخ قائلاً :

ـ إن السجين والحارس فرا سوية ..

فذهبوا يفتشون على الحارس الأول فوجدوه آمنـاً مطمئناً فسألوه عمن تسلم السجين منه فقال :

ـ سلمته لزميلي الذي اسمه كذا وصفته كذا . فجاءوا بزميله ليتأكدوا منه وبمجرد ما رآه قال :

ـ نعم هذا هو الذي تسلم مني السجين منذ فـترة قصيرة .. فصاح به الحارس قائلاً :

ـ كذبت لم أتسلم منك ولم أرك ورد عليه هذا ..

ـ تسلمت مني الآن ..

وعندما علا صوت الجنديين كل واحد منهما يريد ان يضع المسؤوليـة على صاحبه ، عند ذلك سيق الحارسان الى الأمـير ليقول كلمته النهائية فيهما .. وحين ما وصلا وبـدأ الأول يسرد الصورة التي جاءه فيهـا رفيقه وتسلم منه السجين نظر الأمير اليه فوجده يتحدث حديث الرجـل الصادق الواثق بصحة كل كلمة يقولها فتركه ثم استدعى الثاني فذهب ينـكر ويجحد كل كلمة قالها صاحبها مؤكداً بانه لم يره .. وكانت دلائل الصدق بارزة ايضاً على محيا الجندي الثاني مما جعل الامير يزداد حيرة في امرهما وغاية مـا هنالك انه أمر بسجن الجنديين الى ان يحقق معهما فيما بعد على أساس انه لا بد ان يكون احدهما مرتشياً فعند ذلك سوف يكون عقابه الاعدام من قبل الأمير ، ولكـن سعوداً الفتي الشهم لم يترك الجنديين يذهبان ضحية الظلم بل راح وأوعز لمن يخبر الامير بأن جندييه بريئان مما يتهمهما به ..وانه هو المسؤول الوحيد عن فرار السجين

كما اوضح الطريقة التي استطاع بفضل حنكته ورباطـــة جأشه ان يختطف بها رفيقه من بين يدي السجانين بمهارة لا يستطيع القيام بتنفيذها الا مغامر اخو نجدة كصاحب الترجمة (١)

ـ رويت هذه القصة عن حجاب بن حثلان السبيعي .

سيأتي بدل الابن ابن ، ولكن قلّ ان يأتي

بدل البطل بطل من نوعه

١٦

عندما يصاب المرء بمحنة مزدوجة ذات شقين ، تحتم عليه ان يتجـاوز عن احد الامرين لا محالة ، فأنه سوف يختار أخف الضررين ..

ومن المسلم به أن المرء عندما يصاب بمصيبة تفرض عليه ان يتخـلى اما عن ابن عمه وأما عن أخيه فانه سوف يتخلي عن ابن عمه ، وعندما يكون مضطراً لأن يتخلى عن ابن عمه ، وان يكون مضطراً أيضاً لأن يتخلى عن ابنه أو عن أبيه فسيكون في حيرة من أمره ، فيما اذا لم يكن وفياً باراً ، اما اذا كان شيمته البر فانه سوف لا يتردد من تخليه عن ابنه في سبيل انقاذ حياة والده الذي هو مصدر وجوده .

ولكن الشيء الذي هو موضوع الدهشة والغرابة هو اننا نجد عربياً يدعى (غضبان (١) بن رمال) شاء القدر ان يبتليه بامتحان قاس وذلك انه في احدى

---

١ غضبان من اشهر شجعان قبيلة شمر نجد ورئيس فخذ ارمال من عشيرة سنجارة . توفي عام ١٣٦٨ هـ

الغزوات التي هزم بها قوم ابن رمال سقط ابنه جريحاً وفي الوقت نفسه سقط ايضاً الشيخ عقاب (١) ابن عجل جريحاً وكانت خيل العدو منهما قاب قوسين أو ادنى .. وكان لا بد لغضبان من ان ينجدواحداًمنهماونجدته لاحدهما معناها تضحيته بالثاني ، فان انجد ابنه ، فهذا يعني انه ترك عقاباً فريسة بيد الأعداء وأسر العدو لشخصية كعقاب أو قتله يعتبره العدو نصراً ما بعده نصر ..

كما ان تخليه عن فلذة كبده وتركه لقطعة من قلبه ، يمزق اشلاءه الأعداء ليس من السهل على العاطفة الابوية ان تتحمله ..

كان الظرف حرجاً للغاية .. وكانت اللحظة حاسمة وضيقة ، ولا مجال فيها للتفكير وجواده لا يطيق ان يحمل اكثر من أثنين ، يعني فارسه وواحداً معه فقط .

وكان ابنه ينظر اليه بعين العطف ولا يعتقد انه بحاجة الى ان يستنجد بأبيه فرابطة الابوة كافية أن تستفزه ، وتأسر فؤاده ، وتسيطر على عواطفه ... وكان الجريح الثاني أي الشيخ عقاب يرى ان حياته أصبحت على كف عفريت فاما ان ينخي ويستنجد بشجاعة ونجدة ابن رمال واما ان يقطع ارباً بيد فرسان العدو الذين أقبلوا عليه كالسيل المنهمر ، ولكنه لم يستنجد به بالرغم من انه بأمسّ الحاجة لمن ينجده .

كان عقاب يرى ان طلب النجدة ضعف منه في موقف حرج كهذا الموقف الذي يفرض عليه ان يتصف بكل ما يحتفظ به من رصيد الصبر والجلد ورباطة الجأش ..

---

١ - عقاب بن عجل اشهر من نار على علم عند رجال البادية فقد جمع بين الشجاعة وسداد الرأي خاصة في الحروب وهو من رؤساء قبيلة شمر من نجد ولكنه استوطن العراق وتوفي عام ١٣٨٠ - ١٩٦٠ ، انظر القصة التي بعنوان العاقل خصيم نفسه في ص ج من هذا الكتاب .

كان يرى ان وضعه الراهن يغني عن النجدة ولسان حاله ينادي (غضبان) بالحقيقة القائلة : انه اذا انجد عقاباوترك ابنه فان إبنه لا يفقده الا والده ووالدته ولكنه اذا ترك عقابا وانجد ابنه فانه يترك زعيماً تفقده القبيلة بأسرها ..

ظل العاملان المتناقضان يتصارعان في كيان غضبان : الاول عامل العاطفة الأبوية ، والثاني عامل النخوة العربية..ولم يكن ثمة أي حل وسط بين هذا وذاك..

ولئن كانت دوافع العامل الأول مؤثرة من الناحية العاطفية ، فان حوافز العامل الثاني قوية وعنيفة من حيث النخوة العربية ، وان تكن نجدته لابنه عملية طبيعية لا حمد فيها ولا ثناء ، فان في نجدته لعقاب وتركه لابنه تضحيه نادرة من نوعها تستحق الخلود الأبدي ..

ولم يسعه الا ان ينقاد لحافز النخوة معرضاً عن حافز العاطفة مقدماً حياة زعيم وبطل كعقاب على حياة فلذة كبده ، معزياً نفسه بكلمته الخالدة التي استشهد بها عندما صمم على تنفيذ نجدته هذه ، ومخاطباً ابنه في تلك اللحظة الضيقة الحاسمة قائلاً :

بأمكاني يا بني ان انجب ابناً خلفاً لك بمبيت ليلة واحدة مع والدتك ... ولكن ليس بالامكان ، ولا من السهولة ان ينجب رجالنا او تنجب نساؤنا رجلاً ذا رأي سديد وشجاعة كعقاب .

وهكذا رأى غضبان ان التضحية بثمرة فؤاده أهون عليه من التضحية بالفارس الزعيم ..(١)

.. وبعد

فبالرغم من ان هذه الحادثة ثابتة ولا شك عندي في صحتها وذلك

---

(١) ترى لو انه ترك عقابا وانجد ابنه .. أيمكن ان نسجل له هذه المفخرة في صفحات شيم العرب. طبعاً لا ؟

لعدة امور :

منها : ان ابن بطل القصة غضبان قتل في نفس المعـركة المسماة بغزوة (ام غراميل) . ومنها ان عقابا بن عجل جرح فعلاً في تلك المعركة ، والى أن توفاه الله وهو يعرج من اثر ذلك الجرح .

ومنها : ان نجدة غضبان بن رمال في تلك اللحظة لابن عجل مشهورة ولا يختلف فيها اثنان ..

ومنها ان الحادثة قريبة العهد في آخر العقد الرابع من قرننا الهجري الحالي ولكن رغم توفر هذه الادلة بالنسبة لكون الحادثة من أنـــدر النوادر ، فأنني حرصت كثيراً على ان استقصي الاخبار كما هو شأني في تحققي وتثبتي بنقل اية حادثة من (شيم العرب) ..

ولذلك كنت شديد الحرص على ان آخذ الحادثة من مصدرها وهو الشيخ عقاب ابن عجل الذي لم يتوف الا منذ ثلاث سنوات فقط .. ولكن ثمة ظروف لا يسعني شرحها حالت دون ما اريد ..
وبعدما تلاشت تلك الظروف واضمحلت الى غير رجعة بعد ذلك توفي الرجل الى رحمة الله .

وعلى أي شكل فان الحادثة اكيدة وثابتة ولا ريب في صحتها بحكم الرواية المتواترة والادلة الوافرة الآنفة الذكر .

حينما يبكي الشجاع يأمن الخائف

١٧

عندما يقع المرء في محنة ما لا يفكر الا بالوسيلة التي ينجو بها من مأزقه .. وهذا ما وقع مع شخص يدعى (دحيم ابن مهوس) وذلك عندما القته السلطة في مدينة الزبير بغياهب السجن بتهمة تهريب الاسلحة ..

كان دحيم بن مهوس الذي لا يزال على قيد الحياة (١) صاحب قدرة كاملة على صيغة الحديث بأسلوب مؤثر وذلك في الاحوال العادية وبدون كلفة ..

وتأييداً لذلك اذكر على سبيل المثال ان شخصاً ما شاء ان يبعث انـــذاراً ايجابيا لشخص آخر فذهب ينقب عمن ينقل انذاره هذا بصورة صادقة فلم يجد من يحمل الانذار على الوجه المطلوب سوى ابن مهوس الذي تطوع من عنـده وبلغ المنذر (بفتح الذال) وصية المنذر بطريقة ارعب بها من وجه اليه الانذار حيث جاء بجملة اهتبلها من عنده كمقدمة للانذار كانت اشد تأثـيراً واعظم رعبا على نفسية المهدد من العقاب العملي ...

كانت الجملة التمهيدية التي تطوع بها ابن مهوس كالاتي :

---

١ ـ دحيم من ساكني مدينة حائل وهو يناهز الثمانين عاماً حالياً

(انني لم اعرف احداً يتلذذ بالانتقام فيما اذا نيل من كرامته كما يتلذذ الانسان بالاتصال الجنسي مع المرأة كفلان) ..

كانت هذه الجملة التمهيدية وحدها جدير بها ان تغني عن أي انذار كان .. وبعد فان غايتي من ذكر هذه الحادثة التي هي خارجة عن صميم البحث الذي نحن بصدد ذكره ليس الا تقديم الدليل على قدرة ابن مهوس على صوغ الكلام المؤثر بصورة طبيعية وبدون اي حافز يضطره الى ذلك .

اذن فما بالك بحديث هذا الرجل عندما يكون وراءه ما يحدوه الى الحديث المثير بل ماذا يكون حديثه حينما يدرك ان لا نجدة له من المأزق الذي وقع فيه الا بانتقائه اشد الجمل تأثيراً على نفسية عربي مفرط بالشجاعة والنخوة كالفارس المشهور (ضارى) ابن طوالة رئيس عشيرة الأسلم من قبيلة شمر .

كان ضارى ابن طوله وقتها غاضبا على حاكمه سعود بن رشيد فنزح عن شمالي الجزيرة وذهب الى العراق وذلك حوالي عام ١٣٣٥ هـ وقد بلغ دحيم بن مهوس ان الشيخ ضارى يقيم وقبيلته في ارض قريبة من الزبير ..

فما وسعه الا ان طلب من احد اصدقائه الذين يزورونه بالسجن ان يبلغوا الشيخ ضارى وصيته التي تقضي بطلبه بأن يزوره في سجنه مدة قصيرة محدودة وكان المعروف عن ضارى سرعة نجدته لمن انتدبه لاي شيء كان . ولذلك لم يتردد فذهب فوراً للسجين ولم يشعر ابن مهوس الا بالشيخ ضارى واقفا على ابواب السجن يسأل عن طلبه .

كان المهوس يعرف الشيخ ضارى معرفة جيدة ولكن ضارياً لا يعرف المهوس ولذلك حاول ان يتجاهله فأطلَّ عليه من شباك السجن قائلا : من انت

ايها الفتى الذي تسأل عن ابن مهوس .

ـ عربي (١)

ـ من اي القبائل

ـ شمري ..

ـ من الصائح والا من عبده

ـ من الصائح ..

ـ من أي بطن ..

ـ من الاسلم ..

ـ من اي فخذ ..

ـ من الطواله ..

ـ سألتك الله هل ضارى ابن طواله على قيد الحياة ام في عالم الاموات ..

ـ بل لا زال ماذا تريد منه ؟

(يقول ابن مهوس) عندما وجه اليّ ضاري حرف الاستفهام (ماذا تريد منه ؟) كنت انظر الى عينيه التي هي اشبه ما تكون بعيني النمر قد اغرورقت وكساهما الدمع) ...

ـ ناشدتك الله ان تقول للشيخ ضاري يقول لك فلان ترى لو كان والده (برغش) على قيد الحياة بمكانه أيمكن ان يقدم والي الزبير على سجننا ظلماً ؟

---

١ ـ من عادات البدو ان لا يعرف احدهم عن نفسه كما هي العادة المألوفة عند الحضر . لانه يخشى من طالب ثار يلاحقه .

وعدواناً وهو يعرف ان وراءنا ابن عم غيور شجاع شهم كوالده برغش ..

وختم المهوس كلمته او قل ندبته بقوله : الا ليت (برغش) حياً والا فليت الأحياء بقبره .

قال المهوس هذه الجملة الأخيرة ثم ختمها ببكاء مصطنع بعد ان لطم خديه براحتيه .

فما كان من الشيخ ضاري(١) إلا ان تناثرت دموعه وبكى بكاء الأبطال الذي هو أشبه ما يكون بزئير الأسد لابكاء الجبناء ولابكاء الماكرين الذي قال عنه بعض الحكماء : (إذا كمل مكر المرء ملك دمعته) .. وإنما كان بكاؤه اماناً للسجين الخائف من مصيره المجهول ..

ذهب ضاري من عند السجين وراح للوالي يطلب منه ان يخرج السجين من سجنه وشاء الوالي ان يسوّف ويماطل ولكنه وجد نفسه امام فارس فاتك لا يقبل التسويف وليس لديه صبر للماطلة ولذلك أمر باخراج المهوس فوراً .

***

عندما روى لي دحيم بن مهوس هذه الحادثة لم أستغربها قطعيا من شجاع كضاري ذلك الفتى الذي عرف بالشهامة والنخوة والشجاعة حتى أصبحت هذه المعاني صفة بارزة من صفاته التي عرف بها وعرفت عنه ..

والحديث عن ضاري ابن طواله بهذه الأمور يطول ويطول وعلى سبيل

---

١ ـ ضاري عند البادية يعبر عن صفة السبع المفترس .

الحصر والاختصار أود أن أذكر عنه حادثة وان كانت مختصرة ولكنها تعبر تعبيراً أكيداً عن نفسه الأبية وذلك في إحدى الحروب التي اشترك بها مع والده . . وفي اللحظة التي وقف فرسان قومه من فرسان العدو وجها لوجه ، في تلك اللحظة أمر والده بأن يقطع له غصنا من الشجرة التي كان فرسان قومه واقفين تحت ظلها ولكن ضاريا عوضا من ان ينزل من صهوة جواده ويقطع غصنا لوالده من الشجرة التي تظللهم بدلا من ان يفعل ذلك هجم على العدو قاصدا أن يقطع غصنا من الاشجار التي تضفي ظلها على العدو لا التي تظل قومه . . ولكن بهجومه هذا هزم فرسان العدو ومن ثم نزل عن جواده وقطع غصنا وناوله لوالده . .

ومما يدعو الى الأسى هو ان هذا الفارس المغوار كان مصرعه على يد راع من رعاة الابل لا من يد فارس من انداده . .

وقد روى لي المرحوم (جعيثن بن سقيان) الذي هو شاهد عيان روى لي الطريقة التي مكنت الراعي من قتله للفارس ضاري رواية أكيدة تعطينا أوضح الأدلة على انه باستطاعة أبسط انسان ان يقتل أشجع الفرسان وأشدهم بأسا فيما إذا كان الأمر على النهج التالي :

يقول الراوي : بينما كان ضاري يسير أمامي بهدوء فوق صهوة جواده في تلك اللحظة سمعت طلقة الرصاص فمددت بصري لكي أتأكد من أين مصدرها فإذا بي أرى رجلا متواريا خلف حجر كبير لا أتمكن من إصابته ثم أرجعت بصري كرة أخرى لأنظر الى رفيقي ضاري فإذا به منكبا على رقبة فرسه وينزل بصورة تدريجية حتى سقط صريعاً على الأرض . .

وهكذا كان مصرع ذلك الفارس المغوار من رصاصة اطلقها رجل متوار تحت حجر يتمكن بأن يصيب من يرميه وهو واثق بأنه لا يستطيع امهر الرماة

ان يصيبه بأدنى أذية ..

وهذا مما جعل الشجاعـــة العربية تفقد طابعها الاساسي خاصة بعد ان برز الى حيز الوجود السلاح الحديث عندئذ بطلت اسطورة الفرسان القدامى الذين كان قتالهم فيما بينهم وجها لوجه . . ولذلك نجـد الشاعر الشعبي يقول :

رمي الموازر ما بها نوماس حذفـــة شرود من بعيـــد(١)

---

١ - المعنى ان السلاح الحديث أشبه ما يكون بسهـــم المرء الجبان الذي يطلقه من بندقيته بدون ارادة منه . بل وقد يكون مختبئا في حالة اطلاقه لسهمه أو هاربا مدبراً .

الفضل ما شهدت به الأعـــداء

- ١٨ -

من ابرز الصفات التي يمتاز بها البدوي على الحضري هي اعترافـــه لخصمه بالخصال التي يمتاز بها فتجده يشهد لعدوه بماله من فضيلة حتى ولو كانت شهادته هذه فيها هضم لحقه .فإنه لا يبالي بذلك .. بل يقول الحق ولو على نفسه ..

يقول الشيخ خليل(١) بن مهيد: كنا ذات يوم في دمشق في منزل المرحوم(٢) مشل الجرباء. وفي ذلك النادي الحاشد حصل مناظرة كالمعتاد بين نفر من قبيــلة عنزة ونفر من قبيلة شمر وعند ذلك تدخل في الموضوع شيخ طاعن بالسن يدعى (كاكان[٣]) بن مصيول .

---

١ ـ : خليل ابن حاكم بن مهيد رئيس قبيلة الفدعان الذي يقول عنه العاص الجرباء أبيات شعبية جاء منها :

الحـــاكم حاكم الفدعان   ولا حاكمنـــا رنين

٢ ـ مشل من رؤساء قبيلة شمر في جزيرة الفرات .

٣ ـ كاكان من فرسان قبيـــلة شمر الفرات .

فقال ان الحروب بيننا وبين بني عمنا عنزة سجالا يوم لنا ويوم لهم ولكنني اذكر حادثة وقعت من فارس من فرسان الفدعان يدعى (حزيل العواجي (١)) ومضى الرجل يروي الحادثة الى ان قال تجمع عدد كبير من فرسان قبيلة شمر بقيادة الشيخ عبدالكريم الجربا(٢) وكنت بين اولئك الفرسان وبينما نحن سائرين في طريقنا التقينا بفرسان من قبيلة الفدعان بقيادة الشيخ تركي(٣) ابن مهيد وكانوا أقل منا عددا وعدة فوجدناهم لقمة سائغة يمكن الاستيلاء عليهم بكل سهولة .. كما ان القوم ادركوا مدى ضعفهم امامنا ..

ويسترسل الراوي بحديثه فيقول : وكان لي اخ شقيق يدعى (تركي) (٣) اتهم في قتله الفارس حزيل العواجي فقلت في نفسي لا بد ان يكون حزيل من بين هؤلاء الفرسان فان يكن كما اظن فانني اريد ان اطلب مبارزته لعلي أخذ ثأر اخي من رقبته ..

• ولما كانت التقاليد تقضي بأن الفارس الذي يطلب مبارزة فارس ما يجب ان يكون بمفرده .. فقد خرجت من بين صفوف قومي ممتطياً صهوة جوادي وسرت حتى دنوت من غزاة العدو فقلت : (انني فلان اطلب مبارزة حزيل العواجي قاتل اخي تركي فان يكن بينكم فليتقدم لمنازلتي .. وكان المطلوب موجوداً فأجابه الفارس حزيل نصا كما يلي :

---

١ ـ حزيل من ابرز فرسان قبيلة الفدعان .

٢ ـ عبد الكريم اشتهر بكرمه المتناهي حتى كني بأبي (خوذة) اي انه لا يطلب منه شيء الا ويقول لطالبه (خذه) .

٣ ـ تركي رئيس قبيلة الفدعان . قتله الفارس خلف الاذن من قبيلة الرولة وتولى رئاسة القبيلة من بعده حاكم سالف الذكر .

٤ ـ هو تركي بن مصبول انظر قصته في هذا الفصل بعنوان (الفتى الذي بدل الموقف من استسلام الى أنتصار .

(اقسم لك بالله انني لم اشق له جلدا ولم ايتم له ولدا) (١) ثم اردف حزيل قائلا : ولا تظن انني عندما انكر قتـــل اخيك معناه انني اعتذر أيضا عن مبارزتك بل ها انذا جئت ملبياً لطلبك ..

وما ان قال الفارس هذه الجملة حتى انقض على صاحبه كالسهم ..

ومن هنا يصور الراوي موقفه من نده بكل صدق وأمانة ..

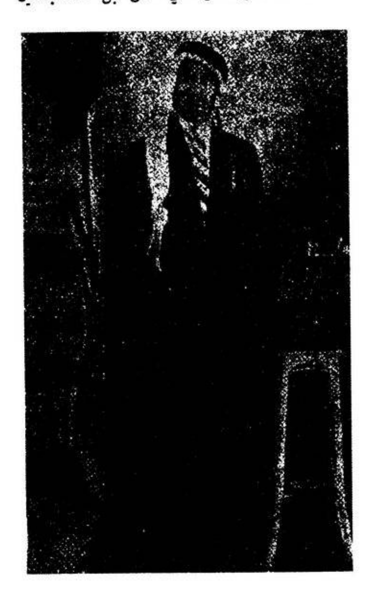
فيقول : عندما بدأ الرجل حديثه بقسم أنكر به قتله لأخي ، فـترت همتي وتبدلت نفسيتي من رجل يريد ان يأخذ الثأر من عدوه الى رجل عقد العزيمـة على ان يعود الى رفاقه ولكنني فوجئت بالفـــارس الذي هجم عليّ بدون ان يترك لي مجالا للاجابة على قسمه فلم يكن بمقدوري ان استعيـد شجاعتي الاولى فتصورت هذا الفارس امامي كأنه جبل يريد ان ينقض عليّ فلم يسعني وقتها إلا ان رميته برمحي بـــدون ان يكون لديّ من الفطنـــة والسيطرة على اعصابي مايجعلني اركز رميتي بصورة تمكنني من إصابة هدفي بينما العدو طعنني برمحه (زرقا) فجرحني بدون ان يصيب مني مقتلا .. ومن ثم سقط الرمح منتصباً في ارض رملية فاختطفه بسرعة مذهلة فلم يسعني إلا ان ضربت جـــوادي سوطا وأدبرت نحو قومي مستنجدا بهم وهاربا عنه .. ولكن الفـارس تبعني وفي الوقت نفسه تبعه فرسان قومه فكانت النتيجه ان دخل في قلوبنـــا الرعب فولينا هاربين جميعاً بعد ما كنا معتقدين ان الغلبة لنا لا محالة بحكم كثرة عددنا وقلة عدد عدونا .

---

١ - اي انه لم يجرحه ولم يقتله .

٢ - الحادثة لها ما يقارب سبعين عاماً من تاريخنا الحالي ١٣٨٤ هـ ١٩٦٤ م ولئـــن كان فيها ما يدلنا على شجاعة هذا الفارس العربي فإن فيها ما يدلنا على صدق وأمانة العربي الذي يشهد بالحق ولو كان على نفسه ،

أخذت هذه الصورة للمؤلف في دمشق قبل الحادثة بسنتين



العدوّ الشهم خير من الصديق النذل

- ١٩ -

اذا كان الانسان يؤتى به الى هذه الدنيا بغير إرادة منه ، ويؤخــذ منها بدون رغبته،ويفرض عليه انتسابه الى والديه وارتباطه باسرته ،وصلته بقبيلته أو وطنه،بل وحتى انتمائه الى انسانيته بدون ان يكون لهحرية الاختيار ،اذا كان الامر كذلك فان المرء في حالة طفولته الفكرية سيفرض عليه إيمانه بعقيدة آبائه ، سواء كانت تلك العقيدة على حق او على باطل ، وسوف يتعصب لذويه الأقربين على ما فيهم من خير وشر ، وسيظل ذلك الايمان وذلك التعصب باقياً ما بقيت طفولتهالفكرية جامدة متحجرة ، اما اذا ـ نمت مواهب المرء الفكرية وانطلقت من عقالها وحطمت اصفادهـــا ، ومن ثم صادف هذا النمو الفكري استعداد نفسي لقبول الانطلاق والتطور ، فعندئذ سينتقل المـــرء من افكار طفولته الموروثة عن أمه وابيه ، ومن أنانيته المتصورة على قبيلته ، ان كان قبلياً ومن (فاشستيته) المحدودة على حزبه ، ان كان حزبيـــاً ، الى ميدان الانسانية الشامل ، وتلك نظرة آمن بها وعبر عنها الشاعر محي الدين بن العربي بقوله :

لقد كنت قبل اليوم انكر صاحبي
إذا لم يكن ديني الى دينه داني

أدين بـــدين الحب انى توجهت
ركائبه ، فالحب ديني وايمـــاني

هذا البحث الذي أوردته في هذا المكان قد يقال ان لا علاقة له بصدد القصة التي سنوردها فيا بعد ، قد يقال ذلك ولكن الذي يتدبر هـــذا البحث بوعي وإدراك ، ومن ثم يمعن النظر جيداً بما استهدفه من معان جوهرية في صميم قصتنا هذه فانه بلا شك سيدرك بأن هذا البحث لم يكن مقدمة للقصة فحسب ، بقدر ما هو متصل بصميم قصتنا التي أوافي القارىء بها ، لا ناقلا لهـا من أفواه الرواة كغيرها من القصص ، بل كشاهد عيان او بعبارة أصح كطرف ثان في الموضوع .

بداية القصة

كنت أثناء وقوع الحادثة في سن لا يتجاوز التاسعة عشرة . وكانت طفولتي الفكرية لا تزيد عن طفولتي الجسدية ، بل تنقص عنها ، هذا اذا كان قياس النمو الفكري مناطاً بما يناله المرء من العلم وسعة الاطلاع وكثرة التجارب ، فاذا كان الأمر كذلك فان نموي الجسدي وقتها قـــد بلغ حده الأقصى ، بينما كان نموي الفكري لا يزال في مرحلة الطفولة ، ولا عجب فقد خلقت في محيط لا توجد فيه أية مدرسة ابتدائية ، ولا توجد فيه أية مكتبة يباع فيها أي كتاب كان ، ولا يوجد فيه بـــل ولا يحتمل أن يكون فيه أي مصح ، او ادنى علاج من ادوية الطب في عصرنا الحديث .

ومن يعش في محيط قبلي كهذا المحيط فـــانه من بدهيات الأمور ان يكون إيمانه بمجد أسرته مقدماً على ايمانه بقبيلته ، كما يكون ايمانه بسعادة قبيلته مقدماً على ايمانه بخير الانسانية وسعادتها .

وهكذا كان ايماني بهذه النظرية الخرقاء ايماناً قبلياً لا تشوبه شائبة ، وقـــد برزت هذه الظاهرة مني في مناسبة سأترك شرح تفاصيلها وأسبابها كما اترك الزمان

والمكان والظرف الذي حدثت فيه . الى ان يجيء الوقت المناسب الذي أبرز فيه الى حيز الوجود الكتاب الذي اسميته (من الطفولة الى الكهولة) .

اما الآن فانني أقف على ذكر الحادثة باختصار على الوجه الآتي :

كانت الخصومة في بداية الأمر بين شخص يدعى (خلف بن رخيص) وبين (علي الذياب (١)) خصومة جدال لم تصل بعد الى حد الاشتباك والمضاربة ، وقد اعتقدت ان الخطأ صادر من علي الأمر الذي جعلني ألومه على ما أبداه من تصرف خاطيء ، وقد خيّل الى علي ان لومي له لا لأنه مرتكب خطأ ، وانما هو بدافع من التحيز والتعصب لخصمه ، على أساس انني وخلف من مدينة (حائل) المنتسب أهلها الى قبيلة شمر نجد ، بينا هو من قبيلة شمر الفرات ، وهذا ما جعله يترك خصومته لخلف ويتجه نحوي موجهاً اليّ كلمات قاسية ، ولما كنت أعاني وقتها من طيش الفتوة وطفولة التفكير الشيء الذي لا أستطيع ان أعبر عنها الآن ، فقد كان رد الفعل مني متجاوباً مع حداثة سني وضحالة تفكيري ، مما جعلني اهجم عليه بصوره مفاجئة لم يتمكن بها من الدفاع عن نفسه فطرحته ارضاً ، ولحسن الحظ انه كان هناك نفر موجودون اثناء الخصومة فبادروا بحجز احدنا عن الآخر قبل ان أتمادى بحماقتي الطائشة .

العربي لا يترك الثأر مهما طال المدى

وبما انني ادرك جيداً بأن العربي وخاصة البدوي قد يتجاهل او يتناسى انتقامه وثأره ممن أهانه واعتدى على كرامته الى ان تتاح له الفرصة المواتية . ولكنه من المستحيل ان يترك ثأره قطعياً ـ اللهم الا في حالة واحدة ، وهي العفو والتسامح ، وهذا العفو وذلك التسامح لا يتحققان من طالب الثأر بكل

---

١ ـ خلف من مدينة حائل . وعلي الذياب من قبيلة شمر الفرات ومن عشيرة الصبحي .

سهولة أقول : لما كنت أعي وأدرك هذه الحقيقة فقد وجدتني بين امرين : اما ان اذهب الى عدوي منحنيا وأطلب منه العفو والتسامح وطارحاً نفسي بين يديه ، مبدياً معذرتي ، ومعلنا بصورة غير مباشرة خوفي من عقابه ، وهلعي من سطوته ، واما ان استعد لمواجهة جميع الاحتمالات التي يفاجئني بها خصمي . ولما لم يكن لي بد من اختيار اهون السبيلين ، فقد وجدت ان في السبيل الأول اسلوبا لا أستطيع القيام به كاستطاعتي لقبول السبيل الثاني ، ولذلـــك فقـد اخترت السبيل الأخير وظالت في حالة من الحذر واليقظه لأية مفاجأة تبدو من صاحبي ، كما كنت مستعداً لمواجهة اسوأ الاحتمالات التي أتوقع انـه لا يمنعه من اتخاذها نحوي الا سنوح الفرصة ، وفي مناسبة يطول شرحها جمعنا القدر معا هو وأنا وثالثنا شخص من قبيلة الفدعان اسمه الشائع لدينا (كربول) وهو يزعم ان اسمه (احمد المعيوف) وهذا الشخص كثير المشكلات ولا يمنعه مـانع من الاشتباك والمصارعة والملاكمة مع أي من كان ، ولكنه كان ذكيا بأسلوبه هـذا بصورة تجعله يقوم اولاً بتجربة مع من يريد الاشتباك معه عن طريق المزح، وعلى سبيل المثال يأتي فيجرب المصارعة مع شخص ما، او ما يقال عنها بلغتنا الشعبية بـ (المطارحة) فيتخذ هذا الأسلوب باسم المزح والرياضة، فان قدر له ان يتغلب على صاحبه هذا ويصرعه عن طريق المزح فانه سوف لا يتورع من أن يبتكر أية مناسبة يجهز بها على قرينه بصورة جدية فيشبعه ضرباً، وقد سبق لأحمد المعيوف او هو (كربول) ان قام بتجربة فاشلة نحوي ، مما جعله لا يفكر باشتباك جدي معي ، اما وقد سنحت له الفرصة المواتية التي طرحتني بـين يديه هو وغريمي (علي الذياب) فانه والحالة هذه سوف لا يجد ما يمنعه من الفتك بي مـا استطاع الى ذلك سبيلا .

نسي ثأره واستجاب لنخوته وشهامته

وفي الحين الذي كنت آخذاً به جميع الاحتياطات لمواجهة ما أتوقع حدوثه

من (علي الذياب) الذي أقبل نحوي بوجه يتطاير منه الشر ، وبـدأ يتحرش بي بكلمات يريد ان يتبعها بلا شك بالتنفيذ العملي . في تلك اللحظة أقبل عليّ ايضاً الأخ (كربول) حاملاً عصا خيزران يهزه في وجهي قائلاً هذه الكلمات لفظاً ومعنى : (انطح عن نفسك يا لحار أبَا الشّوارِيْ ضربتك لعلي) (١) .

يقول ما معناه (انني مقدم عليك فان كنت رجلا فدافع عن نفسك وان غايتي من هذا الاقدام هي أن أثأر لعلي وان انتقم منك بسبب ضربك له) .

وما ان سمعت هذه الجملة من أخينا (كربول) حتى صحت به مجاوبـاً له بالعقلية القبلية نفسها التي أومن بها وقتها قائلا نصاً كما يلي : واشْ انـّي دَخـّلك بيني وبين ابن عمي علي .. أجَلْ مانتْ عدولنا كلنا ؟) .. ثم انحرفت الى علي وقلت له بعد ما أدرت يدي خلف ظهري وحنيت هامتي أمامه (تعل يا عـلي اضربني لـمّا تطيب نفسك مني ، ولا تخلي عدونا يأخذ ثأرك مني) .

وما ان قلت هذه العبارات وأتبعتها بالحركات التي من شأنهـا ان تعبّر عن استسلامي ، حتى رأيت الدموع من عيني (علي) تتناثر على خديـه ، فراح مديراً ظهره عني وهو يمسح دموعه ويبكي بصوت خافت ، اما الأخ (كربول) فقد وقف فترة وجيزة وهو مبهوت من تبدل الموقف ، ثم بعد ذلـك ادار ظهره هو الآخر وذهب متراجعاً الى الخلف ، ولم أنـدم طبعا على دموع علي ولا على حيرة (كربول) .

وبعد مضي يوم واحد من الوقت علمت (ان كربول) راح يلوم عليا قائلا

---

٢ ـ المعنى انني قلت لـ (لكربول) ما الذي يجعلك تتدخل بيني وبـين ابن قبيلتي (اقصد علياً وأنت عدو لنا جميعاً على اعتبار ان علياً وان كان من شمر الفرات ولكنه ليس هناك فرق بين شمر الفرات وشمر نجد ولا سيما عند ما تأتي القضية ممن هو خارج عنها ثم اردفت قائلا لعلي : تعال وخذ انت ثأرك مني واضربني حتى ترضى خير من ان يأخذ ثأرك مني عدو لنا جميعاً ،)

له : (لقد استطاع الرجل ان يخدعك بتلك الكلمة التي جعلته يفلت من يدك) وقد بلغني ان علياً أجاب (كربول) بقوله : (حتى ولو كان فهد أراد من تلك الكلمة ان يخدعني فأنا لست نادما على عدم أخذي لثأري منه بواسطة مؤازرتك لي مثل ندمي فيما لو ناصرتني عليه وضربناه معا ، لأنني في الحقيقة قد لا أملك أعصابي حينما أراك طارحا لفهد وباركا على صدره وضاربا له) .

عندما بلغني هذا الحديث الذي دار بين علي و (كربول) عند ذلك ذهبت الى علي واعتذرت منه ، وطلبت منه التسامح والعفو .

وبعد .. فقد تباينت آراء الاخوان والأصدقاء حول تلك العبارات التي قلتها في تلك الساعة الحرجة ، فهناك من يقول : انني حينما قلت تلك الكلمات انما هو عن ذكاء وبعد نظر وسرعة بديهة ، لكي أجد لنفسي المخرج الذي انجو به من ذلك المأزق الحرج. وهناك من يقول: انها جاءت عفواً بدون تفكير سابق.

وعندما سمع بالقضية صديقنا القديم الأخ (عبد الكريم الشويش(١)) الذي يقيم الآن في مدينة الكويت ممتهنا الأعمال الحرة والذي يستسيغ النكتة بذكاء فطري ، عندما بلغته هذه الحادثة مفصلة قال : (انا أعتقد جازما ان الكلمات التي قالها فلان جاءت بريئة من أية خطة مسبقة او تفكير عميق) .. ثم أردف قائلاً : فلو ان (فهد) بعيد التفكير لكان بامكانه عندما أثار حماس علي بكلمته تلك ان يقدم على (كربول) ويشبعه ضربا حتى إذا ضمن لنفسه بأن (كربول) لا يستطيع المقاومة بعد ذلك يعود على علي ويمثل معه الدور نفسه الذي قام به مع (كربول) فيكون وقتئذ قد انتصر على كلا الشخصين اللذين يريدان الفتك به .

قلت : لو فعلت ذلك لأصبحت القضية الى المكر والخداع أقرب منها الى الخلق النبيل ، والشيم العربية ، واذن لفقدت الطابع الذي يجعل لهـا مكانا في حقل كتابنا « من شيم العرب » .

---

١ ـ عبد الكريم من اهالي حائل .

الفارس الذي ذهبت نخوته بحياته

- ٢٠ -

في عام ١٣٤٠ هـ - ١٩٢٢ م جاءت قبيلة مطير وعلى رأسها فيصل الدويش وطوقت مدينة حائل ، حيث نزلت في قرية يقال لها الجثامية ، تقع شمالا عن حائل مسافة خمسة اميال على حد التقدير . وكانت الغاية من ذلك حصار البلاد اقتصاديا لـكي يسهل احتلالها من قبل المرحوم الملك عبـــد العزيز آل سعود ، كخطوة اولى لتوحيده لشبه الجزيرة .

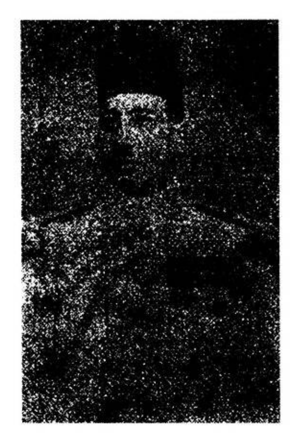
وكان امير حائل وقتها المرحوم محمد بن طلال ، فتى لم يبلغ العشرين عاما من العمر ، ومن يكون بهذه السن قد لا تنقصه الشجاعة بقدر ما تنقصه الخبره العسكرية . وذلك انه عوضاً عن ان يقف بقومه موقف المدافع بحكم وضعه العسكري ، الذي يستلزم ذلك ، لا لكونه محاصرا من جميع الجهات فحسب . بل ومن اجل ان جنوده المقاتلين وان كانوا شجعانا بواسل ، ومدربـــين على الحروب منذ نعومة اظفارهم ، ولكنهم محدودو العدد ، للغاية بالنسبـــة لقوة عدوه . موحد الجزيرة ، عبد العزيز آل سعود ، الذي بدأت طلائع جنـــوده تزحف محاصرة البلاد بصورة مبدئية على يد المرحوم فيصل الدويش . ليتسنى للمرحـــوم الملك عبد العزيز ان يأتي بقوته الكاملـــة بعدما يمهد له الدويش عمليـــة الحصار .

اجل كان الأولى بأبن طلال . ان يتخذ موقف المدافع بحالة كهذه ، ولكن طيش الفتوة جعله يخرج من بلاده ليتخذ موقف المهاجم ، فخرج فعلا ونزل في قريـــة يقال لها النيصية متاخمة لقرية الجثاميـــة التي فيها الدويش ، وذهب يستعرض جنـــوده امام الدويش متحرشـــا به ، دون ان يهاجمـــه ولكن الدويش الداهية المحنك ضبط أعصابه ، متحصنـــا بقريته . بدون ان يحاول

ان يخرج منها ، فإن هجم عليه فإن بامكانه ان يدافع المهاجين ويردهم وهو من وراء جدران قريته بدون ان يعرض رجاله لمغامرة لا تعود عليهم بخير ، ولكن الامير ابن طلال ، الذي لا زال في عنفوان المراهقة لم يستطع ان يتحمل صبر الدويش الذي هو بعنفوان الكهولة . فذهب ورسم خطته الحربيـــة ، وهي خطة لم يكن فيها حل وسط . فاما ان يسحق الدويش ورجـاله واما ان يحكم بالاعدام على زهرة قومه وكانت الخطـــة تقضي بأن يختار صفوة الفتيان من مواطنيه ، بل صفوة الصفوة من الشباب المتحمسين ، فتكون مهمة هؤلاء هي ان يذهبوا ليلا الى جبل يسمى (حميان) ، فصعدوا على قمة هذا الجبل ، وعند انبلاج الفجر يهجموا على الدويش وفي حالة هجوم هؤلاء من الوجهة الأمامية للعدو ، يأتي بقية قوم الامير فيهجموا على العدو من الخلف ، فيطوقوه وعلى ضوء هذه الخطـــة التي كما سبق ان قلت لم يكن فيها « حـــل وسط » ، ذهب صفوة الفتيــان . وصعدوا الجبل . وعند انبثاق الفجر ، نفذوا عملية الخطة بحذافيرها . فأطلقوا ما في بطون بنادقهم من الرصاص ، وظلوا ينتظرون رفاقهم من خلف العـــدو حتى يباشروا الهجوم من قبلهم لكي يضعوا العدو بين الكماشة – ولكن الذي حصل هو ان القوم الذين كان من المفروض ان يهجموا من الخلف حينما يهجم هؤلاء النخبة من الامام ، هؤلاء تقاعسوا عن تنفيذ الخطـــة والسبب يعود الى عدم تكافؤ القـوة بين الصفوة الذين اختيروا للهجوم المباشر . وبين الذين بقوا ليهجموا فيما بعد ...

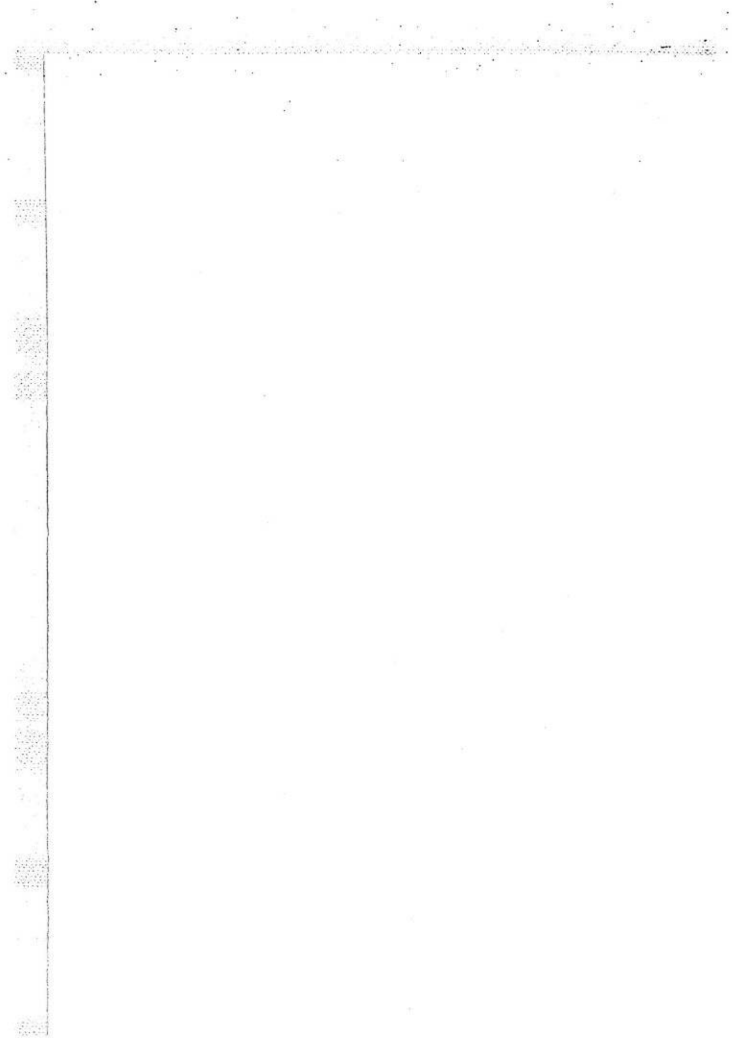
فكانت النتيجة ان العدو عندما اشرقت الشمس ووجد ان هـؤلاء الذين هاجموه لم يكن ثمة قوة تناصرهم . عندئذ هجم عليهم وطوقهم بخيله ورجاله . وكانت نسبة رجال العدو تزيـــد على نسبتهم عشرات الأضعاف المضاعفة . وشاهدنا في هذه القصة هو ان هناك فارساً يدعى « بجول العيد بن زويعل » كان ضمن الرجال الذين في قرية النصية . عند الامير ابن طلال . ولكنه عندما

السيد محمد صالح حرب



أبى الحق إلا أن أقوم لأجـــله

على الدهر في كل المواطن ثائرا



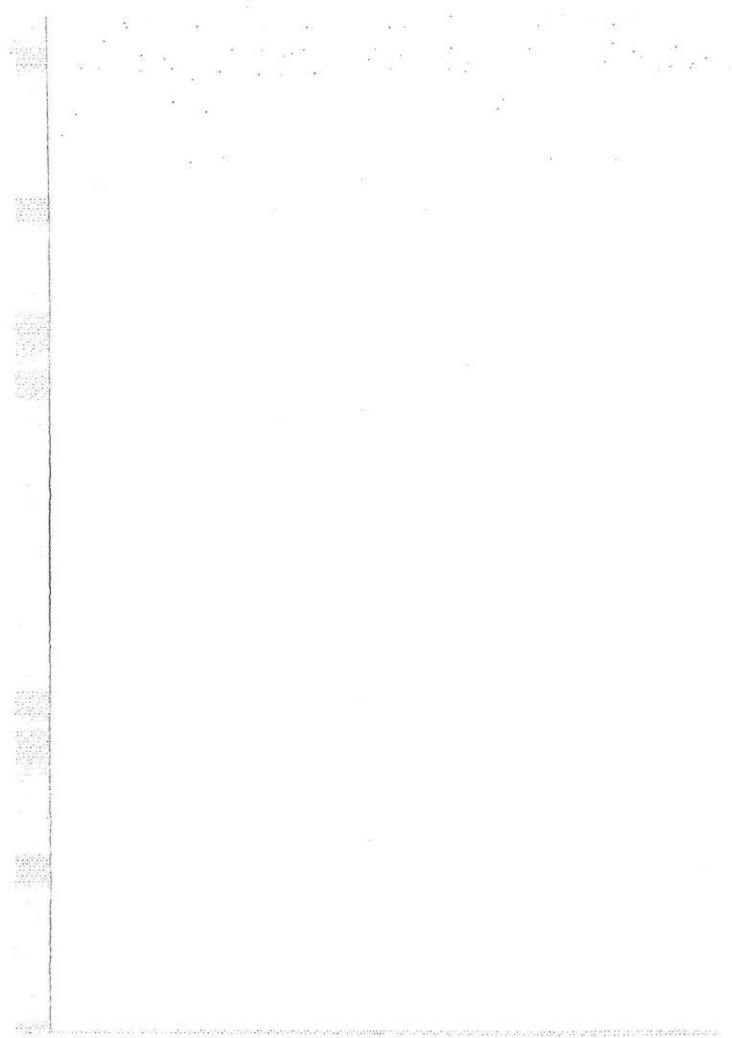
واني لأهوى الحق كالطيب ساطعا وكالريح هبابا وكالشمس ظاهرا

ستبقى لنفسي في هـواه سريرة إذا الدهر ابلى من بنيه السرائرا

وتكره نفسي أن أكون مخادعا لأدرك نفعاً أو لأدفع ضائرا

وما العجز إلا أن أكون مكاتما اذا ما تقاضتني العلى أن أجاهرا

معروف الرصافي



المرحوم الشيخ عقاب بن عجل

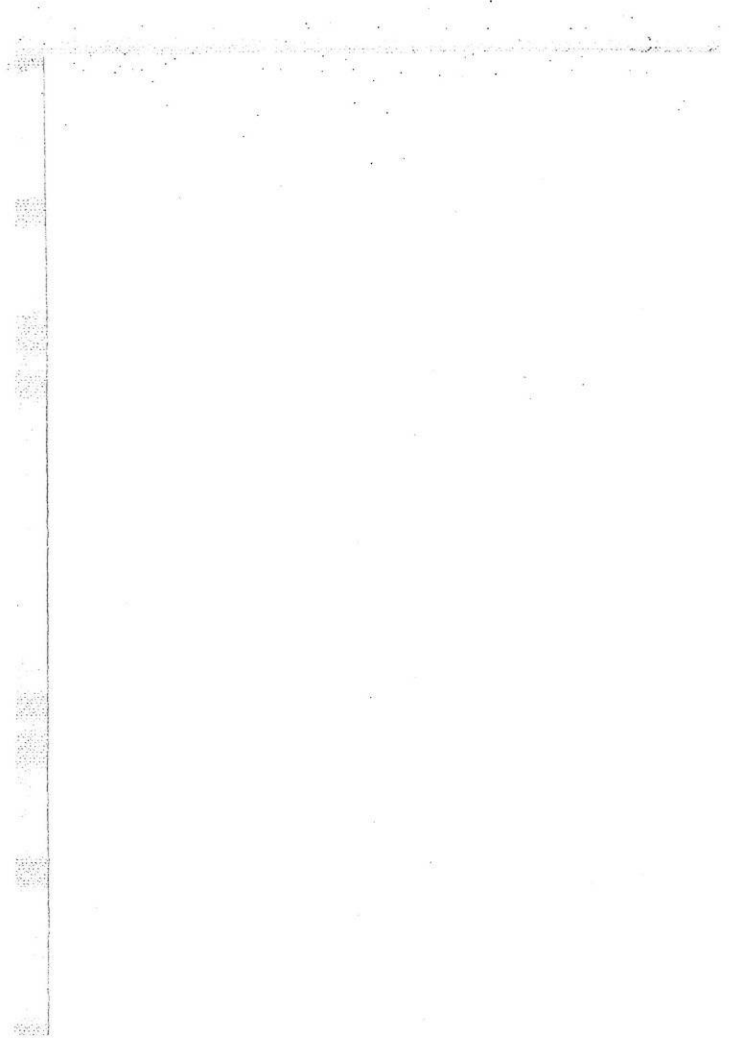


ولم يك هيابا اذا حمس الوغى

ورفرفت الأعـــلام فوق الكتـائب

مصطفى صادق الرافعي

قصة صاحب الصورة في صفحة ١٢٣٠



رأى صفوة شباب قومه سوف يذهبون فريسة للعـــدو . عند ذلك أخذته النخوة العربية ، وامتطى جواده ، وتوشح بحسامه وبندقيتـــه ، وهجم على الأعداء . . . يقاتلهم بضراوة . . قتال الفارس المغوار المستميت ، الذي قرر ان يشارك رفاقه مصيرهم المحتوم . .

فظل يقاوم ببندقيته الأعداء الذين كانو كالجراد المنتشر ، فتارة يحمي ميمنة رفاقه ، وطورا يحمي ميسرتهم . .

ولا زال يكر على أعدائـــه ولا يفر حتى خر صريعا . . . رحمه الله . .

الفصل الثالث

المرواة

تطيب له المروءة ، وهي تـــؤذي
ومن يعشق يـــلذ له الغرام

(ابو الطيب المتنبي)

أحسن الى من أساء اليه

- ٢١ -

شيء طبيعي ان يحسن المرء الى من أحسن اليه وان يكافيء صانعي المعروف بمعروف مماثل أو يزيد عليه ، كل ذلك في عالم المروءة العربية جائز بل يصح ان يقال انه فرض من الفروض التي يعاقب تاركها ويثاب فاعلها ..

ولكن المرء الذي يستحق ان ننظره بعين ملؤها التقدير والاعجاب ، ذلك الرجل الذي يعامل بالاساءة من شخص ما ، ثم بعد ذلك يقع هذا الشخص المسيء بيد من أساء اليه فيخيل لهذا المسيء ان صاحبه سوف يثأر منه بانتقام قاس .. فيكون الأمر بعكس ذلك ..

وهذا ما كان يتوقعه (عبد العزيز ابو جربوع) (١) من صاحبه : (علي بن صقر) ..

كان ذلك في عام ١٣٠٩ هـ عندما باع (أبو جربوع) حاجة ما لعلي بن صقر وبقي من ثمنها شيء ضئيل ، لا يستحق الذكر الا ان ظروف ابن صقر القاسية

١- أبو جربوع وابن صقر كلاهما من أهالي مدينة بريدة .

آنذاك جملته لا يستطيع ان – يسدّد أبا جربوع بقية دينه التافه وذلك لما يعانيه ابن صقر من فراغ اليد ..

وبينما كان ابن صقر يسير في طريقه في وسط الشارع الرئيسي لمدينة بريدة وهو في أمسّ الحاجة ، وأشد الفاقة ، سمع رجلين يشكو أحدهما لصاحبه ما يعانيه من شدة الفاقة والبؤس ، بصورة تعبر أبلغ التعابير عما يعانيه ابن صقر بالذات . وكان الشاكي يستنير برأي صاحبه ، فظل ابن صقر يسير وراءهما بصمت مخففا خطاه ، وكانت أرض مدينة بريدة الرملية تساعده على ستره لمشيته وقد ظل يسير الهوينا بخطى وئيدة خفيفة ، مصغيا لشكوى الرجل الذي يعاني من تعاسة العيش ما هو شبيه بوضعه الراهن ومنتظراً الاجابة من الرجل المستمع للشكوى بفارغ الصبر ، لكي يأخذ منه هذه الاجابة سبيلا يهتدي به لحل مشكلته المادية المماثلة لمشكلة هذا الرجل الشاكي ، وهو في مسيره هذا سمع المشكو اليه ينصح الشاكي بالأبيات التالية :

تغرب عن الأوطان في طلب العلى
وسافر ففي الأسفار خمس فوائد

تفريج همّ ، واكتساب معيشة
وعلم ، وآداب ، وصحبة ماجد

فان قيل : في الأسفار ضيق وشدة
وقطع الفيافي واقتحام الشدائد

فموت الفتى خير له من مقامه
بدار هوان ، بين واش وحاسد

كانت هذه الأبيات بمثابة نصيحة لإبن صقر لكي يتغرب ، ويترك البلاد

ولا سيا والاغتراب واقتحام الشدائد بالنسبة لأهل القصيم يعتبر شيئاً طبيعياً ، فهم أصبر أهل الجزيرة على الغربة ، واطولهم باعا بهذا الشأن ، فغيـــاب الفرد منهم عشرة ايام عن أهله وغيابه عشرين سنة سِيّان في نظرهم ، ما دام في سبيل الكدح واكتساب الرزق من طرقه الشرعية، وأغلب اثريائهم عصاميون اكتسبوا الثروة ونموها بفضل اغترابهم ، ولذلك لا يكون ابن صقر غريباً في بني جنسه فيا اذا نفذ وصية الشاعر واغترب عن اهله في سبيل طلب العلى ..

ولكن مشكلة ابن صقر انه مدين لبعض أهل بــلاده ولا يود ان يذهب الى الغربة ويغامر مغامرة لا يعلم ماذا يكون مصيره فيها حتى يوفي دينه قبل كل شيء ، وبينا كان ابن صقر مضطجعاً على فراشه في احدى ليالي الصيف في أعلى سطح منزله ، طائراً عن عينيه النوم ، غارقاً في همومــه ، حائراً في تفكيره ، في تلك اللحظة التي كان أهل بلاده غارقين في سبــات عميق ، كان صمت الليــل الهادىء يزف الى اذنيه بيتين يشدوهما بأعلى صوته رجل ممتطياً ذلوله خارجا عن أسوار البلاد ، فأصغى الى الشادي ليعرف من هو هذا ؟.. فاذا به صوت صاحبه بالأمس الذي كان يشكو فاقته لرفيقه ، فقفز من فراشه واقفـــاً ليتفهم معنى البيتين اللذين كان يرددهما المسافر المتجه نحو الجهة الغربية واللذين كان يكررهما مرة تلو المرة فاذا نصهما كالآتي :

لا خَيرْ في نَاسٍ هَلاكا(١) وذِلاّنْ
مَا يطرحُونَ أرقـابهُمْ بالـمَهافِ
أمّا تجِي بِعَقـودْ حصٍ ومَرجَانْ
وان عاضبت يَعلـهَـا الـتّـلافِ

١ ـ هلاكى : جمع هالك ، و (هلك) : معدم لا يملك قوت يومه .

الشرح :

يقول الشاعر : الا قبح الله قوماً بلغوا من الفاقة والفقر حد الهلاك ، ومع ذلك يكون لديهم من الجبن والتردد ما لا يجعلهم يقذفون بأنفسهم بالمهالك .. فأما أن يكسبوا ثروة تخولهم ان يعيشوا اثرياء سعداء ، واما ان يموتوا وفي ممات الفقير (الهالك) راحة لا ندم فيها .

عندما سمع ابن صقر هذه المعاني قرر من فوره ان لا يتردد عن السفر وترك أهله وبلاده فنام تلك الليلة نوماً هادئاً مريحاً ، ولم يفق من سباته حتى صلاة حر الشمس ، فنهض وأدّى صلاة الفجر قضاء ، وبعد ان احتسى أكواباً من القهوة كعادته ، ذهب الى النفر الذين في ذمته لهم دين معلناً عزمه على السفر ، ومؤكداً لهؤلاء الدائنين صدق نيته لتسديد ما لهم عليه من دين ، وكاتباً على نفسه سنداً لكل من في ذمته له دين بما في ذلك أبو جربوع الذي لا يستحق دينه الذكر ، وكان لحسن حظ الصقر ان هناك قافلة من أهل بريده ينوون - السفر الى العراق فباع كل ما يملك من أثاث منزله بما في ذلك عدة قهوته وفراش مجلسه كما تباع تركة الميت ، وذهب برفقة الرجال المسافرين الذين قرروا ان يخرجوا مساء من البلاد ، على ان ينتظر بعضهم بعضا في مكان معين قريب من البلاد لكي يتجهوا جميعاً بعدما يتكاملون فذهب ابن صقر قاصداً المكان المعين فوجد بعض رفاقه المسافرين كما وجد أبا جربوع ينتظره حاملاً قناته (١) الثقيلة فتكدر ابن صقر كثيراً عندما رأى أبا جربوع يشع من عينيه الغضب ، ويغطي وجهه العبوس ويحمل أكثر من معنى من معاني الشر والوقاحة ، وما ان أناخ ابن صقر راحلته حتى لصق اليه أبو جربوع وقبل ان يترك له مجالاً للتهديد والوعيد ، ويفضحه أمام رفاق السفر ، قبل ذلك قابله بكل انشراح وصافحه ، بعدما سبقه بالتحية المليئة بالوداد المصطنع فلم يرد عليه أبو جربوع التحية وقبل ان يدع لصاحبه

---

١ - القناة عصا في رأسها حديدة أو حجر .

مجالاً للحديث قبضه من كتفه الأيمن وقال :

ـ لن تسير من هنا خطوة واحـدة قبل ان تسدد ما في ذمتك لي من دين ..
قال أبو جربوع هذه الكلمة وهو يهز عصاه في وجه ابن صقر ..

فهمس ابن صقر باذن الجربوع قائلا له :

ـ سوف اعطيك حقك الآن كاملا .. وانما الذي أريده منك ان لا تفضحني بين رفاقي ، فنهره أبو جربوع بكلمة وقحة ثم قال :

ـ لو كنت تخجل او تستحي اوتحسب للفضيحة لما اقدمت على أكل حلالي ـ فهمس الصقر بأذنيه ثانية قائلا بصوت منخفض :

ـ سوف أعطيك عباءتي هذه التي هي بلا شك سوف تأتي لك بثمن يزيـــد زيادة كثيرة عما تريده مني فتبدل وجه ابي جربوع لسماعه هذا النبأ من وجهه الأول العبوس الذي يشع بالغضب والشر الى ابتسامة عريضة اتبعها قوله :

ـ هيا أعطني العباءة اسرع ، أحسرها عن ظهرك ..

ـ لا استطيع ان انزعها عن ظهري واناولك اياها بهذه الطريقة ، فهـــذه العملية فيها إحراج لي أمام رفـــاقي ، ثم مضى وقال : وانما الأستر ان تتظاهر بحركة توحي انك لم تأت إلا من أجل موادعتي ، وبعدما يتم الوداع بيننا تذهب انت من عندي ، واذا مضيت مدبراً مقدار عشر خطوات سوف أناديك قائلا : لقد نسيت ان اترك عباءتي عند اهلي فأود ان تأخذها وتسلمها لاهل بيتي، وانت بعد ذلك تأخذ العباءة وتتصرف فيها كيفما تشاء مقابل ما في ذمتي لك ..

ـ العشر خطوات كثيرة فأخشى انك تقصـد ان تركب ذلولك وتنهزم في خلال الخطوات التي حددتها لي ..

ـ اذن فلتكن خمس خطوات .

ـ لا مانع ولكن يجب ان تعلم ان هذه (القناة) سوف تنال نصيبها الوافر من رأسك فيما اذا بدا لي ان لديك نية سيئة خلاف ما قلته لي الآن ..

ـ سامحك الله يا أبا جربوع ليس عندي أية سريرة خلاف ما أبديتـه لك ، فاذهب من هنا لكي ننهي الموضوع .

ـ ها أنا ذاهب وسوف أنظر في حقيقة ما تقول ..

ذهب أبو جربوع وهو يخطو خطوات قصيرة وكلما رفع إحدى رجليه أشار من خلفه بإحدى أصابعه لصاحبه بعلامة تشير الى عدد خطاه وعندما رفع اصبعه الرابعة نظر اليه ابن صقر وإذا به ترك الاشاره وقبض على القناه بيمينه مبديا حركة تشير انه يتحفز الى ان يكر من خلفه ، فخشي ان يفضحه بين رفاقـه فأسرع وناداه فكانت كرته أسرع من سماعه للصوت وما ان عاد حتى مثلا الدور التقليدي المتفق عليه .

وعندما أخذ (العباءه) ابو جربوع عاد مسروراً ، يكاد ان يطير عن الأرض من شده غبطته وسروره .

ان بعد العسر يسـرا

ذهب ابن صقر برفقه القافلة صفر اليدين ، لا يملك درهما واحداً من المال ..

وعندما وصل بغداد راح وباع راحلته واشترى بثمنها عـدداً قليلا من الغنم يقابل ثمن ذلوله ووجد أناسا ذاهبين بغنم كثيرة العدد الى الشام محتاجـين الى من يرعى غنمهم مقابل اجرة معينة ، فقدم نفسه لهم كأجير وتم الاتفاق بينه وبينهم على جعل معين ، فراح يرعى غنمهم مضيفا اليها شويهاته القليلة وعندما وصل الشام وجد ان قيمة الغنم مرتفعة فباع التجار غنمهم بمكسب طيب بعدما قدموا له أجره كاملا ، كما باع هو الآخر شويهاته بثمن مضاعف عما اشتراها به ،

ثم اشترى بضاعة من البضائع الرخيصة الثمن في الشام والغالية في العراق وقفل راجعا فوجد لها سوقا طيبا ..

وهكذا دواليك ولم تمض على ابن صقر مدة حتى بارك الله برزقه ، فكانت الحاجة التي يشتريها بقرش يبيعها بعشرة اضعافها ، فوجد نفسه مضطراً الى ان ينفذ المثل الشعبي القائل : (الديره التي ترزق بها ألصق بها) ..

ووفقاً لهذا المثل الواقعي استوطن الرجل العراق ، وأصبح علماً بارزاً يشار اليه بالبنان فجلب أهله الى مقر أعماله التجارية الجديـــد وأصبح الرجل كعبة للوافدين من كافة ساكني شبه الجزيرة بصورة عامة، ولأهل بلاده بصورة خاصة، وما من أحد يأتي لابن صقر الا ويجد من الاكرام والحفاوة الشيء الكثير .. هذا وقد دار الزمان دورته وجاءت الظروف القـاسية التي اضطرت (أبا جربوع) أن يغترب عن أهله لطلب العيش كما اضطرت سلفه ابن صقر من قبـله الى المصير نفسه مع الفارق الكبير بين شخصية الطرفين وبين التوفيق الذي حالف الأول وعدم التوفيق الذي لقيه ابو جربوع في غربته

وصل أبو جربوع العراق صفر اليدين ، فاقـد الثقة بنفسه ، ومفقودة منه الثقة بين قومه ، لا مال بين يديه ولا أهل يأوى اليهم ، ولا ماضي يشفع له ، ولا حاضر يركن اليه ، ولا مستقبل يؤمله ، غطاؤه السماء وفراشه الأرض .

وبينما ابو جربوع يعاني ما يعانيه من فراغ ذات اليد ووحشة الغربة وسوء المصير ، في تلك اللحظة جاءه رسول من قبل صاحبه ابن صقر يدعوه للحضور لديه ، وبالنظر الى موقفه السابق مع الصقر لم يخطر له ببال ان الصقر عندمـــا ارسل رسولاً يدعوه بقصد ان يواسيه او يكرمه ، وانما خيّل اليه ان قصده من وراء دعوتـــه له ان يشمت به ويذكره بالماضي ، . و . الخ ولذلك رفض الاستجابة ولم يلبّ الدعوة ، ولما عاد الرسول الى الصقر يحمل اليـــه رفض ابي جربوع لطلبه ادرك الرجل كنه الأسباب التي جعلت أبا جربوع يمتنع عن المجيء،

ولذلك وجد ان خير طريقة تجعل أبا جربوع يطمئن الى سلامـــة نيته وحسن قصده هي ان يذهب هو بذاته اليه في (الخان)(١) الذي يقيم فيه ، فـــذهب الرجل بنفسه اليه يسير عن يمينه وعن شماله شركاؤه وموظفوه ، حتى اذا وصل باب الخان ، نادى بأعلى صوته قائلا :

– أين أخونا أبو جربوع ؟فخرج هذا ليتأكد من معرفة صاحب هذا الصوت الذي يذكر انه سبق له ان سمع صوته في يوم ما ..

وعندما أقبل على مدخل الباب الخارجي واذا به يلتقي بصاحبه وجهاً لوجه ، فأراد ابو جربوع ان يشيح بوجهه عنه ، ولكن الصقر لم يدع له مجالاً لذلــك ، حيث اقبل عليه بوجهه الأغر ، وبثغره الباسم ، فحضنه وظل يقبله ، ثم امسك بيده.وراح به الى منزله ، وعلى الفور أمر احد رجاله ان يعد له كسوة عربيــة جديدة كاملة من العباءة الى العقال .. وظل يواسيه ويسليه حتى هيـــأ له عملا يكسب منه العيش ، وبعد ذلك سلمه كيساً مليئاً من النقود وودعه وهو يردد في سره المعنى الذي أشار اليه معروف الرصافي :

وأحسن الى من قد أساء تكرماً
وان زاد بالاحسان منك تمردا
وحب الذي عاداك ان رمت قتله
فاني رأيت الحب اقتل للعدى

٢ ـ الخان يطلق على المكان الذي ينزله المسافرون ، فيجدون فيه مأوى لهم ولدوابهم ..

الطمع بالمجد لا بالغنيمة

٢٢

يذكر القارىء انني اشرت في اكثر من مناسبـــة الى ان الحوافز التي تدفع البدوي الى الغزو والنهب انما هي حوافز معنوية اكثر مما هي ماديـه .. وقد قدمت أكثر من دليل على صحة ما اشرت اليه في هذا الصدد ..

واذا كانت الادلة في هذا المعنى تتكرر دائما وأبداً فانما ذلك شاهد على صحة وثبوت ما نعنيه في هذا الشأن .

وما هذا الشاهد الذي نقدمه الآن سوى واحد من عشرات او مئات الشواهد المماثلة التي وان ـ اختلفت من حيث اللفـــظ والزمان فانها لا تختلف من حيث المعنى ..

في عام ١٢٩٥ هـ على وجه التقريب،غزا ثلة من قبيلة عتيبة قبيلة قحطـــان بقيادة الشجاع المشهور المدعو شليويح (١) .

كان القحطانيون قد سبروا غور الغزاة واحاطوا بهم علماً قبـــل أن يصبوا

---

١ ـ شلويح رئيس فخذ يسمى المطوة من عشيرة الروقة من قبيلة عتيبة . وهو بالاضافة الى كونه فارساً ذائع الصيت فانه شاعر ايضاً .

غارتهم . ولذلك كان الامر طبيعياً ان يتغلبوا عليهم ويصبح الغازي مغزواً ، وللبدو في اسلوب المقاومة والحروب الواقعة بينهم طرق متباينة ومحكة ..

ومن الأمثلة على ذلك انهم عندما يبلغ قبيلة ما الخبر بغزاة كهؤلاء عندئذ تتخذ القبيلة المغزوة من الاحتياطات المتقنة ما يوهم الغازي ان المغزوين غافلون عنه وذلك ان المغزو اذا كان واثقاً من قلة عدد الغزاة وكثرة عدد رجاله ، ومؤمناً بأنه سوف يكسب المعركة عندئذ يقوم بعملية يتجاهل بها أمر الغزاة وهي انه اي المغزو يترك ابله بالفلاة كطعم للغازي ، حتى اذا جاء هذا الاخير وصب جميع قوة فرسانه على الابل وراح كل فارس بـ (خزيزته) (١) من الغنيمة عند ذلك يكر المغزوون على الغازي الذي يكون الآخرون متفرقين كما يكونوا قد فقدوا قوة شجاعتهم الاولى وتكاتفهم في غارتهم على الابل ..

وفي مثل هذه الخطة يكون انتصار المغزو مضموناً اكثر من انتصار الغازي ...

وهكذا وقع غزاة عتيبة في قلب الشرك الذي نصبه لهم القحطانيون وعندما نهب الغزاة الأبل جاء المغزوون وهجموا عليهم ، وكان من السهل ان يستردوا منهم الأبل المنهوبة بعدما طوقوهم وفي حالة كهذه لا بد ان يحمى الوطيس بين الجانبين وتشتد الهيجاء وكان عدد فرسان العتبان اكثر مما يتصوره القحطانيون وكان وجود شليويح وصوته الجهوري من أهم البواعث التي تشجع الغزاة على عدم الاستسلام وعلى الاستمرار في القتال بعناد واصرار .. ولا غرو والحالة هذه ان تزداد المعركة عنفاً بعدما انكسرت النصال على النصال واسودت الارض واحتجب نور الشمس عن الفضاء من غبار وعجاج حوافر خيل الغازي والمغزو وتحطمت اسنة الرماح عن رؤوس فرسان كلا الفريقين وطال الكر والفر المتبادل فلا

---

١ ـ الخزيزة هي الناقة التي يختص بكسبها الفارس بمفرده . وجمعها خزايز .

ترى في الميدان الا فرساً تسحب عنانها بدون فارس ، وفارساً ملقى على الارض وفرسه صافنة على جثمانه .. وجريحاً مثخناً بجروحه ينزف منه الدم وتختنق فيه الروح .. كان ذلك بفضل تعادل القوى بين الجانبين ..

لقد ادرك الفرسان القحطانيون ان الغزاة لن يستسلموا للهزيمة ما دام ان فارسهم وقائدهم شليويح يكر وينتخي في مقدمة قومه اذا كروا وفي مؤخرتهم اذا فروا ، فرأوا ان يتضافروا عليه ومتى قتلوه أو طرحوه ارضاً هان عليهم أمر الغزاة .. وقد تعهد اثنان من فرسان قحطان بأن يصرعا الفارس شليويحا وهذان الفارسان هما سالم بن مزيد بن شفلوت وشلوان بن جلغم بن شفلوت اللذان هجما على الفارس شليويح هجوماً موحداً فالاول جاء عن يمينه والثاني عن يساره فطعناه برماحها فخر صريعاً فاختطف شلوان فرسه كغنيمة دون ان يبدي سالم أدنى معارضة في تلك الساعة لأن الذي كان يهمها هو مصرع فارسها الذي بقتلها له انهزم فرسان عتيبة مولين الادبار ..

عاد القحطانيون الى اهلهم منتصرين وان كان انتصارهم هذا قد كلفهم ثمناً غالياً من بعض فرسانهم الذين قتلوا في المعركة المتبادلة ولكنهم استطاعوا ان يعيدوا ابلهم وأكثر من ذلك وفقوا بقتلهم أكبر فارس من فرسان قبيلة اعدائهم الالداء .. وشاهدنا هنا يعود الى الفرس التي اغتنمها الفارس شلوان فقد كانت فرساً اصيلة ومن اطيب الخيل وكان للفارس ان يزهو ويعتز لا من حيث انه غنم هذه الفرس التي تساوي قيمتها وقتها عدداً كثيراً من الأبل فحسب ، بل لأنـــه بمجرد ما يقال ان فلاناً غنم فرس شليويح فهذا دليل كاف على ذيوع صيته ،وشيوع شهرته بين فرسان قومه الأدنين ، وفرسان اعدائه على حد سواء ..

هذا وقد كان الفارس الثاني ابن عمه المدعو سالم اي شريكه بصرعها للفارس يعتقد انه هو صاحب الحق الشرعي في الفرس وانه ترك الجواد تكرما منه لابن عمه وعن طيبة نفس .. وعندما بلغ شلوان ان ابن عمه يزعم ان الفرس من حقه

وانه لم يتركها الا هبة له عند ذلك ما استطاع ان يقبل ذلك فهو الاخر يعتقد ان الفرس حقٌ من حقوقه فهو البادىء بقتل صاحبها على ما يظن لا ابن عمه ... ولذلك راح ووضع الفرس عند القاضي الذي يتولى الحكم في الموضوع ..

وللبدو احكام في مثل هذه الامور دقيقة للغاية وغالبا ما تكـــون مصيبة وموضوعية ومقنعة حتى للذي يكون الحكم ضده ..

بقيت الفرس عند الحكم وذهب الخصمان الى التحكيم كل منهم يدلي بحجته وأدلته وبعدما استوعب القاضي حجتها بواسطة الشهود ، وجد ان القرائن والادلة مع شهادة الشهود كلها تفيد ان الحق بجـــانب سالم لا لان (شلوان) لم يساهم بصرع صاحب الفرس وانما لكون سالم كان هو الاسبق بطعنته للفارس.. ولهذا كانت له الاسبقية في شرعية ملك الفرس . وعندئذ امر القاضي ان تسلم الفرس لسالم فجيء بالفرس اليه ولكنه بعد ما سلمت له راح بها الى ابن عمـــه شلوان وسلمها له قائلا :

ـ ان غايتي بدعواي عند القاضي لا من اجل ان تعود اليّ الفرس وانما كانت مطالبتي من أجل ان اثبت اني الفارس الاول الذي قضى على البطـــل شليويح الذي ما استطعنا ان نهزم قومه حتى تمكنا من قتله ..

فقبل الفرس شلوان وهو يود ان تكون الفرس ملكا لابن عمه سالم على ان تكون السمعة بقتل الفارس له ، وهذا مما يزيدنا قناعة عـلى ان الغزو والكسب والغنيمة عند العرب مهما ارتفعت قيمتها من الناحية الماديـــة ، فانها ليست الا وسيلة للكسب المعنوي وليس العكس(١) .

---

١ ـ وسيلة الكسب . رويت هذه القصة من حمود العماج أحد حاشية الملك فيصل .

هكذا خلق الزعيم

- ٢٣ -

يقول بعض الحكماء ان (التغافل ثلاثة ارباع العقل) واذا كان من الضروري ان يتغافل الفرد منا فان من الواجب على أي حاكم أو زعيم ان يتغافل ويتجاهل الأمور كأنه لا يدري وان كان يدري لأنه اذا شاء ان يجعل نفسه رقيبا على هفوات قومه ، ومعاقبا لكل من تبدو منه زلة عن عمد او عن جهل او سهو ، فمعنى ذلك انه سوف يخلق لنفسه كل يوم عدواً ، وما من احد كثرت اعداؤه وفتح لنفسه جبهات من الأعداء متعددة الا وتكون نهايته الفشل لا محالة ..

والرجل الكبير في خلقه ، والعظيم في نفسه ، هو الذي تصغر في عينه الأحداث وخاصة هفوات قومه مهما كبرت كما نوه بذلك ابو الطيب المتنبي :

وتكبر في عين الصغير صغارها

وتصغر في عين العظيم العظائم

وهذا فيصل (١) بن حشر احد زعماء قبيلة قحطان وقصته وقعت على وجه

---

١ - . فيصل بن حشر رئيس آل عاصم من قبيلة قحطان وصاحب القصة هو فيصل بن حشر الاول الذي عاصر الامام فيصل آل سعود في منتصف العقد الثالث عشر الهجري لا فيصل بن حشر الذى عاصر الملك عبد العزيز في اول قرننا هذا .

التقريب حوالي ١٢٧٠ هـ .

ولئن عبرت هذه القصة على ايجازها عن شيء فانمـا تعبر لنا عن مدى ما يتصف فيه بطلها من بعد النظر وعلو الهمة وتغافله وتجاهله لعثرات قومه .

أصبح فيصل بن حشر ذات يوم ، فوجد أغلى ما لديه من الخيل قد قطعت قوائمها فتكدر طبعاً لهذا العدو الدنيء الذي جعل كيده في هذه البهيمة ، فراح يهدد بالوعيد لمن قام بهذا العمل ، كما أعطى وعداً مقدماً بأنه سوف يهب ناقة من أطيب إبله لمن يدله على من قام بهذا العمل السيء ، وما دام ان القضية فيها شيء مغر فلا بد ان يجد من ضعفاء النفوس من يتطوع بالوشاية على من قام بهذا العمل ، سواء أكان صادقاً بوشايته ام مفترياً كاذباً . والذي يهم الواشي في كل زمان ومكان هو ان يجد من يقدم له ثمناً مقابل نميمته بصرف النظر عن كونه صادقاً او كاذباً .

فجاء هـــذا الواشي الى ابن حشر يخبره بأن قاطع رجل فرسه هو فلان بن فلان ..

وما كان من شيمة ابن حشر الا ان وفى للنام بوعده ، ولكنه لم ينفذ وعيده بالمعتدي ، وكل ما قام به ابن حشر هو ان طلب من الواشي بعدما قدم له الناقة ان لا يخبر احداً بالمعتدي . فسأله الواشي مستغرباً :

– لماذا وعدت ان تهب ناقة لمن يخبرك بالمعتدي ثم تنفذ وعدك بعدما تخبر به وفي الحين ذاته تروح تطلب مني بأن أكتم الخبر بدلاً من أن تطلب مني الشهادة في حالة تنفيذك العقاب بالمعتدي ..

فأجابه ابن حشر وعلامات الجد بادية على محياه قائلاً :

– عندما نذرت ناقة لمن يدلني على المعتدي لم اكن جاداً في الموضوع لا انني اذا عرفته او شئت ان اعاقب شخصاً جاهلاً من رجال قبيلتي فهـــذا يعني انه

سوف يقع فيما بعد ما هو شر من ذلك ، اما اذا تجاهلت الأمر وان كنت عالماً وملماً به ومن ثم اكتفيت بتهديدي للفاعل فهذا التهديد والوعيد كافيان ان يدخلا في قلب المجرم الرعب والخوف ، ولن يجرؤ بعدها على الاقدام على أي عمل من هذا النوع .

يوافق فيصل بن حشر في رأيه هذا معروف الرصافي في قوله :

اذا دُفِعَ الشَّرُّ القبيح بمثله تحصل شر ثالث وتولدا
وأمست دواعي الشر ذات تسلسل مديد، وزاد الشر بالناس سرمدا (١)

---

١ - رويت هذه القصة من حمود العماج القحطاني الذي من حاشية الملك فيصل .

أفضل أن أقتل شريفاً من ن حيا واشيا ..

- ٢٤ -

يرى العربي ان الوشاية من أحط السجايا خلقا ، ولا يتحمل عارها الا الدنيء، وأما شريف النفس فانه اذا ابتلي بين أن يكون واشياً او أن يقتل شريفاً، فضل الاخيرة . وبين يدينا الآن قصة وقعت في ١٣١٠ هـ وهي تثبت صحة ما أشرت اليه بدليل لا يقبل الجدل .

وقع شقاق بين فخذين من قبيلة السهول (١) ويدعى احد هذين الفخذين بآل عميد والثاني يسمى (الظهران) وكان من نتيجة ذلك الشقاق ان وقع بينهما اصطدام مسلح راح ضحيته بطل من فخذ الظهران يدعى (فيصل المصيريع) وكان مصرع هذا الرجل من الامور التي اثارت الحزازات وأججت نار الفتنة اكثر من ذي قبل خاصة في نفوس رجال الظهران الذين كرسوا نفوسهم لأخذ الثأر من قاتل رجلهم .. ولكن الشيء الذي أشكل عليهم هو انهم لا يعرفون من هو الذي نفذ القتل في رجلهم حتى يقتصوا منه شخصيا .. ومن المعلوم ان معرفة القاتل لا تخفى على أي فرد من افراد آل عميد، وقد تحسسوا وتجسسوا وبذلوا

---

١ - السهول من بادية مدينة الرياض

كل ما لديهم من الجهد ليعرفوا القاتل ولكن جهودهم باءت بالفشل ، وبالتـــالي اتخذوا طريقة تقضي بأن يتسللوا ليلا ليحاولوا اختطاف رئيس فخذ آل حميد المدعو (حمود بن جلعود) فان ظفروا به رجوا أحد الأمرين ، إما أن يخبرهم بالقاتل بعد التهديد والتعزير وإما ان يقتلوه فيكونوا أخذوا الثأر من اعدائهم . وهكذا أبرموا أمرهم وتسللوا ليلا نحو بيت رئيس فخذ اعدائهم،وكانت خطتهم ناجحة حيث وجدوا الرجل غارقا في سباته فجاءوا بهوخيروه بين أحد الامرين إما الاعدام فوراً وإما ان يدلهم على القاتل من رجاله . فرفض ان يدلهم على القاتل فظنوا ان اصراره هذا ورفضه من أجل ان يأخذ منهم عهداً ، فأعطوه عهداً بأنهم سوف يعفون عنه بمجرد اخبارهم بالرجل الذي قتل فيصلا .. وكانت آخر كلمة نطق بها البطل هي ان قال :

– انني افضل ان اموت حراً شريفاً على ان اعيش بين عشيرتي واشيـــاً .. وكان الامر طبيعياً ان يدفع حياته الكريمة ثمناً لشرفه ووقاية لعرضه (١)!

---

١ - ومن بدهيات الامور ان النفس الابية عندما تسمو بصاحبهـــا ، وتبلغ به الذروة القصوى من الاجلال والنظمة والشمم ، فانها سوف تؤدي بصاحبهـــا الى عذا المصير الذي لقيه هذا البطل رحمه الله .

رويت هذه القصة من شخص يدعى حجاب بن حثلان من قبيلة سبيع .

« واذا كانت النفوس كبارا
تعبت في مرادها الاجسام »

- ٢٥ -

هذا البيت شامل بمفهومه لمعان كثيرة ولا يقتصر على معنى محدود ، ومن المعلوم ان المتنبي لم يقصد بكبر النفس المعنى المتبادر للعوام - وهو الكبر - فذلك شيء ليس بالمحمود ، بل وممقوت خاصة التعالي والكبرياء على الضعفاء ، وأما الكِبَرُ الذي يقصده المتنبيء فهو السموّ بالنفس عن الدنايا وعلو الهمة وعدم الاستكانه لضيم المعتدين ، والتضحية بالنفس عند تأزم الشدائد وتفاقم المحن ، كما هي الحال مع بطل هذه القصة المدعو (نايف (١) ابن هرماس) . وتاريخ هذه الحادثة عام ١٢٩٣ هـ .

كان ابن هرمس ضمن غزاة من قبيلة شمر التي اصطدمت بغزاة من قبيلة مطير ، وعندما التقى الفريقان وحمي الوطيس كانت الغلبة لغزاة شمر . وتمت

---

١ - نايف من قبيله شمر ومن عشيرة عبده وينتسب الى آل جعفر ،

العملية بأن يأخذ الغالب أسلحة المغلوب ورواحله ... كان ذلك في أول النهار ولكن ما ان جاء آخر النهار حتى جاءت غزاة من قبيلة مطير وتنازلت هي وغزاة شمر الذين كانت لهم الغلبة سابقاً ... وبعد القتـال المرير تغلبت غزاة مطير الثانية على غزاة شمر وكانت الغلبة من نوع الطريقة السابقة أي أخـذ الأسلحة والرواحل .

وكان من بين غزاة شمر شخص يدعى (عايـد ابن عجبه) هذا الرجـل (مرفوعة جنايته (١))عند قبيلة مطير ، والذي افاد الغزاة بوجود ابن عجبه بين عزاة شمر هم غزاة مطير السابقون الذين كانوا أسرى عنـد شمر فهؤلاء سمعوا من ينادي باسم ابن عجبه ولكنهم لم يصلوا الى معرفته ، وكل ما في الامر انهم أفادوا رفاقهم المتصرين بأنه يوجد بين هؤلاء ابن عجبه ، ومعنـاه ان الشخص الذي ترغب قبيلة مطير في الاستيلاء عليه بأي ثمن أصبح موجوداً بين هؤلاء الغزاة ... ولكن السبيل الى معرفته ليس بالامر السهـل ومن المستحيل العثور عليه . وكانت الطريقة التي فكروا ان يصلوا بها الى معرفـة الرجل المطلوب هي ان توسموا بوجوه القوم حتى اذا رأوا ابرزهم شخصيـة من حيث المظهر ، جاءوا به على اساس انه هو ابن عجبه ... فوقع اختيارهم على نايف بن هرمـاس ، سالف الذكر ، فجاءوا به ليقتلوه باعتباره انه ابن عجبه ، اللهم الا ان يثبت بالدليل المحسوس على انه ليس الرجل المطلوب ... وأية وسيلة يقدمها ابن هرماس مرفوضة عند غزاة مطير ما لم يدلهم عـلى الشخص بذاته ، ولكن الضحيـة أصر على عدم الاعتراف للغزاة بكلتا الحالتين ، فلا هو اعترف بأنه رجلهم المطلوب ولا هو الذي دلهم على الشخص .

---

١ - الرجل الذي يقال عنه انه مرفوعة جنايته معناه انه لا يشمله العهد ولا يجيره احد ولا تقبل له شفاعة اي انه ارتكب عند هذه القبيلة جرماً كبيراً جعل رجال القبيلة يحقدون عليه ولا يغفرون له زلة ولا يتأخرون عن سفك دمه .

فجاءوا به وشدوا وثاقه وطرحوه ارضاً ووضعوا المدية على حلقه قاصدين ان يعترف والا فانهم سوف يذكونه ، فما زاده ذلك الا تحدياً لهم حيث قال الكلمة التالية التي نقلت معناها عن عدة مصادر موثوقة كما يلي : (عليّ عهد الله لن ادلكم على رفيقي ولكم ان تفعلوا ما شئتم واياكم ان تتصوروا بأنكم اذا هددتموني بالقتل بأني سوف أجبن خوفا من الموت) ثم مضى في كلامه الى ان قال : (تزعمون انكم سوف تعفون عني فيما اذا نفذت رغبتكم وتظنون انكم منتتم عليّ بهذه الحياة الفانية بينما افضل ان تقتلوني الآن وانا ابيض العرض فهذا خير لي من أن أعيش بين قومي بعدما انفذ رغبتكم التي تستهدفون بها قتل صاحبي) ..

كان هذا الحديث من ابن هرماس عبارة عن تحريض لاعدائه الغزاة على مضيهم في قتله ، بل اعتقدوا انه هو ضالتهم المنشودة . ولم يذهبوا من عنده الا وهم يعتقدون انهم قضوا على ضحيتهم .. ولكنه رغم هذا كله شاء الله ان يحيا في الدنيا عمراً طويلاً ، ولم يتوفه الله الا بعدما بلغ سن الهرم بالرغم من ان القتلة لم يدخروا وسعا في القضاء على حياته ، ولم تأخذهم به رأفة ولا رحمة ...

ومن اوضح الادلة على ذلك ما نقله لنا الرواة بأن الرجل كان لا يستطيع ان يشرب الماء الا بعد ان يضع يده على حلقه ، واذا لم يفعل ذلك فان الماء يتسرب من حلقه ، وهذا يعني ان بعض العروق التي يجري منها الماء اصيبت بخلل من أثر الجرح الذي ناله من العدو ... ومما تجدر الاشارة اليه هو ان « عايد بن عجبه » عندما رأى الغزاة طرحوا صاحبه ليقتلوه ، جاء ووقف امام الضحية في تلك الساعة الحرجة وظل يشير الى نفسه باصبعه اشارة يؤخذ من مفهومها انه يقول : انني سامح لك بأن تخبر الاعداء بي . ويؤكد الرواة ايضا ان ابن هرماس بعدما سلم قال لقومه : انني انظر الى رفيقي ابن عجبه عندما اشار الى نفسه اشارة يريدني ان أهدي الاعداء اليه ،

ولكنني في تلك الساعة كنت قد اتخذت القرار النهائي لنفسي وحتى ولو ان ابن عجبه جاء الى الغزاة واكد لهم بأنه هو الرجل المطلوب كنت ناويا ان اكذبه وادّعي بأنني انا ابن عجبه !

---

١ - ولا يسعني حيال امثال هذه التضحية الا ان انشد مع المتنبي :

واذا كانت النفوس كباراً   تعبت في مرادها الاجسام

والقصة مشهورة .

قيمة الرجل بشخصه لا بماله

- ٢٦ -

كل منا سمع المثل القائل : (عندك درهم تسوى درهماً ، عندك قنطار تسوى قنطاراً ما عندك درهم ما تسوى درهماً) ..

هذا المثل سمعته اكثر من مرة ، وشاهدت اثره المحسوس في حياتي العملية ، وتجاربي الطويلة ، ولكنني لا أستطيع أن أقول أنه مثل واقعي يصح ان نؤمن به كقضية مسلم بها لا تقبل الجدل ، ولا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها .. فوجود المال بيد الانسان من اهم العوامل الرئيسية التي يكسب فيها المرء النجاح ، وينال بسببها الاطمئنان او ان شئت فقل عنه انه مرجّح ، ولكنه ليس مقوما .

وإذا شئت ان اعبر عنه بعبارة اصح وأوضح ، قلت ان المال كالسلاح بل هو السلاح بعينه ، والحياة معارك مستمرة وحروب طاحنة ومغامرات مفاجئة ، وامتحانات دائمة فيها كر وفر ، والذي يكسب النصر ويهيمن على المعركة ذلك الرجل الذي يملك السلاح والشجاعة معا .. وكلاهما صنوان مكمل بعضها للبعض .. وما يقال عن الشجاع إذا ادخل الهيجاء بدون سلاح بأن وجوده كعدمه ، يقال عن الجبان إذا خاض غمار الحرب وهو يملك السلاح بكامل عدته ،

وعتاده ، اللهم الا ان وجود الشجاع في الوغى ولو لم يكن معه سلاح فانه يفيد من الناحية المعنوية من حيث تحميسه وتشجيعه للمقاتلين ، ومن حيث الاخذ برأيه والاقتداء بشجاعته ، اما وجود الجبان في الهيجاء فانه مضر ولو كان يحمل ما يستطيع حمله من سلاح ، وذلك انه : اولا سوف يفر هاربا وربما يلقي سلاحه في الارض فيستفيد منه العدو .. ثانيا : سوف يكون وجوده قدوة سيئة يقتدي بها ضعفاء العزيمة من المقاتلين ، وعندئذ يتسرب الوهن حتى يصل الى افئدة الشجعان ، فتنهار الجبهة ، ويكون ساعتذاك السبب الرئيسي للهزيمة هو وجود هذا الجبان في وسط المعركة ..

هذا المثال الوجيز من الناحية العسكرية يصح ان يكون مقياسا من الناحية الاجتماعية من حيث كون المال بيد من لا يحسن التصرف به لفائدة المجتمع فانه مضر ولا شك(١) .

اذن : والحالة هذه يكون المرحوم فهد الخالد(٢) على جانب كبير من الصواب عندما قال كلمته تلك المشتقة من اسمه الخالد : (قيمة الرجُل بشخصه لا بماله) .. وهذه الجملة نقلتها عن المرحوم سويلم الشعلان(٣) عن صاحبها ، والذي يجعلنا نضعها في حقل شيم العرب ، لا لكونها حكمة يحسن الاخذ بها في كل زمان ومكان فحسب .. بل لكونها جاءت في مناسبة ذات اهمية فأصبح تأثيرها الواقعي اعظم من تعبيرها اللفظي ..

تلك المناسبة التي جاءت في عام ١٣٣٩ هـ على الشكل الآتي :

---

١ - اشرت الى هذه الناحية في مؤلفي « لمحات عن التطور الفكري في جزيرة العرب » ص ١٦١ .

٢ - فهد الخالد من اهالي عنيزة . ولكنه سكن حائل وظل فيها حتى توفاه الله حوالي عام ١٣٥٠هـ .

٣ - جاء ذكر سويلم في هذ السفر اكثر من مرة .

عندما كانت مدينة حائل محاصرة من قبل المرحوم الملك عبد العزيز بن سعود، رأى اميرها وقتذاك المرحوم محمد بن طلال بن رشيد ان يتخذ اجراءات وقائية من الناحية الاقتصادية بصورة اضطرته ان يضع ضريبة مالية على اغنياء البلاد لكي يستعين بها على مواصلة الحرب، فيما اذا طال الحصار .. وعلى هذا الاعتبار شكل الرجل لجنة من خبراء بلاده ليضعوا حسب اجتهادهم على كل فرد مبلغا منسجما مع امكانياته المادية بشكل لا يكون فيه ضرر ولا اضرار ..

وعلى هذا الاساس باشرت اللجنة عملها وصنفت أهل البلاد على الدرجات الآتيـة :

درجة اولى وثانية وثالثة .

وما تبقى من اهل البلاد يكونون جنوداً محاربين .. وعلى هذه الفئـات الثلاث تمويلهم وكل فئة من هذه الفئات وضع رجالها في قائمة منفردة .. ووكل على جباية المال نفر معين، وكان صاحب الترجمة موضوعا في القائمـة الاولى وعندما عرضت القائمة عليه ألقى بصره ووجد نفسه مطالبا بدفع مبلغ كثير من المال .. فوعد الجباة خيراً .. وذهب بنفسه الى الامير وعندما وصل اليه خاطبه قائلا :

– نحن الآن في حالة حرب ينبغي على كل واحد منا ان يكافح بنفسه الى آخر نقطة من دمه وان يجود بماله بكل ما يملك، ومضى في حديثه الى ان قال للامير والذي ألفت انتباهكم اليه الآن هو انني فهمت انكم انتخبتم لجنـة مهمتها ان تضع المواطنين في درجات متباينة وقد وردتني قائمة الان موضوع اسمي فيها ضمن اسم فلان وفلان .. ولست ادري هل ان اللجنة عندما وضعتني في جانب هؤلاء نظرت الي من حيث وضعي الاقتصادي او انها نظرتني من حيث مكانتي الشخصية ..

فقال الأمـير :

ـ بل من حيث وضعك الاقتصادي ..

ـ اذن أنا مظلوم من هذه الناحية ، لأن وضعي المالي لا يسمح لي ان اوضع بجانب هؤلاء ..

فقال أحد الجالسين قاصدا ان يقيم عليه الحجة ..

ـ بل من حيث مكانتك الشخصية ..

فقال جوابا لمخاطبه :

ـ كذلك أجدني مظلوماً ..

ـ لماذا ؟ ..

ـ لأنني أستحق ان يوضع عليّ اكثر من ذلك وأستطيع دفع ما يوضع عليّ ولو استدنت لأن الرجل في حالة الشدائد والمحن يقاس بشخصيته لا بماله ..

كلاهما فرسا رهان

- ٢٧ -

مدار بحثنا هذا حول شخصيتين كلاهما فرسا رهان ، بالفضل ، واصطناع المعروف . وهما ياسين الهاشمي (١) ومحمد البسام .

ولئن كان الاول اكثر بروزاً في الميدان السياسي العربي خاصة في القضايا العربية، فان الثاني ذو مكانة مرموقة ومنزلة سامية في محيطه ولا سيما من الناحية التجارية والاجتماعية .

ولما كانت الحروب من عادتها ان ترفع دولاً وتقضي على كيان دول اخرى ، فانها بطبيعة الحال ترفع افراداً يقال لهم اثرياء الحرب وتقضي على اثرياء آخرين.. وكان البسام من الرجال الذين حصدت الحرب العالمية الاولى كل ما بين يديه من الاموال التي لا تحصى ولا تعد . وقضت على ثروته من نقود بجدة ، واموال يشغلها في ميدان التجارة ، ومواش تذهب من الجزيرة الى مصر وسورية بصفته

---

١ - ياسين الهاشمي أشهر من نار على علم وهو الذي صار رئيس وزراء العراق في فترة ما. واما محمد البسام فهو من أشهر تجار الجزيرة العربية في عصره وهو من اهالي مدينة عنيزة وأكثر اقامته كانت في دمشق

يمتهن تجارة المواشي بعشرات الالوف من الإبل كما يتعاطى مهنة الصرافة ، فكان الرجل بوضعه الراهن آنذاك كبنك من أكبر البنوك العالمية .

ولئن قضت الحرب على كل ما بين يديه من مال حتى انه لم يبق عنده ادنى شيء من تلك الثروة الطائلة فانها ما استطاعت ان تقضي على وقاره وثباته وقوة شخصيته ورباطة جأشه وهدوء اعصابه . وقـــد ظل البسام محتفظاً بشخصيته ومعتزاً بشممه ولم يستكن للدهر ولم يبدُ منه خور ، بل جابه الخطب الجلل الذي فوجيء به مجابهة البطل الواثق بنفسه. ومن أوضح الادلة على ثبات الرجل وقوة بأسه ما نقله لنـا الاستاذ راغب العثماني (١) بقوله : بينا كان محمد البسام جالساً على مائدته التي لا تخلو دائماً من الضيوف يتناول طعـــام الغداء في تلك اللحظة جاءه أحد رجاله فقدم اليه ورقـــة فقرأها ثم طواها وبدأ مستمراً في حديثه الذي كان يتحدث به وظل يواصل قصة تاريخية بدون ان يبدو على محياه أدنى علامة من علامات الكآبة او التشاؤم ، فكأن الورقة التي قدمهـا موظفه ورقة عادية ، وكان الأحرى بالضيوف أن لا يعلم أي واحد منهم بمـا تتضمنه تلك الورقه لولا ان الموظف طاش حلمه وفقد اعصابه وراح يتحدث للناس بوعي او بدون وعي بما تتضمنه الورقة من خبر سيء .

كانت الورقة تتضمن اشعار محمد البسام بأن سبعين ألف جنيه ذهباً صودرت له بصورة نهائية بين حدود سورية والعراق .

وعلينا اولاً ان نقدر قيمة هذا المبلغ في تلك الظروف لندرك انه من القليل جداً ان يوجد تاجر في كثير من البلاد العربية لديه من رأس المال كهذه الثروة . .

وبالاضافة الى هذه الكارثة التي فوجيء بها البسام هو ان اكثر ما لديه من

---

١ - الاستاذ راغب العثماني اديب وشاعر من اهالي سورية ولا يزال على قيد الحياة في مدينة دمشق .

النقود كانت عملة روسية فصادف ان سقطت تلك العمله ولم يعد لها اي اعتبار في البنوك العالمية ..

كان من شأن هذه الخطوب والمحن التي تتابعت على البسام ان تهد كيـــانه ولكنها في الحقيقة لم تزده الا جلداً وصبراً..وقد ظل الرجل مستهتراً بالأحداث باسم الثغر أغر الوجه ناصع الجبين ، ولم يكن لتلك الاحـداث اي اثر على قوة معنويته الجبارة ..

هذا هو البسام ، اما رفيقه ياسين الهاشمي فانه كما ذكرنا اشهر من ان ينوه عنه ، لا بكفاحه واخلاصه لأمته العربية فحسب ، بل وبما يتصف به من حظ وافر من شيم العرب ..

أنهى لي راوي الحادثة الاستاذ راغب العثماني سالف الذكر ، القصة التالية :

(شاءت دولة الاستعمار الفرنسية التي كانت باسطة نفوذها على سورية وقتذاك ان تشتري لرئيس قبيلة الرولة المغفور له الشيخ نوري الشعلان بيتـاً من أحسن وأكبر البيوت الموجودة في عاصمة الامويين دمشق الفيحاء .

فعمدت لهذه المهمة المرحوم (محمد باشا العضيمي العتيبي النسب الذي لعب دوراً سياسياً خطيراً آنذاك) فنقب العضيمي عن بيت صالح للشيخ ابن شعلان فلم يجد وقتهـــا أحسن من بيت ياسين الهاشمي الـكائن في قلب دمشق فابتاعه العضيمي من الهاشمي بألف وخمسمائة جنيه ذهباً فقدمه العضيمي بدوره الى نوري ابن شعلان بأمر من دولة فرنسا التي دفعت الثمن كامـــلا للهاشمي ، وهو البيت الذي كان ينزله المغفور له الشيخ فواز الشعلان حفيد النوري وظل حتى يومنـا هذا ملكاً لاسرة آل شعلان ويطلق على الحي بكامله الآن حي الشعلان ..

والشاهد في قصة البيت ومشتراه يعود للمرحوم ياسين الهاشمي الذي عندما تسلم قيمة بيته كاملة ذهب بها وأودعها عند صديقه الحميم محمد البسام وذلك قبـل

ياسين الهاشمي



ياسينُ إنــك بالقلوب مشيّعُ   افأنت الوطن العزيز مُودّعُ
أخذوك يا بطـل المعامع غيلة   بيد الخداع ومثلهم من يخدع
ولو انهم تركوا الخداع وحاولوا   لقياك أعجزهم اليك المطمع
أوليس يدري آخذوك بأنهم   هاجوا بأخذك الخطوب وزعزعوا
ان أخرجوك من المواطن مكرهاً   فالشعب خلفك هائج لا يهجع

هذه الابيات من ضمن قصيدة قالها الشاعر معروف الرصافي بياسين الهاشمي على لسان أحد المتظاهرين في دمشق وذلك عندما دبرت حكومة الشام وقتها بواسطة رجال الانكليز مكيدتها باعتقال ياسين الهاشمي . وكان ذلك قبل دخول الفرنسيين الشام ..

سل الأخلاء عني هل صحبتهم ... يوما من الدهر الا والوفاء معي
وسلهم هل وفى لي من ثقاتهم ... حر ولم يشر في نقصي ولم يبـع
كم لمت قوميَ لا بل كم أمرتهم ... بـ ـسم داء العدا فيهم ولم أطع

محمد بن علي بن المقرب

ان تتلف امواله على الطريقة التي أشرنا اليها آنفاً ..

أخذ البسام المبلغ ووضعه ضمن مئات الوف الليرات الذهبية العائدة له . وجاءت الكارثة التي فوجيء بهـا الرجل والتهمت رأس ماله الخاص وما لديه من الودائع بما فيها ودائع صاحبه الهاشمي .

ترى ماذا فعل الهاشمي مع صاحبه البسام ؟.. لقد فعل الرجل لصاحبه من العمل الذي عبر أطيب التعبير عما يتمتع بهالرجل من نبل ومروءة جمة لا تصدر الا من شهم كريم من امثال ياسين الهاشمي.. وذلك انه لم يقف به الحد الى درجة كونه أغضى طرفه عن قضية الأمانة وتناساها بصورة نهائية وربما لولا ان محمد البسام نفسه تحدث عنها للاستاذ راغب العثماني وهذا بدوره نقلها الينا لولا ذلك لما عرف عنها احد قطعياً ..

لا لم تقف مروءة الهاشمي ووفاؤه مع صاحبه البسام الى هذا الحد فحسب بل راح يسعى جاهداً لمؤاساة صديقه بنفسه . ولم يهدأ له بال او يطيب له عيش حتى ذهب به الى وطنه العراق ومنحه جنسية عراقيـــة لكي يصبح له الحق بالنيابة في مجلس (البرلمان العراقي) .

ولما كان البسام محبوباً ومعروفاً بالجميل والفضل لا في مسقط رأسه الجزيرة العربية فقط بل وفي كافة الاقطار العربية ولا سيما في القطرين الشقيقين السوري والعراقي، فقد كانمن اليسير عليه ان يربح اصواتاً تخوله ان يكون نائباً في مجلس الامة العراقي . وقد تحقق له ذلك بعدما رشح نفسه بفضل مساعي صديقه الوفي وبفضل ماضيه السابق ..

وظل محمد البسام نائباً في عهد حكومة ياسين الهاشمي حتى توفاه الله .

السفير الذي طغت مروءته العربية على العرف الديبلوماسي

-٢٨-

اذا كان الموظف بصورة عامة مقيداً لا يملك حرية التصرف ، فان موظف السلك الديبلوماسي بصورة خاصة مقيد ومكبل بالاصفاد ، وتتضاعف نسبة القيود بقدر ما ترتفع نسبة الاحساس فاذا كان موظف السلك السياسي يرى ان وظيفته هي الغاية وهي الوسيلة معاً ، فمن يكون بهذه الصفة فانه لا يشعر بالقيود مهما ثقلت ولا يحس بالاصفاد مهما ازدادت . اما اذا كان الموظف رقيق الشعور جم الاحساس دافق المروءة فانه لا يرى الوظيفة الا وسيلة لهدف اسمى وسبباً لغاية انبل .

وهذا الاخير غالباً ما يكون معذب الضمير قلق الوجدان ويزداد ضميره تعذيباً ووجدانه قلقاً عندما يطلب منه المسؤولون القيام بعمل يخالف مبادئه التي يؤمن بصوابها فيكون وقتها بين ثلاثة امور لا محيص له من ان يلتمس واحداً منها : اما ان يفشي السر الذي اؤتمن عليه وهذا يعني انه سجل على نفسه عملية وقحة مهما حاول ان يلتمس لها وسيلة تبرر قيامه بها فانه لا يجد بقاموس اية لغة اسماً قابلاً لأن يسمى به عمليته هذه الا اسماً واحداً وهو اسم الخيانة . وهذا

عار لا يطيق احتماله من تكون الامانة طبعا أصيلا في خلقه ..

واما ان يستقيل من وظيفته وهذا شيء ليس من السهل الاقدام عليه اللهم الا اذا كان لديه مورد رزق مضمون يغنيه عن مورد الوظيفة . واما ان يبقى في وظيفته متحملا ما يعانيه من تأنيب الضمير وقلق الوجدان ، واذا قدر للموظف الدبلوماسي ان ينجو من أن لا يبتلي بشيء من ذلك فانه قد لا ينجو من الابتلاء ببعض المشاكل الاخرى ..

فمثلا هب انك تمثل حكومتك في قطر من الاقطار العربية التي يتقيد اهلها بكثير من العادات والتقاليد العربية ، وطبيعة عمل الموظف الدبلوماسي تقضي بأن لا يدخر وسعاً في اكتساب ما يستطيع اكتسابه من الاصدقاء الذين هم من نخبة أهل البلاد وأعيان المجتمع الذي يمثل بلاده فيها ..

فماذا يكون موقف الممثل الدبلوماسي مثلا عندما تسجن الحكومة مواطناً من خيرة اصدقائه بتهمة سياسية ؟.. فهل يتقيد بما يطالب به من موقف الدبلوماسي المحترف او يقوم بما يفرضه عليه وفاؤه العربي ونخوته مع صديقه في ايام محنته ؟.. فالموقف الاول يقضي منه ان يهجر صاحبه وان يبتعد عنه مهما كانت اواصر الصداقة بينه وبين المتهم راسخة وطيدة .. هكذا ينص العرف الدبلوماسي في حالة كهذه .. واما الموقف الثاني فانه يقضي بان لا يتخلى عن صديقه وان يفي معه ما استطاع وان لا يعير التقاليد السياسية ادنى اهتمام بل يضرب بها عرض الحائط عندما تصطدم مع العادات والشيم العربية ..

وهذا ما فعله الدكتور مدحت فتفت سفير الجمهورية اللبنانية في المملكة الليبية حالياً .. وهاك القصة :

كنت في سنة ١٣٨٠ — ١٩٦٠ قائماً باعمال سفارة حكومة وطني في ليبيا

كما كان الدكتور مدحت افتفت سفيراً لحكومة وطنه لبنان في المملكة الليبية ..

ومن يعرف الدكتور فتفت لا يتردد عن ان يحكم عليه بأنه رجل خفيف الروح مزدوج الشخصية .. فتجده مثلاً يبتكر النكتة في حالة المزاح ويجيدها الى درجة يوهم من يعرفه – للوهلة الاولى ان موهبته التي برزت بهذه الناحية خلقت منه انساناً لا يجيد اي شيء من الامور كاجادته للنكتة والمداعبة ... بينما تجده في حالة الجد صارماً شديداً بل قاسياً مخيفاً وهو مع ذلك سخي متلاف.. وكانت نظرتي له للوهلة الاولى محصورة في مظهره الاول ، ومقصورة على المجاملة والاستماع الى ادبه الواسع ونكته اللاذعة احياناً .. ولما كانت ظروف العمل من شأنها ان تقرب كلا منا الى صاحبه بحكم الاحتكاك والاتصالات المستمرة فقد بدأ يتضح لي بصورة جلية ان ما يبدو لنا من مظهر فتفت الخارجي ليس الا ستاراً شكلياً للجانب الثاني الذي هو الجد والحزم والمروءة التي لا حد لها والسخاء الذي يتجاوز الحد المألوف .

وعندما ادركت هذه الحقيقة تبدلت نظرتي اليه من نظرة المجاملة الى نظرة الاحترام ..

ومع مضي الايام وتوالي الأحداث عرفت ان الرجل لم يكن رجل نكتة وجد في آن واحد ، بل ورجل وفاء ونخوة لا تحول دونهما الحدود الدبلوماسية ...

جاء ادراكي لهذه الحقيقة بصورة مفاجئة وفي ظروف استثنائية وذلك عندما اعتقلت الحكومة الليبية شخصاً بتهمة سياسية وكان هذا الشخص صديقاً حميماً للدكتور فتفت وللمؤلف في آن واحد ، وكانت ظروفنا كممثلين لحكومتينا تجعل كلا منا يقف من ذلك الصديق موقف الحذر بل والابتعاد

عنه ما استطعنا .. (١)

وكم كنت اشعر بوخز الضمير لعدم مؤاساتي لصديقي في محنته ولكن القيود حالت دون ذلك وفي ذات يوم رن جرس الهاتف في مكتبي فأخذت السماعة فاذا بالمتحدث الدكتور فتفت :

– ما خبرك أبا حاتم ؟..
وكان الجواب صارما ومختصراً :
– اما ان تأتي واما ان آتيك ..

وكنت قد عرفت اسلوبه في الحديث عندما يكون جاداً في موضوع ما فيكون وقتها مختلفا اختلافا كليا عن اسلوبه المعتاد ..

ولذلك لم اتردد في اجابته :

– بل سوف آتيك ..
– متى يكون ذلك ؟.
– كما تريد .
– يمكنك الآن ..
– أجل .

– فذهبت على الفور لمقابلته في دار السفارة اللبنانية . فبادرته بالتحية فرد علي ببرودة لا تخلو من التكلف خلافاً لاجابته المألوفة ..

مرحب – بتفخيم الحروف .

---

١ – الرجل هو السيد عبد القادر العلام الذي كان وزيراً للخارجية الليبية اثناء قيامي بالاعمال

فصمت قليلا منتظراً ان يبادرني بالحديث كعادته ولكنه لم يفعل فسألته :

ـ ماذا يريد ابو حاتم ؟..

وكان جوابه التقليدي على مثل هذه الجملة :

ـ (رضاك) بتفخيم الحروف ايضاً ..

اما هذه المرة فكان جوابه قاسيا ومختصرا كما يلي :

(اعتقد ان الفرق بين الانسان والحيوان شيء نسبي) ..

قال هذه الجملة بنبرات حادة ثم صمت بدون ان يتابع حديثه وبصورة مناقضة لأسلوبه بالحديث المتواصل الصريح المرح ...

وكنت اعرف ان هناك ابياتا لبعض الشعراء اذا سمعها وهو في حالة الغضب يتحول غضبه الى ابتهاج ورضا ، وان كان صامتا يتبدل صمته الى انطلاق وتفاعل مع الابيات فيرددها بنشوة وطرب فانشدته ابياتا لمحبوبه المتنبي :

تلذ لي المروءة وهي تؤذى
ومن يعشق يلذ له الغرام

فانطلقت اساريره ولكن بصورة محدودة للغاية ..

فانشدته ثانية بيتين من قصيدة المرحوم ايليا ابي ماضي :

هذا الذي اختار الكرى تحت الثرى
كيلا يرى في (جلّق) الاغرابا

واذا نبا العيش الكريم بما جـد
حر ،أى الموت الكريم صـوابا

ثم اتبعت هذين البيتين ببيتين آخرين لعمر ابي ريشة كنت اذكر انهما يؤثران عليه تأثيرا فعالاً :

رب (وامعتصماه) ! انطلقت ملء أفواه الصبايا اليتم
لامست اسماعهم لكنها لم تلامس نخوة (المعتصم)

فما ان سمع ذلك حتى بدأ يكرر المعاني نفسها التي اشرت اليها من قليل وانما بتعبير آخر جاء فيه قوله .

(واذا تجرد الانسان من النخوة والمروءة والعاطفة فمعناه انه كالحيوان لا هم له الا العيش الهنيء والتناسل ليس الا .. ثم واصل حديثه فقال : لقد قررت ان اذهب الى بنغازي ..

قلت : لماذا ؟..

قال : من اجل ان ازور (فلان) اي صديقنا السجين .. ولكي اضع تحت تصرفه الف جنيه ..

وكنت اشعر قبل ان يبدي لي رأيه بهذا الشأن بقلق يقض علي مضجعي لعدم قيامي بواجب الصداقة امام صديقنا السجين ذلك الواجب الذي حال دون تنفيذي له القيود السياسية ، اما الان فقد تضاعف قلقي بعدما علمت ان هناك من يشاركني صداقة السجين ، وفي الوقت نفسه لديه من القيود السياسية الشيء المطابق لوضعي عينا بعين .. ومع ذلك يريد ان لا يبالي بهذه القيود وبل يمضي بما تمليه عليه شهامته ونخوته العربية ضاربا بهذه القيود عرض الحائط

فلم يسعني وقتذاك الا ان التمس احد السبيلين : اما ان احبذ رأيه هذا ومن ثم اقوم بواجب الصداقة على الطريقة التي قام بها الدكتور فتفت وهذا معناه انني سوف أتعرض لمشكلات لا يشفع لي وضعي باحتمالها ولاسيما لدي من الظروف ما هو مختلف عن وضع الدكتور فتفت اختلافا كليا .. منها ان قيامي باعمال السفارة هي التجربة الاولى من نوعها فلا اريد ان اقوم بعمل اثبت فيه جهلي بالاعمال التي تتنافى والعرف الديبلوماسي ، ومنها ان عيون الوشاة نحوي دائما يقظة .. ولاسيما وقد نالني من اسهمهم ما نالني .. والمثل الشعبي يقول :

(من قرصته العقرب يقمز عن الحبل) ..

ومنها ان وزارة الخارجية وقتها لم تكن بيد « فيصل بن عبد العزيز آل سعود» ذلك الرجل الذي عرفته بعد تجربة طويلة اثبتت لي ان الوشاية المختلقة والامور التافهة لا يعيرها اهتمامه ..

كل هذه الامور تجعلني احجم عن التماس السبيل الاول ..

يبقى عليّ السبيل الثاني وهو انني ابذل ما استطعت من الجهد لكي احول دون قيام الدكتور فتفت بهذا العمل لئلا يسبقني في هذا المضمار فأظل في حسرة مؤلمة ..

فقلت للدكتور فتفت : هل تقصد بزيارتك لصاحبنا نفعه ام ضرره ؟.

فقال : طبعا اريد مؤازرته ونفعه بأيه وسيلة كانت ..

قلت : ان قيامك بعمل كهذا يضره اكثر بكثير مما ينفعه ..

قال : اذاً ماذا نفعل امام صديقنا بمحنته هـذه .. فهل نقف منه موقف المتفرج ..

قلت : ان مصلحته الخاصة تقضي بأن نبتعد عنه خاصة ما دام انه الى الان لم يصدر بشأنه حكم يدينه بأي شيء مما يتهم به ..

قال : اذن نصبر حتى يصدر الحكم بشأنه ..

قلت : وهذا هو الافضل .

ولم اذهب من عنده حتى أيقنت انني أقنعته بعدم تنفيذه للأمر الذي ينوي قيامه به ..

ولحسن الحظ ان صديقنا خرج من السجن بريئاً من التهمة التي سجن من أجلها وبدون محاكمة وكان خروجه بعد تلك الحادثة الجارية بيني وبين الدكتور فتفت بمدة وجيزة .

ولم يكن سروري وابتهاجي على خروجه من السجن بأقل من سروري على عدم تنفيذ الدكتور فتفت لفكرته التي فعلت المستحيل حتى أوهنت عزيمته عن القيام بها .

ولست أدري كيف غاب عن ذهن الدكتور فتفت المثل العربي القائل : (ثلاثة لا يستشيرهم المرء في أي أمر من أموره : الأول الرجل الذي ينافسك على العمل الذي تريده لنفسك والثاني من يجهل كنه العمل والثالث العدو) .

واعتقد ان الدكتور لا يجهل هذا المثل كما انه لا يجهل انني من النوع الأول والحقيقة انني لا أذكر في حياتي ان أحداً استشارني وأخذ رأيي في موضوع ما الا وأخلصت له النصيحة وأحببت له الخير الذي أحبه لنفسي حتى ولو كان ضد مصلحتي الخاصة اللهم الا هذه المرة .

ولكن الذي يشفع لي في الموضوع امران : الأول انني بعدما خرج صاحبنا من السجن ذهبت اليه في منزله في بنغازي وأخبرته بما تم بيني وبين الدكتور

قتفت بل و أكثر من ذلك صارحته بأنني عندما ابديت رأيي لقتفت كنت وقتها أريد تثبيطه لئلا يسبقني بميدان لا تشفع لي ظروفي بمنافسته فيه .

ثانياً : هو انني أضفت هذه الحادثة في حقل شيم العرب لتشهد للسفير الذي شاءت نخوته العربية ان تطغى على (الروتين السياسي) لولا انني ثبطت عزيمته بحجة منطقية .

تاجر في مهنته أمير في سيرته

- ٢٩ -

السخاء والمروءة طبعان في النفس لا يستطيع صاحبها ان يحيا بدونها إلا إذا كان يستطيع الحياة بدون الغذاء والماء .

فكما ان الظمآن يتلذذ بشربة الماء فكذلك ذو المروءة يتلذذ ويطرب باغاثة الملهوف او نصرته للمظلوم ، وكما ان الظمآن إذا ازداد به الظمأ زادت لذة الماء لديه كذلك المروءة ايضاً إذا زاد العناء والنصب والاذى في سبيلها تضاعفت لذة ذويها ، وتلك ظاهرة سبق ان نوه عنها ابو الطيب المتنبي بقوله :

تلذ له المروءة وهي تؤذي ومن يعشق يلذ له الغرام

ولا بد ان نؤكد ان هناك من الاعمال والمهن التي يمتهنها المرء كمصدر لرزقه لو جاهه . ما يحتم على صاحب هذه المهنة او تلك ان يكون لديه خلق منسجم مع صفة عمله كل الانسجام ، فمثلا الجندي اذا لم يكن سخيا فانه لا يعاب بقدر ما يعاب اذا لم يكن شجاعاً . والحاكم اذا كان جاهلا بحرفة التجارة لا يعاب بقدر ما يعاب اذا لم يكن ملما بشؤون مواطنيه وعفيفاً عن المطامع المادية وعادلا في حكمه متواضعاً في سلوكه .. والسجان او الجاسوس او الجلاد كل من

هؤلاء اذا تجرد احدهم عن العاطفة والوجدان والانسانية لا يلام كما يلام الطبيب او الموظف المسؤول بوزارة الشؤون الاجتماعية اذا لم يكونا رقيقي العاطفة عامري الوجدان .. والفلاح اذا كان نشيطا ومجتهداً في حقله لا يلام فيم اذا كان جاهلا بالادب او بليداً بالسياسة او غبياً بعلم التاريخ كما يلام السياسي او المحامي فيم اذا كانا لا يفقهان شيئاً من هذه المعاني" وأخيراً التاجر اذا امسك ماله ولم ينفق منه درهماً واحداً إلا في حدود الضرورة فانه لا يعاب بقدر ما يعاب إذا كان محتالاً ماكراً لا ذمة له ..

ومدار بحثنا هنا يدور حول التاجر المحترف الذي يطلب منه ان يكون أمينا صدوقا وفيا بمعاملته اكثر من ان يكون سخيا بذالا وان كان السخاء محبوبا فاعله كما ورد في الحديث الشريف (الكريم حبيب الله وحبيب الناس) . ولكن المشكلة ان السخاء مناف لمهنة التاجر كمنافاة الشره والجشع والظلم لخلق الحاكم وكمنافاة الجبن لمهنة الجندي ، فالتاجر تضطره مهنته ان لا ينفق قرشا حتى يعلم انه سوف يكسب ضعف ما أنفقه اما اذا كان ثمة تاجراً طبعته المروءة في جبلته فانه سوف يعلن افلاسه على طول المدى فان لم يكن ذلك فهذا يعني ان هناك معجزة الهية من السماء حرسته من ذلك المصير المحتوم لكل تاجر ذي مروءة سخي امين .

ونحن هنا بصدد ذكر حادثة مروءة بطلها عربي من ساكني مدينة بريدة يدعى سليمان(١) الرميح وقد كان يمتهن حرفة التجارة وغالبا ما يتاجر بالابل وأحيانا بالخيل ، فيشتري بالجملة ويبيع بالجملة وإذا كانت تجارته ابلا فانه سوف يضطر أن يهيء عدداً من الرعاة وبالعكس اذا كانت التجارة خيلا فانه يهيء لها

---

٢ - يوجد حاليا شاب يدعى سليمان الرميح وهو مدير مطار جدة حالياً وهو ابن صاحب القصة واسم الابن الاصلي رميح السليمان وانما يدعى الان بسليمان ..

ما يسمونه (سواسا) ومفرده (سايس) وكانت تجارته هذه المرة خيلا قاصداً بها مكة المكرمة على عهد المغفور له الملك حسين بن علي وذلك حوالي عام ١٣٣٦ — ١٩١٧ وقد اصيب سواس خيله بمرض (التيفوئيد) وهم في منتصف الطريق بين مكة والمدينة وكان موسم الحج قريبا فأصبحوا محتاجين الى من ينقذهم من مكانهم الصحراوي الذي لم يكن فيه ما يؤمن لهم راحة الجلوس فضلا عن العلاج والدواء ، ولكن المشكلة تأتي في حلهم ، كيف يكون ذلك ؟ .. فهم بحالة من المرض سيئة لا يمكن اي منهم ركوب الراحلة ؟ والسيارات في ذلك الوقت لم تكن متوفرة بل ولا وجود لها في ارض الحجاز ... ايتركهم سليمان الرميح في الفلاة ؟ . هذا شيء فيه منافاة للخلق العربي الذي يعتبر ثلاثة امور من شأن العربي ان يحتفظ بها ويتفانى فى عدم اهمال واحدة منها وهي حماية المستجير والوفاء بالعهد ، واكرام كل من الضيف والرفيق بالسفر .. وهؤلاء المرضى وان كانوا سواس خيل اي اجراء عند ابن رميح ولكنهم من حيث العادات والتقاليد العربية يعتبرون رفاق سفر ... وابن رميح يدرك جيداً مسؤوليته امام هؤلاء ويشعر بها كعربي يفقه ما توجبه الشيم العربية في مثل هذه الحالة لا كتاجر ينظر الى ما يلحق به من خسارة فيما اذا اقدم على ما قام به من نفقات كلفته مبالغ ضخمة جاءت على النهج الآتي : لقد كان المرضى يقارب عددهم خمسة عشر شخصا وفي رواية انهم عشرون وقد استأجر لكل فرد منهم رجالاً يحملونه على اكتافهم بشكل تابوت او نعش مربع اي كل فرد يحمله ثمانية اشخاص يتناوبون على حمله . . ومضوا حاملين المرضى على أكتافهم حتى اوصلوهم مكة .. ولم يقف ابن رميح عند الحد الذي اوصل به رفاقه الى مدينة مكة محمولين على الأكتاف فحسب .. بل ذهب واستأجر لهم عمالاً آخرين يحملونهم بنفس الطريقة من مكة الى منى فعرفات حتى أكملوا مناسك الحج طوافا وسعيا الخ . . . فكم كلف هذا التاجر المريض الواحد من اجرة العمال مدة عشرة ايام من الصحراء الى مكة ومدة خمسة او ستة ايام من مكة الى ان ادى مناسك الحج ؟ . . كم كلفه ذلك فيما اذا قدرنا ان

عددهم خمسة عشر شخصا وكل شخص مقدر له ثمانية من العمال واجرة العامل الذي سوف يسير على أقدامه متنقلا بالحمولة لا تقل عن عشرة ريالات وعلى القاريء ان يحسب عدد المبلغ بكامله الذي دفعه ابن رميح فى هذا السبيل وعلى القاريء أيضاً أن يذكر ما أشرنا اليه في مقدمة البحث بأن السخاء والمروءة اللذين يصلان بصاحبهما الى مثل هذه الأعمال ، مضران بمصلحة التاجر ، ومتنافيان كل المنافات مع طبيعة عمله ... ولا شك أنه عندما يكون التاجر سخياً ذا مروءة فان سخاءه ومروءته سيكونان على حساب تجارته بل على حساب رأس ماله الأساسي ، وهكذا كانت النتيجة التي سيلاقيها سليمان الرميح ، بل التي لاقاها فعلا ، لأن الرجل لو لم يكن اصطدم بهذه الحقيقة أي ضياع ماله كتاجر بسبب سخائه ومروءته لولا ذلك لأصبح الآن لديه من الأموال النقدية والعقارات الوافرة الشيء الكثير لأنه عريق في امتهان التجارة . وصاحب الترجمة الآن يقضي بقية حياته في مدينة جدة وقد زرته في عام ١٣٨٣ هـ . هذا في منزل أبنائه فوجدته شيخاً هرماً مقعداً قد فقد بصره ولا يسمع إلا ببطء ولكنه محتفظ بحواسه كاحتفاظ التاريخ له بما أسداه (من شيم العرب الخالدة) ..

ورحم الله المتنبي حينما قال :

لولا المشقة ساد الناس كلهم　　　الجود يفقر والاقدام قتال

الفتى الذي لم تغيره المناصب

- ٣٠ -

كنت في دمشق عاصمة الأمويين عام ١٣٦٨هـ الموافق عام ١٩٤٨م وكان عملي كمؤسس لفوج المتطوعين السعوديين المتصل اتصالاً عسكرياً برئيس أركان الجيش السوري المرحوم الزعيم حسني الزعيم يجعلني أتعرف على الكثير من قـــادة الجيش السوري البارزين وخاصة الذين يعملون في الأركان كرئيس المكتب الأول والثاني والثالث الخ .. وكان لي مع بعضهم صداقة ومع البعض الآخر معرفة فقط ..

وكانت معرفتي بذلك الضابط الفتى في بداية الأمر معرفة عابرة ولئن عجزت عن كشف شخصيتـه في اول الأمر فانتنـــي لم اعجز عن معرفتي . له على الوجه الأكمل بصورة واضحـــة جلية فيما بعـــد . ولكن معرفتي له السابقة كانت كما أسلفت ضئيلة جداً لا من حيث ما يتمتع به من مكانة اجتماعية بين رفاقه العسكريين ، فحسب بل كنت جاهلاً بمعرفة ما طبعت عليه نفسه

من السجايا الأصيلة من مروءة ووفاء ونبل . الأمر الذي جعلني انظر الى ذلك الفتى نظرة أقل مما يستحقها بكثير ، ولعـــل بشاشته وابتسامته الدائمة التي تتجاوز الحد الوسط جعلتني أظن أن هذه المجاملة مجرد استهلاك محلي عارياً عن الجد والخلق الأصيل .

وفي اول يوم للانقلاب الأول الذي قـام به الزعيم حسني الزعيم في ١٩٤٩ وقف ذلك الفتى خطيباً فوق عتبة الباب الخارجي للبرلمان السوري امام حشد كبير من المواطنين ولا اذكر الآن شيئاً من الجمل التي فاه بها وانما كان خطابـه على وجه العموم معبراً عن واقع الانقلاب وأهدافه من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان الفتى يوحي بخطابه للمواطنين بأنه الممثل لقائد الانقلاب .. ولما كان الموقع الذي اختاره لخطابه موقعاً حساساً كما ان الظرف الذي ألقى فيه الخطاب اكثر حساسية ..

فقد كان الأمر طبيعيـــا ان تتجة الأنظار نحو الضابط الخطيب الذي كان يحمل (ثلاث نجمات) وأن تترامى نحوه حروف الاستفهام ولا شك ان ذلك اليوم كان أول يوم عرف به الجماهير اسم ذلك الفتى المتدفق حيوية .. إما بالنسبة إليّ فقد تبدلت نظرتي اليه لا من تلك الساعة التي ألقى فيها خطابه وانما بمناسبات أخرى جاءت فيما بعد .. ولكن تبدل نظرتي هذه كانت محصورة على ناحية معينة وهي ما يتمتع به من مكانة محترمة بين رفاقه العسكريين .

اما الناحية الجوهرية التي هي الأصل الأساسي في خلود ذكر المرء فقد ظلت خفية عليّ الى مدة تزيد عن خمس سنوات .. ولا عجب فـذيوع الصيت وبروز المرء من السهل معرفة صاحبه خاصة عندما تتاح الصدف المفاجئة التي يبرز بهـا الرجال المغامرون كالانقلابات العسكرية التي برز بها رجال لم يعرفهم من قبـل الا ذووهم الأقربون ، ولكن الشيء الذي ليس من السهل معرفة كنهه هو اسرار النفس الخفية ، وخلق المرء الكامن الذي يصعب علينا معرفته اللهم الا عندمـا ينال المرء منصباً رفيعا فان ذلك يكون ادعى الى معرفة ذلك السر المتواري .



الشيخ سليمان بن دميج

لولا المشقة ساد الناس كلهم
الجود يفقر والاقدام قتال
المتنبيء

الشهيد عدنان المالكي



« وحسبك أن تَلْقَى المنايا وقد رجت
حباك الموالي ، واتقت باسك العدا »

ولا عاش من يرضى الدنايا أهل ترى

جبانا على مر الزمان مخلدا

وسر في طلاب المجد جداً فإنني

رأيت المعالي لا يؤاتين قعدا

محمد علي بن المقرب

هذا وقد مضى الانقلاب السوري الاول والثاني والثالث دون أن ينال الفتى مكانا يشار اليه بالبنان ، وفي خلال عهد صاحب الانقلاب الثالث العقيد أديب الشيشكلي أدخل الفتى غياهب السجن بتهمة سياسية وخرج من السجن دون ان تلين له قناة ، بل كان أمضى عزيمـــة مما كان من قبل ... وظل يترقب الاحداث عاريا من صفته العسكرية التي جرده منها العقيد الشيشكلي ، وما ان جاء الانقلاب الرابع حتى أعيد الفتى الى الجيش لا بترقيته الى رتبة عقيد فحسب ، بل الى منصب معاون رئيس الاركان ... والواقع انه وأن كان من حيث الاسم معاونا لرئيس الاركان ولكنه من حيث الواقع العملي كان هو رئيس الاركان الفعلي حيث التف حوله وآمن به جميع الفتيـــان المخلصين البواسل من ضباط الجيش السوري وكان رئيس الاركان وقتذاك يتمتع بسلطة رئيس حكومة لا بالنظام البرلماني بل بالنظام الرئاسي .

وكنت أظن أن طيش الفتوة ، وعنفوان الشباب ، وشراسة الجندي ، وغرور السلطة ، وزهو العلم كل هذه المعاني التي تجمعت بالفتى كنت أظن انها سوف تخلق منه انسانا متعاليا ، فظا ، غليظ القلب ، متلبــد العواطف ... ولكن سرعان ما أخلف ظني حينما جاءت المناسبة التي أود ان أشرح ظروفها كما يلي :

سبق أن ذكرت أن ظروف عملي في قيادة الجيش السوري في عام ١٩٤٨ كانت من أهم الأسباب التي هيأت لي الصلة ببعض القادة ، وكان أول ضـــابط تعرفت به المرحوم العقيد محمد ناصر قائد سلاح الطيران السوري الذي اغتيل غدراً في آب ١٩٥٠ في أول عهد الشيشكلي وكنت كلمـــا دنوت من ناصر ازددت به اعجابا وتقديراً حتى اصبحت الصداقة بيننا متبادلة راسخة ... وعندما قتل بطريقة لم تكن شريفة كان الفقيد يعول اربعة أطفال فيهم ذكر واحد والبقية اناث . والكبير من أبنائه لم يبلغ الثالثة عشرة ، وكان وضع

هؤلاء الايتام وامهم الثكلى يرثى لهم من الناحية المادية .. وقد رأيت ان من واجبات الوفاء لصديقي الشهيد ان أواسي ابنـــاءه ما استعطت ... وكنت أشعر ان هناك ضباطاً ومدنيين من أصدقاء الراحل يشاركونني بذلك الواجب وخاصة في الأيام الأولى للمصيبة ، ولكن الذي لاحظته فيما بعد انه كلما امتدت الأيام بعداً عن مصرع والدهم تقلص عدد الزائرين لأطفاله اليتامى ، من اصدقائه السابقين ، ولم أترك ملاحظتي هذه تذهب سدى ، بل ذهبت اسأل حرم الفقيد عن اولئك الأصدقاء هــل ظلوا مستمرين على وفائهم ؟.. أم انهم تقاعسوا بعد ما رأوا ان السبيل طويل ، وان المثابرة على مشقة الوفــاء تحتاج الى جلد وصبر وخلق أصيل ؟.

فأجابتني الثكلى قائلة : كل اولئك النفر انقطعوا اللهم الا ذلك الفتى الوفي العقيد عدنان المالكي ، الذي ظل يواسيني بدون انقطاع ، ويلبي طلبي بكل رحابة صدر ، ويستجيب لندائي في أي وقت كان ، ولقد استغربت ذلـــك فذهبت امتحن صحة قولها فقلت لها : لقد ذكرت ان الفتى يلبي نداءك في أي وقت كان .. فهل يمكن ان أراه غداً في منزلكم ؟.. فقالت : أجل انه اعطاني وعداً أكيداً ان لا يرد لي طلباً يستطيع القيام به وأنه قد أعطاني رقم هاتفــه الخاص لأطلبه هاتفياً في أية لحظة كانت ، وانه سيحضر عندي فيما اذا بدت لي حاجة تستوجب حضوره ، ثم أردفت قائلة : أي وقت تريــد الاجتماع به ؟.. فقلت غداً مساء في الساعة الخامسة .. قالت وهو كذلك .

وما أن جاء الوقت المعين حتى رن جرس الهاتف فأخذت السماعة مستفسراً فاذا بها حرم المرحوم أم نضال تؤكد لي وجود الفتى في منزلها..

فذهبت فوراً فوجدت الفتى في ذلك المنزل المتواضع .

والحقيقة انه كبر في عيني وأعجبت بنبله ومروءته أعجابا الزمني ان أسجل له هذا الخلق الكريم في حقــل شيم العرب الخالدة ، واني لأذكر جيداً تلك الكلمات التي بادرته بها وكان متجاوبا معي في قبولها .

لقد قلت له : (انني سألت هذه الارملة الثكلى عن اصدقاء بعلها الأوفياء الذين ظلوا يتعهدون مواساة أبنائها الايتام ... فأجــابتني بأن ذلك الرصيد الوافر من أصدقائه بدأ يتلاشى حتى نفد نهائياً ، وان رصيدها الذي لم ينفـد ولم يتبدل من جميع اولئك العدد الكثير هــو انت يا عدنان فقط .) ثم استطردت قائلا : (يقول حكماء الأدب : (اتق السكرات الثلاث : سكرة الشباب ، وسكرة السلطة ، وسكرة العلم) (١) ... وها أنت قد توفرت فيك هذه المغريات الثلاث بكاملها ، وان دل وفاؤك لهؤلاء الأيتام ، وتلبيتك لنداء امهم الثكلى التي انهك قواها الحزن والبؤس حتى طواهــا الهرم الذي حنى ظهرها ، وجعد وجهها ، ان دل ذلك على شيء فانما يدل على ان تلك المغريات الثلاث التي حذر عنها الحكماء لم تخدعك واحــدة منها) . وقد ختمت حديثي مع الفتى الوفي المتواضع بقولي : (لا شك في انك الآن تتمتع بنفوذ لا يضارعك به أحد في ســورية كما انني لا اشك بأن هنــاك من يغبطـك ، بل ويحسدك على منزلتك هذه ، ولكنني شخصياً لا أغبطك على سمو منزلتك هذه لاعتقادي انها عارية لا دوام لها ، ولكن الذي اهنئك به واغبطك عليه هو ما تتمتع به من خلق اصيل،ولهذا الخلق الوفي وحده ومن اجله أود ان أربط معك اخوة عربية صادقة علماً بأنني قد أجد الكثير من ذوي المنــاصب الذين بامكاني ان اكسب صــداقتهم ولكنني قل ان أجد الصــديق الوفي الذي ادخره للنائبات وغوائل الدهر) .

وقد أبدى الفتى رحمه الله موافقته وتأييده لطلبي ... ومن يومها بدأت الأخوة والمودة تزد د رسوخاً بيننا ، وكان الأحرى بها ان تزداد رسوخاً اكثر

---

١ - كان المرحوم عدنان ركناً مجازاً .

فأكثر لولا ان يد الغدر اغتالت ذلك الفتى النبيل الجريء في ٢٩ شعبان ١٣٧٤هـ الموافق ٢٢ نيسان عام ١٩٥٥ ، وفي الوقت ذاته جبن الغـــادر عن مواجهة الرأي العام العربي بقلب بريء سليم ، وجبين ناصع ، فما وسعه بعد تنفيذه لجريمته الدنيئـة الا ان اغتال نفســه فوراً استجابة لنـداء أبي الطيب المتنبي حينما قال :

كفى بك (عاراً) أن ترى الموت شافيا

وحسب المنــايا أن يكنْ أمانيا

كان آخر عهدي بالمرحوم محادثة هاتفية تمت بيني وبينه وذلك قبيل مصرعه رحمه الله بيوم وليلة فقط ... وكان الطلب مني وكان الباعث لطلبي إياه أمراً على جانب كبير من التعقيد المزدوج يتلخص بما يلي :

اتهمت الحكومة السورية وقتذاك نفرا من العسكريين المتقاعدين بالقيـــام بمؤامرة ضد الحكم القـــائم ، وزج بالسجن بعضهم ، وهرب البعض الآخر . ومن بين المتهمين المسجونين المقدم المتقاعد بشير الحواصلي ، وبشير هـــذا كان الآمر للفوج السعودي وكنت المعاون له ، وعلى هذا الاعتبار أصبح تربطني به زمالة وصداقة . وقد رأيت ان واجب الصداقة والزمالة ان لا اتخلى عنه في محنته هذه ، فأقل ما يمكن ان افعله معه هو ان أزوره في سجنه ... ولكن المشكلة التي سوف اصطدم بها لا محالة هي انني علمت ان التهمة الموجهة لبشير ذات صلة مختلقة بحكومتي . ومعنى ذلك ان زيارتي للسجين سوف تزيـــد التهمة أكثر مما كانت عليـــه ... مع يقيني الراسخ بأن المتهم لم يكن له بحكومتي اية صلة ، وان العدالة سوف تبرىء ساحته كما وقع ذلك فعلاً في النهاية حيث اخلي سبيـله ببراءة شرعية ، ولكن هـذا لا يمنعني من تقديري لمضاعفة التهمة المختلقة على السجين فيما اذا زرته في سجن المزة .. ولقد فكرت

طويلاً بين زيارتي السجين التي تضره اكثر مما تفيده ، وبين هجرانه والتخلي عن صديقي وهو في اوج محنته ... ولئن كانت الاولى لا تأتي الصديق بخير ، فانني اشعر بأن الثانية مؤلمة لضميري وطاعنة لوفائي ، وبالتالي وجد. اسارح صاحبي الفتى بالحقيقة المجردة من كل غموض .

فخاطبته هاتفياً بما يلي :

(لا شك بأنك تعلم يا عدنان بأن المقدم المتقاعد بشير الحواصلي كان يوماً من الأيام آمرا للفوج السعودي ، وكنت معاوناً له فـترة من الوقت فأصبح والحالة هذه بيني وبينه زمالة وصداقة وهو اليوم رهين السجن) ثم استرسلت وقلت (ولست أسأل كيف سجن ؟ .. أو لماذا سجن ؟.. ولكن الذي يهمني هو ما أجد نفسي به من وضع حرج مزدوج بـين واجب الزمالة والصداقة الذي يفرض علي ان لا أتخلى عنه بمحنته هذه ، وبين ظروف السجين ووضعي السياسي الذي يحمل من زيارتي له مضاعفاً لتهمته وتأويلاً مصطنعاً لا مبرر له). وختمت حديثي الهاتفي بقولي وما عليّ الآن الا ان أترك لـك الأمر لتكون حكماً في الموضوع على ان تضع نفسك في محلي ثم تختار لي احدى الحالتين : امـا اقتحام العقبة السياسية او التجرد عن التقاليد والشيم العربية .

وما ان انتهيت من حديثي حتى أجابني الفتى الشهم بهذه العبارة. حرفيـاً بقوله : (أولاً أحيي فيك هذه الروح العربية) مكرراً هذه الجملة أكثر من مرة ثم أردف قائلاً : (انني عازم الآن على الذهـاب الى لبنان وسوف أعود غداً وعندها سوف أبلغ الجهات المختصة بأن تسهل لـك الزيارة للسجين والاتصال به في أي وقت تريد بدون تقيد) .

فشكرت الفتى على مروءته منتظراً عودته وواثقاً بصدق وعده .. ولكنه لم يعد الى دار الفناء بل ذهب الى دار الخلود ، وان تمثال عـدنان الرمزي في قلب عاصمة الأمويين لدليل ناصع على خلود ذكره الأبدي .

كنت أروي هذه الأحاديث عن شمائل عدنان على مسمع من بعض اخواننا السوريين وعندما انهيت حديثي اسمعني أحد المستمعين قصة أخرى عن الفقيد فقال : في تلك الأيام التي كان عدنان المالكي هو صاحب الكلمة الأولى في سورية خاطبه بالهاتف في مكتبه مواطن دمشقي ، يمتهن تجارة الأقمشه يدعى (نعيم القوادري) يطلب منه تحديد فرصة لمقابلته ، وقد أوضح له التاجر بأن لديه مظلمة يود ان يرفعها له ، ويزيد الراوي تأكيداً بأن الفتى قال لمحدثه : ما دامت القضية فيها مظلمة فانه ليس من العدل ان يكون تحديد الزمان والمكان من قبلي كما انه ليس من الانصاف ان أتركك حتى تأتي اليّ بل الواجب يفرض عليّ كحاكم ان آتي بنفسي لنجدة المواطن المظلوم كي أنصفه من ظالمه . وما كان من أمر الفتى الا ان ترك مكتبه وذهب فورا الى القوادري بائع الأقمشه ليصغي الى شكواه .. ولم يعد من عنده حتى أيقن المظلوم بان الفتى اهتم للقضية ، وأنصفه .. وفعلاً كانت النتيجة هي انصاف التاجر وإعادة الحق الى نصابه .

وبالرغم من أنني لا استبعد وقوع مثل هذه النجدة من عدنان خاصة بعد ما اختبرته وعرفت ما يتمتع به من مروءة جمة وشيم عربية ، لا حصر لحدودها ، بالرغم من ذلك فقد رأيت الا أسجل هذه الحادثه الأخيرة على علاتها حتى اذهب بنفسي للطرف الثاني اي (نعيم القوادري) واستفسر منه مفصلاً وذلك وفقاً لما انتهجته في تسجيلي للأحداث في كتابي (من شيم العرب) الذي لم أصغ في حقله حادثة ما حتى أتحقق من صحتها ثم اقتنع بأنها حقيقة ولا يخالجني شك في صدق حدوثها .

وفي أول شهر صفر ١٣٨٣ الموافق ١٠ يوليو ١٩٦٣ ذهبت الى سوق الأقمشة في دمشق أسأل عن نعيم القوادري فهداني المرشدون الى دكانه الكائن في آخر سوق الحميدية ، فوجدت شيخاً ربما كان في العقد السادس من عمره قوي البنية ،

وقور المحيا، فبادرته بالتحية فرد عليّ بمثلها ، وقد كنت حائراً في سؤالي له خاصة بعد ما شعرت بأنه سر بزيارتي ، معتقداً انني (زبون) سوف يأخذ منه صفقة تجارية رابحة ، ولكن سرعان ما خاب ظنه بي عندما أدرك من محادثتي له انني من هواة الأدب ، ولا عجب لأن الفرق بـــين ميول الأديب واتجاهاته الخيالية وبين ميول التاجر وتصرفاته المادية الواقعية فرق لا يقل في مساحته وبعده من بعد المشرق عن المغرب ، ولذلك لم استغرب أبداً عندمـــا قال لي (القوادري) لست فارغاً الآن لأسرد لك الحادثة بتفاصيلها .. قـــال ذلك بعدما استفسرت منه عن صحة الحادثة..ولكن الحقيقة انني بعدما شرحت له قصدي وأوضحت له غايتي من سؤالي هذا ، وبعدما أقنعته بأنني أريد أن أتثبت من صحة الرواية لكي أضعها في سجل شيم العرب عند ذلك أقبل الرجل نحوي مبتسماً وقـال : ان الحادثة من حيث الأصـل ثابتة ولكنني نسيت تفـــاصيلها لبعد الوقت الذي أسدل ستاره عليها .. فقلت : أستطيع أن أروي لك الحادثة على الطريقة التي نقلتها من الراوي ، فان كان فيها ما يخالف الحقيقة فأود ان تنبهني فذهبت أسرد ما رويته من الحادثة كما وردت آنفاً من الفها الى يائها ، وكان الشيخ ينصت وكأنه يستعيد ذاكرته من جديد وعندما انتهيت عدت أوجه اليه السؤال التالي:

أحقيقة ما سمعت مني؟.. فأجاب الشيخ بنعم وهو يبتسم .. فقلت اما عاد الى ذاكرتك شيء من تفاصيل الحادثة وعن كنهها ؟.. فصمت قليلاً ثم قـال : الذي أذكره الآن هو ان هناك ضابطاً قد استأجر منزلاً لنـــا وقد انتهى العقد المحدد بيني وبين الضابط بعد ان نالني من الأذى بواسطة إسكانه العناء الكثير ، وحاولنا ان نخرجه من المنزل ولكنه رفض الخروج وعندئذ اضطررت ان أرفع الأمر لعدنان ، لينصفني من هذا الضابط الذي يريد ان ينزل في مسكني بدون موافقتي ، معتمداً على نفوذه العسكري .. فما كان من أمر عدنان الا ان أرغمه على اخلاء المنزل حالاً .

ولكي أثبت صحة الحادثة بأدلتها وشواهدهـــا قلت للقـوادري أتعرف

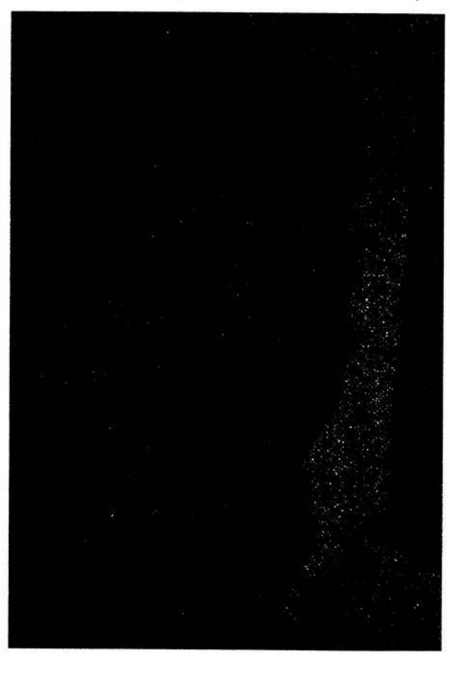
اسم الضابط قال نعم اسمه (حسن القصاب) .

وهكذا تكون المناصب عونا لإبراز مواهب الرجال الشرفاء كهذا الفتى ، وشاحذة لمروءتهم ومعبرة عن صفاء نفوسهم ، وسلاحـــا بأيديهم مصلتا على الظالمين ، وحصنا منيعا في حوزتهم لنجدة المظلومين ، كما انهـــا تكون اي المناصب لعنة تاريخية على اللئام الأدنياء الذين يستغلونها لأنفسهم ، ويسيرون كل ما يملكون من طاقة في سبيل مصلحتهم الذاتية حتى ولو كانت مصلحتهم هذه لا تتم الا على حساب ظلم العدد الوافر من المواطنين الأبرياء .

اما هذا الفتى فقد كان من النوع الأول الذي اتخذ من وظيفته قـوة يستعين بها للأخذ بيد المظلوم وسيفا مصلتا على الظالمين ولم يسخر وظيفته لمصلحته الخاصة قط .. وكنت أذكر على سبيل المثال حادثة بسيطة تعبر أصدق التعبير عن نزاهة الفتى وأمانته .

كنت اذكر الحديث النبوي القائل : (تهادوا تحابوا) وكنت اذكر ايضا ان النبي محمداً صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية ويكافيء عليهـــا .. ولذلك انتهزت مناسبة عودتي من اجازة قضيتها في الجزيرة فأعددت هدية رمزية قاصداً ان أقدمها للفتى عملاً بالحديث الشريف سالف الذكر ولكنني قبل ان أقدم على ذلك وجدت من الأنسب ان أخبر صـــديقي لكي لا أحرجه أو يحرجني وبعد سلام السفر أخبرته فابتسم ضاحكا كعادته ثم قال : انا أقبـــل هديتك كصديق على شرط ان تحتفظ بالهدية كأمانة عندك الى أجل غير مسمى .. فقلت ولماذا لا يكون الأجل مسمى .. قال : لأنني مقسم سراً بيني وبين نفسي بأن لا أقبل من أي انسان ، أدنى هدية ما دمت أشغل منصبي هذا .

قلت وقد تضاعف اعجابي به واجلالي له: تكون يمينك هذه محصورة على من يحمل جنسية بلادك الذين قد تضطرهم ظروف خاصة لمراجعتك لقضاء حوائجهم .. فابتسم ثانية وقال : انه لم يستثن أحداً .



عدنان المالكي عندما كان سجيناً

قالت حُبِسْتَ فقلتُ ليسَ بضائرٍ
حَبْسي وأيُّ مُهنّدٍ لا يُغْمَـــدُ

والحبسُ ما لم (تَغْشَهُ) لِدنيّةٍ
(شَنْعاءَ) نِعم المَنْزِلُ (المتوَرِدُ)

بيتٌ يُجدِّدُ للكَرِيم كرامــةً
ويزار فيـــه ولا يَزُورُ ويَحفَـدُ

علي بن الجهم

فودعته وأنـــا أتمنى ان يقسم كل مسؤول وكل موظف في جميع الدول العربية هذا القسم .

والعجيب في امر هذا الفتى هو ان النبل لم يفـارقه حتى في اللحظة التي كان يلفظ بها نفسه الأخير فيقال : انه عندما أطلق الغادر رصاصته على رأسه وسقط من الكرسى يسبح بدمـــه كان آخر كلمة نطق بها قوله : (سامحك الله) يقصد القاتل .

***

تنافس بالمروءة

- ٣١ -

لئن كانت الحروب القبلية قائمة على قدم وساق منذ العهد الجاهلي في جزيرة العرب ، فانها في أوائل القرن الهجرى الحالي ، واواخر القرن التاسع عشر الميلادي . قد بلغت اوجها بين قبائل شبه الجزيرة . وثمة قبيلتان في جنوب الجزيرة ، كان التنافس بينهما على العلاء مستمراً ، والغزوات المتبادلة قائمة بين هاتين القبيلتين ، على قدم وساق ، والحرب بينهما سجال — وهما قبيلة قحطان وقبيلة عتيبة — وكم وقع بينهما من الغزوات والمعارك ، وكم قال الشعراء من كلتا القبيلتين من القصائد الحماسية البعيدة عن الهجاء المقذع — وبالرغم من أن الغزوات والحروب التي استمرت زماناً طويلاً بين عتيبة وقحطان ، وبالرغم من العداوة التي وصلت ذروتها القصوى بينهما رغم ذلك كله ، نجدهما بقدر ما يتنافسان على الصراع والقتال وسلب ابل بعضهما البعض ، نجدهما يتنافسان على المروءة ويتسابقان على التسامح والفضل ، فكل منهما يحاول أن يقدم لصاحبه جيلاً أكثر من الجميل الذي يقدمه له نده ، وذلك عندما تسنح الفرصة التي يلتقي بها الخصمان ، على صعيد واحد :

حتى ولو كان هذا الالتقاء جاء بعد قتال مرير وبصورة أمر فيها أحد الخصمين خصمه ، لا بطريقة سلم ومعاهدات - كما نرى ذلك بصورة عملية بين كل من الفارس المشهور محمد بن هندي ، رئيس عشيرة برقاء - من قبيلة عتيبة ، وبين الفارس الثاني جعفر بن عَبُّود رئيس عشيرة المسعود من قبيلة قحطان . وكانت القصة على الوجه التالي :

غزا نفر من قبيلة عتيبة متجهين نحو قبيلة قحطان ، وصب الغزاة غارتهم التي اختطفوا فيها إبلاً ضئيلة العدد ، لجعفر بن عبود . فلم يسع جعفر إلا أن امتطى فرسه قاصداً مقارعة الغزاة ، حتى يعود بابله التي اختطفها المعتدون . وبينما هو يحث السير مسرعاً ليلحق بالعدو . واذا به يجد نفسه مطوقاً من من جميع الجهات ، من فرسان العدو . وعندما وجد مقاومته لهؤلاء القوم ضرباً من الانتحار ، استسلم للأمر الواقع وأحنى رأسه للقدر ، حتى تم اسر العدو له بدون قيد ولا شرط فهو تحت رحمة اعدائه الآن ، لهم ان يقتلوه ولا عيب عليهم بقتله حسب العادات المألوفة في وقوع العدو بين يدي اعدائه بحالة كهذه ، ولهم ان يعفوا عنه فهذا يعتبر كرماً واحساناً من الغالب المنتصر على عدوه المغلوب .

كانت الغزاة التي اختطفت ابل ابن عبود قليلة العدد ، وكان ابن عبود بقدر ما لديه من العلم الأكيد بقلة عدد الغزاة واثقاً من نفسه ومعتمداً على بطولته بأنه قادر على مقارعة هؤلاء الغزاة القلة ... وإعادة ابله منهم قهراً كما أخذت منه ، هكذا كانت عقيدته وثقته بنفسه ، كان مؤمناً بأنه سوف يحقق ما ينويه فيما لو كان القوم هم القوم القلة الذين نهبوا ابله ، ولكن الموقف تبدل فجأة عما كان يظنه الرجل ، والسبب في تبدله هذا هو ان الغزاة الذين اختطفوا ابله القليلي العدد انضموا الى غزاة كثيري العدد من نفس قبيلة عتيبة وبرئاسة محمد بن هندي رئيس عشيرة برقاء التي هي من اكثر وأقوى العشائر في جنوب الجزيرة ، فلم يكن امام ابن عبود الآن إلا أن

ييأس من ابله التي لا قدرة له على ارجاعها ، خاصة بعدما رأى القوة الاخيرة التي بهره كثرة عدد فرســانها : فليس له الآن إلا ان يحاول النجاة ما استطاع ... هكذا كان قرار ابن عبود النهائي ولكن أنّى له النجاة ... وهل يستطيع الفرار والنجاة وقد أحاط بــه الغزاة من كل جانب حتى اعتقلوه بدون أن يكون لديه من الوقت ما يمكنه من المقاومة او ان يأخذ لنفسه عهداً يصون به كرامته ويحفظ دمه ؟..

لم يستطع ابن عبود ان يفعل شيئاً من ذلك ، فقد غلب على امره وجيء به أسيراً الى رئيس عتيبة وفارس نجد محمد بن هندي ، ولم يعلم ابن عبــود ماذا يلاقي من ابن هندي ؟ فان قتله فلا يعاب بحكم انه اخذ (شلعـــا لا منعاً) أي قهره الأعداء واستسلم بدون قيــد ولا شرط ، وان عفا عنه وترك سبيله فهذا تكرم وفضل منه ، والفضل لا يستغرب من شجــاع كريم كابن هندي ، وقد كان ابن هندي الى المروءة أقرب منه إلى العقاب ، والى الكرم أقرب منه الى الطمع ... وذلك انه مـــا ان رأى ابن عبود حتى قفز واقفاً مرحبا به ومعانقا إياه فكأنه ضيف عزيز لا عدو جيء به أسيرا ، كما ان ابن عبود عندما رأى من ابن هندي هذه المقابلة الحسنة بادله بتحيــة مماثلة وبعد ذلك جرى بينهما الحوار الموضح معناه كما يلي :

ابن هندي : انها فرصة ميمونة التي جمعتنا بكم فلو أردناها أمنية لما تحققت ...

ابن عبود : وأنا ايضا شديد الحرص على الاجتماع بكم واتمنى أن اراكم وذلك انني كنت أسمع بذكركم الطيب العــاطر ، ولكن لم تتح لي رؤيتكم إلا في الهيجاء وعلى صهوات الخيل ، وتلك ساعــة تكون حوافر خيلنا وخيلكم قد حرثت الأرض حتى لا يرى المرء منها الا موقع حافر فرسه ، كما ان دخان بنادقنا وبريق سيوفنا وأسنة رماحنا قد حجبت عنا أشعــة

الشمس ووجه السماء ، ومن بديهيات الأمـور ان لا أتمكن من رؤية وجهك الكريم في تلك الساعات العصيبة ، واستطرد ابن عبود الى ان قال : ولئن كنت أتمنى رؤيتك فانني اود ان أراك إما ضيفـا في منزلي لأقوم بواجبك الذي تفرضه عليّ منزلتك ومقامك الجليل ذلك المقام الذي اعتقد بأنــي مهما نحرت لك من الابل فلا أراني قمت لك بالضيافــة التي تتناسب مع منزلتك المحترمة لا كزعيم من أكبر زعماء القبائل فحسب ، بل وكفارس من أفذاذ فرسان العرب قاطبـة ، ثم استدرك ابن عبود بحديثه وقال : أجل اود أن أراك ضيفـا لا أود أن اراك في ارضي غازيـا ، فان لم تكن الأولى فانني كنت أتمنى ان أراك أسيرا بين يـدي كما ساقني القدر اسيرا بين يديك الآن ...

ابن هندي : اذن ما دام ان كلا منا يتمنى ان يرى صاحبـــه ، ما دام الأمر كذلك فقد تمت هذه الأمنية لكلينا ، بصرف النظر عن الظروف التي جمعتنا .

ابن عبود : ان مدار البحث هنا يـــدور حول الظرف الذي جاء بي الى هنــا ، فهو بالنسبة لكم مناسبــة طيبة فيها انتصار وفيها لقــاء أخوي .

ابن هندي : ماذا تعني بالانتصار ؟.. فاذا كنت تقصد بذلك الابل التي اغتنمها رفاقي فانني سوف أعيدها اليك .

ابن عبود : انت يا ابن هندي من اعقل الرجال ، ومن دهاة العرب العارفين بأخلاقهم وشيمهم ، ولكنك سامحك الله تريد ان تتجاهل الحقيقة والا ما هي قيمة الابل او الفرس بجانب مرارة الغلبة بالنسبة إلي فأنا اتمنى بأن فرسي قتلت في المعركة كما اتمنى ان ابلي اصيبت بجرب اودى بحياتها

جميعا ، وان اكون منتصرا واتمنى ايضا أنه لو اتيحت لي الفرصة فقاتلت فيها واصابني ما اصابني من حــدّ سيوفكم ، واسنة رماحكم ، على ان اقع اسيرا بين يديكم ... هذا بالنسبة إليّ ، أما بالنسبة اليكم فانني على يقين من العلم بأن كلا من الفرس والابل التي غنمتم مني ثم تريــدون ان تهبوني اياها لا اهمية لها عندكم بجانب لذة النصر المعنوي عندما تقاس هذه اللذة بجانب الغنيمة المادية لأن القضية بالنسبة لنا ليست قضية غنيمة ابل او كسب فرس بل هي قضية معنوية .

ابن هندي : يبدو انك مغتــاظ كثيرا من أسرك ، اكثر من اي شيء آخر .

ابن عبود : اجل .

ابن هندي : ألم يسبق لكم يا بني قحطان ان اسرتم وقتلتم من فرسان عتيبة احدا ..

ابن عبود : كيف لا وفارسنا قنيفذ بن لبده الذي غنم من خيل عتيبة اكثر من عشرين فرسا منها ما غنمها بعدما قتل فرسانها ومنها ما غنمها عن طريق (المنع او الشلع) .

ابن هندي : اذن واحــدة بواحــدة ، والزمان يـدور ، اليوم لنــا وغدا لكم ..

ابن عبود : صدقت ، وهــذا المثل خـير معز لي بالنسبــة لوضعي الراهن ...

ابن هندي : لعلك الآن رضيت ولم يبقَ في نفسك شيء ..

ابن عبود : نعم رضيت كل الرضا وانما بقي في نفسي حاجة اود ان تتعهد لي بتنفيذها .

ابن هندي : لقد تعهدت لك بتنفيذ كل ما تطلبه مني مسبقا شريطة ان استطيع القيام بتنفيذه .

ابن عبود : انا لا اطالبك بشيء لا يمكن القيام بتنفيذه .

ابن هندي : ما دام الأمر كذلك ، فلك علي عهد لأنني سأنفذ كل ما تريده مني .

ابن عبود : لقد وهبتني يا حضرة الأمير إبلي وفرسي وبقدر ما اجدني عاجزا عما يقتضيه الواجب بشكرك بقدر ما اكون راضيا عنك ومقدرا لك الجميل فيما اذا قبلت مني الفرس والابل ضيافة مني لكم .

ابن هندي : ولكنني قد وهبتك ذلك مسبقـــا وليس من شيمة الكريم ان يرفض الهبة كما انه ليس من شيمتي ان آخذ ما وهبته ..

ابن عبود : ترى لو قدمت اليك عند اهلك ونزلت ضيفا في دارك الا تنحر لي هذه الإبل التي غنمتها مني او ربما تزيد عليها .

ابن هندي : اجل ان مقامك وقدرك يفرضان عليّ ان افعل ذلك .

ابن عبود : ما دام الأمر كذلك فأنت الآن في ارضي وعنـــد اهلي فما عليك الا ان تختار مني احد الامرين : إما ان تقبل دعوتي وتذهب معي لأقوم بشيء مما يفرضه عليّ الواجب نحوك ، وإمـا ان تقبل إبلي هـذه كضيافة لك ...

ابن هندي : انني سأترك الخيار لك ، فأيهما ترضاه فانني موافق ...

ابن عبود : افضل ان تقبل دعوتي اولاً ...

ابن هندي : لقد قبلت ذلك شريطة ان تقبل الفرس والابل .

ابن عبود : اما الفرس فقد قبلتها ، واما الابل فانما هي ضيافة لك ...

ابن هندي : ألم نقبل دعوتك على ان تقبل منا الابل ...

ابن عبود : هذه الابل لا علاقة لها بضيافتك في منزلي لأن ضيافة المنزل شيء وضيافتك في الطريق شيء آخر .

ابن هندي : اذن لقد قبلت هذه الابل ضيافة منك إلي في المنزل وفي الطريق ، وأنت ما عليك إلا ان لا تتراجع عن قبولك الفرس .

ابن عبود : كنت اتمنى انك قبلت دعوتي ، اما وقد اعتذرت عن ذلك فاني اقبل الفرس تنفيذاً لرغبتك .

ابن هندي : وها انذا استودعك الله ...

ابن عبود : إذهب في رعاية الله وامانه ...

وعند ذلك تفارق البطلان بعد هذا الحوار والتنافس على فعل الجميل ، فكل منهما يود ان يسبق صاحبه في المروءة ، وهـذا ابن عبود الذي امتطى فرسه جارياً وراء العدو ، مخاطرا بحياته لكي يعود بإبله من الذين اغتصبوها ... هذا الرجل نراه الآن يرفض بكل إصرار قبول إبله ، كمعروف من ابن هندي ، لأنه يريد ان يستردها بالقوة ، وبحد السيف ، كما اخـذت منه بالقوة . فهذه هي الشيمة العربية الأصيلة ،

وهذا هو الخلق العربي العريق ، وهذا هو التراث الخلقي الذي سيبقى ما بقيت الدنيا ، وسيرثه احفادنا ، بعون الله ، كما ورثناه نحن من اجدادنا (١) ...

---

١ ـ وبعد فهل الصهاينة وكل من دار بفلكهم ومن اعترف بباطلهم ، سواء من رجال الاستعمار الاقتصادي او رجال الاستعمار الفكري ... اقول هل لهؤلاء واولئك ولاسرائيل ان يفقهوا جميعاً ان كل محاولة تبذل في سبيل احلال السلم بين العرب والصهاينة فانما هي محاولة عقيمة فاشلة حتى ولو قبل اليهود مشروع التقسيم فانه لا يمكن ولا بوجه من الوجوه ان يقبل الخلق العربي أن يأتي مشردو البشر ويغزوننا في عقر دارنا ويغتصبوا ارضنا وييتموا اطفالنا ويرملوا نساءنا ومن ثم يحاولون عبثاً التفاهم مع العرب على حساب كرامتهم بعد ما اختلسوا منا حصة الاسد وابتلعوها غنيمة باردة ... يا لها من سخرية ؟..

الكبير لا يقصد إلا في الأمر الكبير

- ٣٢ -

قرأت في كتب الادب العربي قصة وجيزة كان مضمونها ما يلي :

جاء اعرابي يستنجد برجل من رجال العرب،ذوي المروءة ، فقال المستنجد: لقد جئتك لأمر صغير ليس ذا اهمية . قال ذلك قاصداً أن لا يتردد الرجل الذي يستنجد به من قبول نجدته ، فيما اذا أدرك أن الأمر صغير لا أهمية له. ولكن صاحب النجدة جعلت ثقته بنفسه يرى أن في هذه الكلمة اهانة له وجرحاً لكبريائه ، ولذلك اجاب المستنجد على كلمته هذه بقوله :

اني رجل كبير والكبير لا يستنجد به الا في الأمر الكبير . وما عليك في حاجتك الصغيرة الا أن تذهب بها الى رجل صغير .

هذه الحادثة كما اشرت آنفاً قرأتها في كتب الادب العربية — وعلى اي شكل فان التاريخ العربي والاحداث العربية كثيراً ما تتشابه باسلوبها ووقائعها ومعانيها حتى تكاد تكون الحادثة التي وقعت اليوم قد وقع ما هو مماثل لها في تاريخ الادب العربي القديم .

فهناك رجل من بادية شبه الجزيرة لا استحضر اسمه الآن · وانما عرفت عنه

كلمة مشهورة ، وهو انه جاءه رجل ، فقال (انني مستجير بحماك ، فقال المجير : عن ماذا استجرت . فقال : عن رجل يريد ان يعتدي عليّ . فأجابه قائلا : أنا أكبر من ان اجير المعتدى عليه فاذهب الى غيري .وستجد كثيراً من الرجال الذين يجيرونك اما انا فانني لا اجير الا المعتدي لا المعتدى عليه) .

هذا طبعاً خلق العربي الجاهلي ، ولكن الاسلام جاء وهذّب اخلاق العرب وقال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : (لعن الله من آوى محدثا) . ومهما يكن الامر فان الاحداث كما ذكرت سابقاً تعيد بعضها بعضاً في كثير من المناسبات .

والمناسبة الحديثة التي نحن بصدد ذكرها هي كما يلي :

في عام ١٣٧٣هـ -١٩٥٣ م. كنت في القاهرة وكان أيامها الملك السابق سعود موجوداً هناك . فجاءني صديق عزيز لا زال على قيد الحياة . ولكنني لا استطيع ان اذكر اسمه لانني لم استأذنه وأخشى انه لا يرغب ان ينوه باسمه .

المقصود ان صاحبي هذا اكد لي بأنه كان قد جلب مسدسات وذخيرتها من اوربا ، بكمية ضئيلة لا تتجاوز حمولة حقيبتين صغيرتين ، حسب ما يستطيعه من رصيده المالي الذي وضعه كله ثمناً لهذه المسدسات عندما كانت هذه تباع في المملكة العربية السعودية ، بصورة علنية لا محذور فيها ، وكان من يأتي بها الى المملكة يجد ربحاً مغريا من ورائها ، ولذلك جاء بها صاحبنا من اوربا عن طريق القاهرة قاصداً أن يبعثها للمملكة. ولكن الذي حصل هو ان الحكومة السعودية، أصدرت امراً يقضي بمنع بيع المسدسات . فظلت بضاعة صاحبنا في القاهرة ، وعندما جاء الملك سعود وجد صاحبها في مجيئه فرصة تجعله يبعث (حقيبتيه) مع احد رجال الحاشية - يقول صاحبي ذهبت اولاً الى شخص من اصدق اصدقائي في الحاشية فطلبت منه ان يحمل ما عندي ؟ فاعتذر بدون ان يعلم ما في داخل هاتين (الحقيبتين) يقول - فكنت اسمع عن المرحوم

العقيد (١) محمد الذيب بأنه رجل ذو مروءة جمـــة فذهبت اليه في (فندق الكونتننتال) في القاهرة وذكرت له حاجتي ، فلبى طلبي بدون ان يبدو منه ادنى تردد . ويؤكـــد صديقي بأنه عندما رأى ما ابداه الذيب من حسن استقبال واستعداد لقبول طلبه خجل منه ،قال له ان حقيبتيّ فيها محذور وهو كذا وكذا .. فكان الجواب من الذيب حسب ما نقلته من الراوي نصاً كالآتي: (اذا لم يكن في حقيبتك محذور فاذهب بها الى غيري) . حينا ذكر لي صديقنا هذه الكلمة عدت بذاكرتي الى تلك الكلمة التي نسبت عن احد رجالات العرب القائلة ما معناه : الكبير لا يقصد الا لكبيرة...

فرحم الله محمد الذيب، لقد عرفته ذا مروءة غزيرة وشهامة لا حدود لها.. ولذلك لم استغرب هذه الكلمة منه ، وقد كان الى جانب مروءته وسخائه ، ذا المام بتاريخ العرب وادبهم وكثير المطالعة والقراءة ، وقلّ ان رأيته خارج عمله الا وهو يحمل كتاباً من كتب الادب او التاريخ .

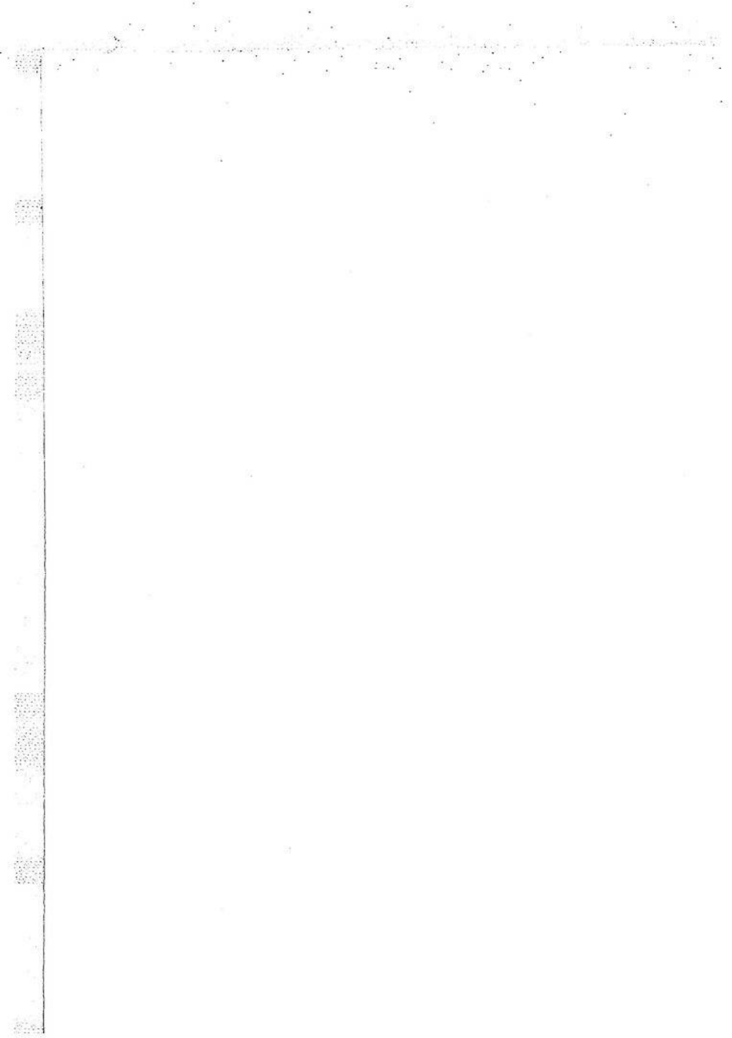
وعلينا ان نستدرك هنا بأن ما ذكرته عن مروءة الذيب وشهامته لا علاقة له بما ذكرته من اطلاعه على الادب والتـــاريخ العربي ... فتلك السجايا خلق مطبوع في النفس وموهبـــة من الله لا علاقة لها بكثرة المطالعـــة او عدمها . فكثيراً ما نجد أمياً لا يعرف شيئا من حروف الهجاء ولكنه ذو مروءة ونجدة وشهامة لا يوجد منها مثقال ذرة عند بعض المثقفين الذين درسوا علوم الدنيـــا والدين معا .. ومما لا شك فيه ان العلم من حيث هو ، نعمة كبرى وفوائده لا تقدر بثمن فاذا وجدنا مثلاً مثقفا واسع الاطلاع ولديه من المروءة وكرم

---

١ ـ محمد الذيب من ساكني مدينة بريدة عاصمـــة القصيم وهو المعاون وقتها لرئيس الحرس الملكي الخاص توفي رحمه الله عام ١٣٨٠هـ ١٩٦٠ .

الخلق ما هو طبع اصيل في نفسه ، ثم وجدنا امياً ايضا مطبوعا على الشهامة والنجدة فان الاول سوف يكون افضل من الاخير لا محالة لانه جمع بين ادب الدرس وادب النفس ..

وعلى كل فالعلم من اهم الوسائل واقوى العوامل ولكنه وسيلة لا غاية ومقوم لغيره لا مرجح ...



الفصل الرابع

الفراسة

« اتقوا فراسة المؤمن ، فانه ينظر بنور الله »
(حديث شريف)

كما ظن أن يكون كان

- ٣٣ -

شاءت سنة الله أن يبرز في كل قبيلة وبين كل جيل وجيل ، قائد تتوفر فيه صفات القيادة بكاملها ، وتبقى شهرة هذا القائد او ذلك الزعيم مهيمنة على تلك القبيلة ، لا يستطيع ان ينافسه عليها أحد.. حتى يغيب شخصه من عالم الدنيا. وأغرب ما في الأمر ان هـذه الصفة الموجودة في بني الانسان موجودة ايضاً في عالم الحيوان ، وهي ظاهرة عرفها هواة صيد الظباء أكثر مما عرفهـا غيرهم ، ويؤكد هؤلاء ان الصياد الماهر بحكم التجربة يعرف ان للظباء قائداً .. ولذلك يحرص ان يقتل القائد فاذا فعل فانه سوف يقتل العدد الكثير منها ، والحكمة في ذلك ان الظباء بعدما يقتل قائدها (١) تظل فترة من الوقت وهي حائرة لا تعرف الطريق ، الى ان يبرز من بينهـا قائد يتقدمها فتتبعه الى نفس الجهة التي يتجه اليها . .

وما دام ان هذه هي حالة الحيوان ، فانه من مسلمات الأمور ان تكون هـذه

١ - يكون قائد النزال تارة ذكراً ويسمى التيس ، او تكون احيانـاً انثى وتسمى (المنود) .

الصفة موجودة في بني الانسان بصورة أكمل وأشمل .

* * *

وفي منتصف القرن الهجري الماضي كان هناك زعيم لمع نجمه لا بين ظهراني قبيلته عنزة فحسب ، بل طار صيته وارتفعت شهرته حتى عند القبائل العربية الأخرى وهو (عقاب بن سعدون العواجي) (١) ذلك الفارس المشهور وقائد عشيرته ، بلا منازع والى جانب ذلك كان شاعراً موهوباً ، ولكنه مقل في شعره كما كان ذا رأي سديد وبصيرة نافذة ، ينظر الى عواقب الأمور بفكره الثاقب ويخشى وقوعها قبل ان يتحقق مفعولها .. ويتنبأ بما سيكون قبل ان يكون ..

وفي احدى الغزوات التي وقعت بين قبيلتي شمر وعنزة حصلت مبارزة بينه وبين فارس من فرسان شمر يدعى (كنعان ابا الوقي) وكانت المبارزة فوق صهوتي فرسيهما فهجم كل منهما على صاحبه وطرحه ارضاً ، بدون أن يظفر احدهما بالآخر ، وفي حالة وقوعهما ارتمى سيف كل واحد منهما من يده ، فهجم عقاب على سيف الشمري والتقطه من الأرض ، وفي الوقت ذاته هجم الفارس الشمري على سيف عقاب والتقطه هو ايضاً من مكانه .

تنافس بالنجدة :

وما ان سقط الفارسان ارضاً حتى تنافس فرسان كلتا القبيلتين على نجدة الفارسين ففرسان عنزة هبوا مسرعين لنجدة فارسهم وزعيمهم ، وفرسان شمر أسرعوا لنجدة احد فرسانهم ، وكان الموقف بالنسبة للفارسين اللذين سقطا على

---

١ - راجع ج ١ من شيم العرب للمؤلف الطبعة الثانية من ص ١٦٣ - ١٦٨ .

الأرض حرجاً للغاية. فكل واحد منهما اصبحت حياته مهددة فيما اذا سبقت فرسان اعدائه فرسانه ، ولو ثانية واحدة .. واذا تدبر القارىء بدقة وضع الفارسين بهذه اللحظة الحاسمة ، ومن ثم تصور نفسه انه واحد منهما عند ذلك يعذر أي منهما اذا امتطى فرس صاحبه بدون شعور منه لينجو بنفسه ، وهذا ما حصل فعلاً حيث أسرع عقاب وامتطى صهوة الفرس التي تليه ، كما ان أبا الوقي – امتطى فرس عقاب ، بصفتها القريبة منه لينجو من ان يظفر به اعداؤه .. ولئن كانت هذه المبارزة بين الفارسين من حيث واقعها العملي ، لا تعبر عن انتصار احدهما على خصمه ، فانها من حيث الشكل تعتبر انتصاراً للفارس الشمري من شتى الوجوه الآتية :

اولاً – ان الفارس الشمري بالنسبة لعقاب يعتبر نكرة .. ولم يعرف اسمه ويبرز في عالم الفرسان الا عند هذه المنازلة لا قبلها ولا بعدها ، ومعناه ان الشهرة التي نالها فيما بعد كانت على حساب عقاب ليس الا ، وهذه الحقيقة لم تغب عن ذهن عقاب .

ثانياً – اغتنامه لفرس عقاب بدلاً من فرسه واكتسابه لسيفه يعتبر ايضاً نصراً كبيراً بالنسبة (لأبي الوقي) وان كان اغتنامه لفرس عقاب واكتسابه لسيفه جاء بدون قصد ، وان يكن عقاب ايضاً اغتنم فرس نِدّه وسيفه ، ولكن النسبة بين الرجلين بعيدة كبعد المشرق عن المغرب .

ثالثاً هو ان فرس عقاب معروفة انها من الخيل الأصائل التي يندر وجودها عند العرب .. والفرق بين فرس عقاب وبين فرس (ابا الوقي) كالفرق بين منزلة وشخصية الرجلين ، ومن أوضح الأدلة على ذلك البيت الذي سيأتي ضمن القصيدة التي سوف نوردها في موضعها من بحثنا هذا .

رابعاً – وجود الشاعر الشمري المشهور المدعو (مبيريك التبيناوي) (١) الذي ما من حادثة تصدر عن قبيلته الا وينشد فيها قصيدة يتناقلها الركبان ، بشكل يصور فيه الحادثة لمن لم يرها بأنها كلها انتصارات لقبيلته ، فوجود هذا الشاعر كان يعادل في منظر عقاب كل المعاني الثلاثة السالفة الذكر بل ويزيد عليها أضعافاً مضاعفة .

---

١ – انظر ص ١٦٨ ج١ من شيم العرب للمؤلف الطبعة الثانية .

البطل الذي لم ترهبه أنصلة السيوف ولم يخش أسنة الرماح خاف من الشعر

وبالرغم من أن عقاباً جباراً جَلْداً لا تلين له قناة ولا تزعزعـــه الأحداث مهما تفاقمت ، ولا يستكين لخطوب الدهر مهما عظمت ، ولا يبالي بمفاجـــآت الزمان ومحنه مهما بلغت من الشدة، بالرغم من هذا كله نجده لم يستطع ان يكظم غيظه او يواري جزعه او يملك أعصابه ، بل بدأت علامات الضجر ترتسم على وجهه العابس ، وأدلة التذمر وفقـــد الأعصاب يلوحان للناظرين من نبراته وأحاديثه ، فحاربت عيناه النوم وأعرضت نفسه عن الطعام .. اللهم الا مـــا يسد به رمقه ، وعزفت عن النساء ، وتبلدت عـــاطفته عن مداعبة طفـــله الوحيد الذي يتفانى بمحبته ونأى بجانبه عن رجـــال قبيلته الذين يركنون الى رأيه ويستمتعون بأحاديثه ، ولم يكن هناك أحد من رجـــال قبيلته يرضى عقاب ان يبث شكواه اليه او يتظاهر أمامه بالضعف .. كما انـــه ما من احد يستطيع ان يجرأ ويسأله عن اسباب انهيـــاره وقلقه سوى شخص واحد وهو والده سعدون ، ذلك الشيخ الذي عركه الدهر ، هو الوحيد الذي ذهب لابنـــه يعاتبه على ما بدر له من ضعف ووهن لم يعهدهما به ، ومن جملة عتاب الشيخ ولومه لأبنه قوله :

– كنت اعرفك يا بني صخرة تتحطم عليها الأحداث ، فما الذي بدلك عما

---

١ – ينسب عن نابليون بانه يقول : أفضل ان أقاوم اربعة آلاف جندي على ان اقاوم اربعة كتاب . وما يقال عن تأثير الكتاب في عهد نابليون الذي هو امتداد لهذا العهد يقال عن الشعراء عند العرب .

كنت عليه ، ثم استطرد الشيخ يقول : انا لا اعرف شيئا يوجب انهيار اعصابك سوى اغتنام فرسك وهذه وان كانت فرسا اصيلا ، وقليل من الخيل الذي يقوم مقامها..ولكن من الممكن ان تستعيض عنها بجواد من نوعها وأحسن منها .)

وبعدما انتهى الشيخ من حديثه أجاب الابن والده قائلا بعد ان تنهد بشدة :

– وهل تظن يا والدي ان ما اعانيه من ضجر وقلق ناتج من اجل الفرس..

– اذاً ما هي الاسباب التي جعلتك تصل الى هذا الحد من الارهاق والهموم التي فتكت بجسمك ؟..

– ان الذي يهمني حقا ويقلق راحتي هو بيت الشعر الذي سوف يهجوني به شاعر شمر (مبيريك التبيناوي) .

– ماذا يقول عنك التبيناوي انه لن يجد عليك اي مغمز ينال من شرفك ، واذا حاول ان يبهتك او يفتري عليك بشيء انت منه بريء فإن ذلك لا يضيرك ..

– سوف يهجوني الشاعر ببيت يبقى مثلا عند العرب .

– ما هذا البيت الذي تخشى ان يقوله التبيناوي ؟ ..

– سوف يقول بلا شك :

السَّيْفُ مِنْ يِمْنَيْ عقابٍ خذَيْناهْ (١)
والخيــلْ بِدّل كدْشِهـا بالأصايلْ

---

١ – معنى البيت الذي يتنبأ عقاب بأن الشاعر سوف يقوله كما يلي : « ماذا بقي لعقاب من المجد ما دام ان سيفه أخذناه من يمينه .. وما دام ان فرسه الاصيل اغتنمناها منه ، وأبدلناه بفرس (كديش) أي ليست بأصيلة ولا ذات قيمة ..

ولما كان والد عقاب شاعراً فقد ادرك حقيقة ما تنبأ به ابنه وانما حاول ان يخفف بنصحه لابنه بعدم اهتمامه لما يقوله الشاعر الخ.. وحيث ان منازل كل من قبيلة شمر وقبيلة عنزة كلاهما مجاور بعضهما للآخر ، والخبر الذي يحدث اليوم عند احدهما يعرفه الطرف الثاني غداً ، وبالأخص القصيدة التي ينشدها الشاعر التبيناوي الذي اشبه ما يعبر عنـــه بعصرنا الحديث بوكالة (رويتر) .. فأي بيت يقوله هذا الشاعر سوف يكون له دوي في أندية ومجتمعات كلتا القبيلتين وسوف يحفظه الرجال والنساء على حد سواء.. ولذلك لم تمضِ على المعركة مدة وجيزة إلا والبيت الذي تنبأ به عقاب وخشي أن يقوله الشاعر ذلك البيت بالذات قاله التبيناوي لفظاً ومعنى اللهم الا انه لم يكن صدرا لقصيدته ولكنه اصبح هو بيت القصيد ...

واليك بعضاً من القصيدة :

ابا الوِقيْ بالبيضْ خَضّبْن ِيمنــــاه
أنا أشهَدْ انـّه من رفاع الحمايل

المعنى : اشاد الشاعر بمطلع قصيدته اولاً بالفارس المدعو ابا الوْقيْ واثنى عليه ، بمعنى يقول فيه يجب على نســاء الحيّ ان تعطر راحة ابا الوقي اليمــين بالمسك لأنه فارس ومن سلالة ابطال عريقين بالمجد ..

السّيفْ منْ يمْني عقّاب ِ خَذَيْناهْ
والخـَيْل ِبدّلْ كِدشها بالاصايلْ

هذا البيت كما ذكرنا آنفاً هو بيت القصيد وهو الذي تنبأ به الفارس العواجي ، وقــد اوضحت معناه مقدمــاً ولذلك لا ارى داعيــاً لتكرار شرحه ...

من فِعلنا بيع اطيَب الخيل بارْداه
وَحَلُوْ قِسم المنسمح يا بنْ وايل

يقول في صدر البيت الاول : اننا اغتصبنا منكم اطيب الخيل وتركنا لكم الفرس الرديئة ، وفي عجز البيت يقول : ان هذا التصرف فيه عدل منا وانصاف (وهذا من نوع السخرية) ...

المقصود : ان تنبؤات عقاب جاءت طبقا للأصل الذي كان يظنه ويعتقده ...

الشيخ الذي تنبأ بما سيكون قبل ان يكون

- ٣٥ -

يعتز العربي بنسبه من ناحيــة امه كاعتزازه به من ناحية ابيه ، كما ان العرب واهل البــادية بصورة خاصة يؤمنون بالوراثة من ناحية نسب الأب ، فانهم ايضاً يؤمنون ايماناً راسخاً بها من ناحية نسب الام ..

والحــديث الشريف يقول : (إياك وخضراء الدمن فإن العرق دساس) .. وخضراء الدمن المرأة الجميلة في المكان غير الشريف .

وقد نجد من رجال البادية رجالاً يبلغ بهم الاسراف بهذه الناحية درجــة تجعلهم لا يقف بهم الامر الى الحد الذي يجمل احدهم يفخر بخاله المباشر فحسب ، بل يذهب به الامر الى ما هو أبعد من ذلك ، فنجده مثلاً يعتز بخال ابيه وبخال أمه . ومن أصدق الادلة على ذلك – البيت الذي أنشدهالشيخ(العاصي الجرباء) رئيس قبيلة شمر الفرات بادية سورية عندما قال:

به الزعيلي والدويش   وعضيب خال أمه وكاد

بهــذا البيت يعبر لنا الشاعر بثنائه على ابنه المدعو الهادي بأنه عريق بنسبه من شتى الوجوه ، فتجده يفخر بنسب ابنه من قبل خال امه الذي هو

ضيب ابن موعد (١) الفارس المشهور ..

وثمة ظاهرة اخرى وهي ان البدوي يعتقد ان بعض الأسر يكون في نسائهم ميزة من حيث النجابة .. والعكس بالعكس تماماً ..

فتجدهم مثلاً يعتقدون ان الفتى الذي تكون امه من الأسرة الفلانية أو من الفخذ الفلاني فانه لا بـــد الا ان يكون نجيباً ، بصرف النظر عن كون رجال هذه الأسرة كلهم نجباء او عاديين ، فهذه الناحية لا علاقة لها في الموضوع الذي نحن بصدد ذكره ..

ولما كان للعادات أكبر الاثر وأعظم التأثير في تسيير مجرى حياة الكثير من الناس ، فانه يصدف ان تصح هذه النظرية ، وعندما تلتقي الصدف والايمـان بالعادات على صعيد واحد، فسوف يزداد الايمان بتلك العادات بصورة يستحيل معها تفنيد رأي المؤمنين بها.وهذه القصة التي بين يدي القارىء من جملة القصص التي تجعل الايمان بتلك الظاهرة حقيقة معترفاً بها بين رجال القبائل ونسائهـا .. وتاريخها يقع في ١٢٣٠ هـ اي منذ قرن ونصف القرن ومضمونها كما يلي :

كان صالح بن رغيلان (٢) من الاسر التي يقال عنها ان نساءها لا بد الا ان يكون مولودهن نجيبــاً ، وكان بكره انثى فراح (فايز بن هذيل) (٣) يخطب ابنة ابن رغيلان ، وكان قصده من ذلك هو ان يرزق مولوداً نجيباً ، فوافق والد الفتاة ، ولكن بعد ان طلب مهراً فيه من المغالاة ما يثقل كاهـــل الخطيب ، الامر الذي جعله يتنصل من رغبته بهذه الفتاة ، ويذهب ينقب عن ضالته من

---

١ - راجع ص ج من شيم العرب للمؤلف .
٢ - صالح بن رغيلان بن علي من قبيلة شمر .
٣ - فايز من مشاهير فرسان قبيلة شمر .

طريق آخر . وبمحض الصدفة رمى به انفال الى رؤية فتاة ذات جمال رائع ، وكانت الرؤية ليلاً بصورة تجعله يستطيع ان ينظرها بخدرها بدون ان تراه .. وكان الفصل شتاء وكانت الفتاة تصطلي على حمو النار ، وضوء النار الساطع كان ينعكس على بياض بشرتها الناصع ، فدنا بخطى وئيدة لينظر اليها من قرب ، وبدنوه رأى جمالاً عربياً رائعاً ، فأصيب الرجل بذهول أفقده الرشد وجعله يفكر بالاقتران بها بدا ن ان يسأل عن حسبها ونسبها اللذين كان ينشدهما بخطيبته الاولى ، فبات تلك الليلة على مضض . وما ان انبلج الفجر وبزغت الشمس حتى ذهب مسرعاً الى صديق له عزيز ليخطب له تلك الفتاة من ابيها . وكانت المدة بين ذهاب الرسول لوالد الفتاة وبين عودته اليه حاملاً موافقة والد الفتاة قصيرة جداً ، وبعد الموافقة لم يكن لديه من الصبر ما يجعله ينتظر لحظة واحدة ، بل دفعه الشوق والغرام الى مواصلة سعيه ، فذهب وعقد النكاح وتم نكاحه بالحسناء باقرب ما يمكن من السرعة .. وعلى الفور حملت وأنجبت ذكراً.

وعندما كان فائز جالساً امام بيته الشعر على مقربة من نادي الضيوف وبعيداً عن الرواق الحائل بين المكان المعد للنساء المسمى بـ (الرفه) وواضعاً مولوده الجديد في حضنه ويداعب الطفل تارة ويقبله أحياناً ..

زهده بعروسه الجميلة وشككه بنجابة ابنه !!

في تلك اللحظة دخل عليه شيخ أشرف على نهاية العقد السادس يدعى (فضيل بن غانم) من اقاربه الادنين ، وكان فضيل من الرجال الذين يركن الى رأيهم في الامور الهامة ومن أرسخ رجال عشيرته علماً في التقاليد والعادات، وعندما تبادل التحية مع صاحب البيت جلس في مكان مشاهد لفائز ، وظل يرسل بصره خلسة نحو الطفل الذي في حجر ابيه ، ففطن له فائز وأدرك ما يحوك في صدره نحو مولوده الجديد ، وانما اراد ان يتجاهله وكأنه لم ينتبه له

ولكن الشيخ لم يتركه يتمادى بتجاهله بل راح يتحرش به ليكشف القناع عما يدور في نفسه فوجه اليه السؤال التالي :

– من هو خال ابنك ؟..

فرد عليه قائلا :

– أجاهل بخاله ام تتجاهل ؟ ..

– فسر سؤالي كيف تشاء ..

– ألا تعلم ان الفحل (١) يشبى ؟ ..

– بلى ولا شك ، ولكن مهما بلغ الفحل من الاصالة فانه لا يكون ابنه نجيباً ما لم تكن امه من فحل نجيب ..

– هذه نظرية نتناقلها نحن منذ العهد الجاهلي وما قبله ، وقد تصيب مرة ولكنها تخطىء مراراً .

– انها نظرية حق ، ويندر جداً ان لا تكون على صواب ..

– ماذا تقول بفارس العرب عنترة العبسي ؟..

– عرفت ماذا تعني فكأنك تقول انه ابن أمة سوداء ومع ذلك بلغ من الشهرة بفروسيته مكانة لا ينافسه عليها احد من فرسان العرب قاطبة ..

– اجل هذا هو الذي اعنيه بالذات ..

– هناك فيه تباين بعيد بين ابنك هذا الذي عرف خاله بأنه (شاوي) (٢) ولم يعرف عن نسائه ولا عن اهله النجابة قطعياً ، وبين عنترة الذي وان كان من

---

١ – يشير الى نفسه بأنه اصيل وشجاع وان ابنه سوف يكون نجيباً ما دام انه هو والده ..

٢ – الشاوي هو راعي الغنم . واصحاب الإبل والخيل ينظرون اليه نظرة احتقار .

أمة سوداء ولكنه أثبت عمليا بأن أمه من النساء اللواتي ينجبن الابطال امثاله.. ولو ان خالته واقعها عربي فارس كشداد والد عنترة لأنجبت منه فتى لا يقل شجاعة عن عنترة ، وانت اذا استطعت ان تؤكد بأن واحدة من أسرة اصهارك أنجبت من أي عربي مولوداً فارساً نجيبا فانني سوف اتراجع عن رأيي ، وان لم تستطع كما اعتقد بأنك لن تستطيع فانني من الآن سوف انبؤك بما سيتم في مستقبل ابنك هذا المدلل اعانك الله عليه ..

ـ هيا أخبرني بماذا تتنبأ به من مستقبل لهذا الطفل ولا تظلمه او تظلم نفسك.

ـ ان غزاك اعداؤك واغتنموا إبلك فسوف يجبن عن لقائهم وإن اعتدى عليك معتد وقتلك او جرحك فسوف لا يكون لديه من الشجاعـة ما يجعله يفكر بأخذ الثأر ممن اعتدى عليك وواحدة من هاتين الخصلتين بالفتى كافية ان تحكم عليه بأن عدمه خير من وجوده ..

ـ ما هـذا اليوم المشؤوم الذي صبحتني به ؟ ... لقـد زهدتني بزوجتي وشككتني بنجابة ابني ..

ـ يجب ان تعتبر هذا اليوم يوماً سعيداً بدلاً من ان تعتقد انه يوم مشؤوم ، لأن القريب او الصديق الذي يوضح لك اعوجاجك طالباً ان تعدله خير من ذلك الصديق المداجي الذي يجاملك حتى تسير في طريق معوج حتى لو شئت ان تعود منه فانه يصعب عليك ذلك ..

ـ لماذا لم تنصحني قبل ان اقدم على الزواج بهذه الفتاة ؟ ..

ـ المسؤولية تقع على عاتقك لانك لم تستنصح اي واحد من رجال القبيلة ، وكانت الاخبـار الشائعة لدينا تفيد بأنك خطبت ابنـة صالح بن رغيلان ، فاستبشرت خيراً ، وبينما نحن نرقص طرباً على سماع تلك الاشاعة ، واذا بالخبر السيء يأتي الينا فجأة بزواجك من ابنة الشاوي ، فتساءلنا ما السبب الذي صرفك عن الاولى وعن السبب الذي جاء بك الى هذه فقيل ان السبب الذي أبعدك عن ابنة النجيب هو انك بخلت عن دفع المهر الذي طلبه منك والدها ، كما تأكدنا

بأن السبب الذي رمى بك الى ابنة الشاوي هو انك رأيتها ليلا تصطلي على النار فاستولى على لبك حمرة بشرتها وأسر عقلك قوامهـــا المديد وخدمرها الضامر وبياضها الناصع ، فأقدمت على النكاح بدافع غريزتك الجنسية بدون ان تنظر بعيداً الى ما يترتب على ذلك من نتائج ..

– لو ان ابن رغيلان كريم ، وأخو مروءة ، كما يشاع عنه لما انصرفت عن خطبتي لابنته ، ولكن التجارب أثبتت انه رجل استغلالي يريد ان ينهب مني جميع ما املك من الإبل مقابل تزويجي ابنته .. وهذا ما جعلني اعرض عنه .

المال يأتي عوض منه مال ، ولكن نجابة الابن لا تعوض !!

– ليتك أخذت رأيي في موضوع ابنة رغيلان لأنني اعتقد ان الرجل ليس طماعاً ولا استغلاليا كما تظن ..

– القضية ليست مجرد ظن كما يخيل لك وانما هي حقيقة واقعية ..

– فلنفرض ان الرجل طماع واستغلالي ولكن عندما تدفع له كل ما يطلبه منك فستكون انت الرابح لان المال الذي تدفعه له سوف تتعوض عنه مالاً خيراً منه ولكن خسارتك في عدم نجابة الابن لا تتعوض عنها شيئا قطعيا ..

– أخشى ان ابنة ابن رغيلان قبيحة لا تطاق فأكون وقتها خسرت المال والجمال ..

– انا لم ار الفتاة ولكن سمعت نساءنا يتحدثن عنها بأنها لا يدانيها بالجمال اية فتاة من فتيات القبيلة بأسرها ..

– المهم انها لا تكون بشعة تتقزز منها النفس ، فاذا لم تكن كذلك فانني على اتم الاستعداد بأن ادفع كل ما يطلبـــه مني أبوها ما عدا فرسي التي ليس عندي أغلى منها بمالي كله ...

-- دعني أذهب الى اختي التي تكبرني لكي أتأكد منها لأنني اذكر ذات

يوم انها أسرفت بنعتها للفتاة بالجمال ...

– من الأحسن أن تـأتي بها معك هنـا لأسمع من فيهـا ، ولأزداد قناعة ...

– اذن لا حاجة بأن أذهب بنفسي ، بل سوف أبعث لهـا أحد هؤلاء الصبيان الذين يمرحون هنا ليناديها ...

– الأمر متروك لك ...

أمر فضيل واحداً من الصبيان لينادي اخته ، وعلى الفور حضرت أخت فضيل التي تجاوزت السنين الأولى من العقد السابع ...

وبعدما استقرت في مكانها قال لها أخوها :

– كنت اذكر انك حدثتيني عن ابنة صالح بن رغيلان ، فهـل لك ان تحدثي أخي فائزاً عما تعرفينه عن جمالها ؟...

فقالت اخت فضيل على الفور :

– فتاة ابن رغيـلان ليست من الفتيـات اللواتي يحتجن الى سـؤال من شق الوجوه ، سواء من ناحية الجمال الذي لا ينافسها عليه أحد من نسـاء القبيلة بكاملها ، ولا من ناحية حصافة عقلها كفتاة بالثامنة عشر من عمرها ، ولكنها تحمل عقل امرأة تجاوزت الأربعين ، واما من ناحية نسبها فيكفي ان أباها صالح بن رغيلان ...

وما ان انتهت العجـوز من حديثها ، حتى تولى الحـديث معها فائز بنفسه قائلاً :

– لا شك انك تعرفين زوجتي هذه ...

– أجل كيف لا ؟..

– فهل في ابنة صالح من الجمال ما يقارب لزوجتي هذه ؟..

– أتقول ذلك عن جد وحقيقة ؟..

– ألا تعلمين إنني لا اتحدث إلا بالجد والصراحة ؟..

– ما دام الأمر كذلك اسمح لي بأن أؤكد لك بأن زوجتك التي خلبت لبك ، عندما تجلس بجانب ابنة ابن رغيلان سوف تكون كأصغر النجوم بجانب البدر عندما يبلغ نموه كاملا ... ومضت اخت فضيل الى ان قالت : ربما أكون مخطئة في نظرتي للفتاة او مسرفة في وصفي لهـا ، ولذلك من الأحسن لك ان تسأل غيري من نساء الحي اللواتي لهن بالفتاة صلة مباشرة اكثر مني ، لكي تكون على يقين من الأمر فيما اذا قدر لك نصيب من السعادة بالاقتران منها ...

بعدما انهت العجوز حديثها تدخل اخوها فضيل قائلا :

– ان اختي على جانب كبير من الصواب في رأيها ... ولذلك أرى ان من الضروري ان تسأل من تثق به من نساء اسرتك اللواتي يعرفن الفتاة لتتوفر لديك الادلة الكاملة ...

– بعد كلام اختك هذا لا أراني بحاجة الى سؤال احد ، فيكفيني من ابنة ابن رغيلان انها ليست البشمة التي لا تطاق ، فهذا وحده يجعلني لا اتردد عن خطبتها ثانية . ووصل حديثه الى ان قال : هذه المهمة سوف اكل امرها اليك ... فأنت تذهب وكيلا عني وتخطبها من ابيها ..

– سوف اسعى والتوفيق بيد الله ...

ذهب فضيل من عند صديقه وقريبه وقصد صالحاً وشرح له المهمة التي

جاء من اجلها ، فصمت صالح فترة لم يجب بكلمة واحدة ثم قال بعد ان مـلأ سبيله من (تتن العراق) وجرع منه نفسين :

– سبق ان طلب مني فائز ابنتي وطلبت منه مهراً معقولاً فلم يرد عليّ ، وقد سمعت انه تزوج ابنة شاور ، واما اذا كان يريد يد ابنتي الآن ، فانني لن أزوجه اياها الا بشرط واحد وهو ان يضاعف طلبي الاول من الابل ، وزيادة على ذلك يدفع فرسه ، فان قبل فبها ، وان لم يقبل فليس له عندي كلام اكثر من ذلك .

ومن يطلب الحسناء لم يغله المهر !

عاد فضيل الى فائز ونقل له موافقة والد الفتاة وطلبه المضاعف ، وكان الطلب يعني ان يتجرد الخطيب من ثلاثة ارباع ما يملك من الابل ، وكل ذلك كان رخيصا بنظر الخطيب ، ما عدا فرسه التي يرى انها مصـــدر مجده ورزقه ، فان قلّت ابله فانه يستطيع بفضل وجود فرسه ان يغزو اعداءه ويغتنم منهم ابلا ... وان غزاه احد فانه يستطيع ان يقاتل الغزاة على صهوتها حتى يدحرهم خاسرين وهذا مما يجعله يتردد في المضي بدفع الفرس ضمن المهر المطلوب ، فراح يستشير صاحبه فضيل في موضـوع الفرس فقط فرد عليه بقوله :

– لماذا تسألني عن شيء سبق ان وضحت لك رأيي بـه مقدما ، حيث قلت لك في بداية الحديث ان المال بالامكان ان تعتاض عنه مـالاً ، ولكن عدم نجابة الابن ليس هناك ما يعادلها في الحياة ... ثم استرسل فضيل الى ان قال : لك ان تختار بين ان تعيش في حياتك كعيشة الرجل العقيم ليس لديك من الذرية من يذود عن حماك ويحمي ظهرك ويرد الغزاة المعتدين عندمـــا تبلغ من العمر عتيا وتصبح هرما لا تستطيع كفاح من يعتدي عليـك من

العدو البعيد أو القريب ... واذا توفيت فلن يكون هناك ابن نجيب يخلفك ويحيي ذكرك ، وبين ان ترخص مالك في سبيـــل ان تنجب ابنا يكون سندا لك في حياتك في حالة شيخوختك ... فتكون هيبتك بهرمك بفضل وجود ابنك النجيب كهيبتك ايام شبابك وفتوتك ... فلا يتجرأ اعـداؤك البعيدون ان يطمعوا بغزوك ... وهم يعرفون ان لك ابنا نجيبا ، ولا يتجاسر اعداؤك الادنون ان يمسوك بأدنى اذية ما دام لك ابن نجيب يذود عن حماك ويثأر لك ممن ينال منك .

– اذن هذه ابلي مائة وستون ناقة لك ان تأخذ منها مائة وعشرين ، وهـذه فرسي خـذها واذهب بها اليـه ، وخذ منـه وعدا بشأن عقـد النكاح ...

ذهب فضيل واستعان بالرعاة ، واخذ مائة وعشرين ناقة ، وجـــاء الى الفرس وامتطى صهوتها وراح الرعاة في مقدمة الابل ، وهو في مؤخرتها حتى وصل الى بيت والد الفتاة ، فناوله عنـــان الفرس كما سلمه الابل بالعدد الكامل وطلب منه ان يعين موعدا لعقد النكاح فأجاب بقوله :

– اي وقت يريد ...

فعاد فضيل الى صاحبـه يخبره بأن تحـديد وقت العقد عائـد له ، فقال :

– اريد ان يكون في صباح الغد ...

فرجع فضيل ليؤكد لوالد المخطوبة بأن صاحبه يود ان يكون العقد غدا صباحا فوافق على ذلك .. وفي صباح الغد جاء فائز وصديقه فضيل قاصدين بيت صالح فوجداه جالسا حسب العادة ، وبعد ان احتسيا اكوابا من القهوة

اجرى العقد الشرعي حسب العادة المألوفة ، وقبل ان يتفرق الحاضرون قال والد الفتاة لصهره :

– سوف تأتيك زوجتك الليلة هذه ...

فراح فائز يهيء لعروسه البيت ..

المصاهرة التي اصبحت مضرباً للمثل !

ظل فائز بن هذيل في صراع عنيف بينه وبين نفسه ، وقد بدأ هذا الصراع يزداد عنفا منذ ان ذهبت منه فرسه النجيبة ، وبينا هو يناجي نفسه في الخواطر التي استولت على كيانه ، واصبحت هذه الخواطر تعبث في افكاره وحواسه ، متشعبة الى جبهتين : خواطر تقلقه عندما يرى نفسه اصبح صفر اليدين من ثلاثة ارباع ما يملكه من كسب عمره الطويل ، ومن فرسه التي لا يعادلها اي ثمن عنده ، وبين ما يعزى به نفسه من انه سوف يرزق ابنا نجيبا من ابنة ابن رغيلان ليحيي ذكره ويحيا بكنفه في آخر حياته ... ومشكلته ان الافكار الأولى توحي اليه بأن خسارته محسوسة وملموسة ، بينا ربحه لم يكن مضمونا ضمانا تاما كخسارته الملحوظة ... فقد تكون ابنة ابن رغيلان عقيما لا تلد ابداً ، وقد لا تلد إلا إناثا ... وربما تلد ذكراً لا يكون نجيبا ، كما يعتقد صاحبه ، كل هذه الاحتمالات جائز ان يتحقق بعضها ، وفي بعض اللحظات يذهب به خياله الى مقت صاحبه فضيل ، ومقت الساعة المشؤومة التي جاءه فيها وزهده بزوجه الجميلة ، وشككه بنجابة ابنه ... وبينا هو سابح في خضم هذه الافكار المتصارعة في كيانه ، واذا به يسمع اصوات رعاته الذين ذهبوا بإبله في الليلة الماضية يحدون ، وفي الحين الذي يصغي به الى اهازيج الرعاة بمرارة

ويأس ، سمع صهيل فرسه من قرب ، فقفز بدون وعي منـه ، ظانا ان فرسه انطلقت من صهره ، وجاءت الى اهلها الذين الفتهم ، وترعرعت بينهم منذ ان خلقت ، ودار في ذهنه تلك الساعـة من الخيال ما يجعله يفكر بأن لا يدع فرسه تعود الى صهره بدعوى انها التجأت اليه بدافع الالفـة القديمة ، وكان ناويا ان يقول لصهره بأنه على اتم الاستعداد بأن يـدفع ما تبقى من ابله بكاملها على ان لا تفلت فرسه من يده بعدمـا عادت اليه ، وكان آخر حل عنده فيما اذا اصر صهره الا ان تعـود الفرس هو ان يفسخ العقد ويريح بالة من هذه المشكلة التي ورطه بها صديقه فضيل منذ ان جاء اليه في ذلك الصباح المشؤوم ..

وفي تلك اللحظة التي كان يعاني فيها الصراع المرير بين خسارته المحسوسة وبين آماله التي ليست مضمونة ، وبالتالي بين قراره النهائي الذي اتخـذه بعدما سمع صهيل فرسه في هذه اللحظة الحاسمة تبدد ذلك القلق بمفاجـأة سارة ، والى كسب مضمون لم يتصوره ، كانت هذه المفاجأة هي ان الرعاة الذين كان يسمع اهازيجهم عادوا اليه بإبله التي اعادها اليه صهره بدون ان ينقص منها شيئا ... وكانت الفرس التي يتوهم انها انفلتت من صهره وجاءت اليه عفوا ، كانت معادة اليه من قبل صهره ، والى جانب هذا كله جاءت زوجته بهودجها وبجانبها عدد من الابل محمـلة بأكياس من الحنطة والتمر والسمن ، وبالاضافة الى هذا بعث صهره الكريم عددا من الابـل كمهر من عنده لابنته ، وببيت شعر مستقل وفراشا وقطعا من السجاد ، كل هـذه الاشياء جاءت مع شقيق زوجته الاكبر ... وعندما بني بيت اخته وفرشه راح وسلم فائز فرسه وإبله والابل والمؤونة التي جاءت بصحبة العروس ، ثم قفل راجعا الى ابيه ...

اما فائز فقد غمر كيانه موجة من السرور بلغت حدا يعجز عن وصفه الواصفون وقد تضاعفت نسبة سروره وارتفعت درجة الغبطة ارتفاعا لا مزيد

عليه عندما دخل على عروسه فوجد بدرا ساطعا لم يرَ في حياته جمالاً عربيا كامل الأوصاف كهذا الجمال الذي يشاهده الآن في عروسه ... فبات تلك الليلة بنشوة من السرور والغبطـــة اللذين عاش على ذكراهما مدة حياته ...

وفي الصباح الباكر ذهب الى صديقه فضيل ليخبره بنتائج مساعيـــه الطيبة ، وآراءه التي بدأت بشائرها تلوح في الافق مقدما ، وما ان رآه حتى ذهب يقبل رأسه ويشكره على النصيحة التي أسداها اليه ، شارحـــا له الموقف النبيل الدي اتخذه صهره معه ، ومعبرا له عن غبطته بعروسه التي وجد فيها من الجمال والعقل والقدر الذي يسمو على ما وصفته له اخته ، فرد عليه فضيل بقوله :

– اما من خصوص ما فعله صهرك من إعادته إبلك وفرسك الخ ... فهذا شيء لم استغربه من نبيل شهم كصالح ... ثم التفت الى احد ابنـــائه وقال : اسرع الى عمتك وقل لها ان والدي وعمي فائزا ينتظرانك...وبعد لحظة وجيزه حضرت العجوز فقال لها اخوها :

– ما هو جوابي لك عندما ذهبت تقذفين وتشتمين صالحا بن رغيـــلان على طلبه ذلك المهر لابنته من أخي فائز ...

فأجابت العجوز قائلة :

– لعله تحقق ظنك بصالح ...

– تحدثي اولاً عما قلت لك عن رأيي بصالح عندما بدأت بهجومك العنيف عليه ...

– كنت اسكتتني وقلت انك تعتقد ان قصد صالح من طلبه هذا هو ان

يمتحن فائزاً ليعرف مقدار رغبته في مصاهرته .. وانه عندما يجد فائزاً مصمما ومرخصا كل ما طلبه منه فان صالحا سوف يرد عليه كل ما دفعـــه .. وعندما انتهت العجوز تولى فائز الحديث وقال :

ـ لقد كان الرجل على ما يظنه اخوك واكثر مما يظن به .. وراح يشرح ما لقيه من صهره من نبل وكرم وما وجده في عروسة من جمـــال منقطع النظير وعقل وافر .. وبعد ذلك ذهب فائز من عند صاحبه مكرراً شكره له، متفائلا خيراً بتحقيق تنبوءاته له بمولود نجيب ، وراح وأقام في ليلتها وليمة كبيرة دعا على شرفهــا اعيان قبيلته ، وفي مقدمتهم والد العروس طبعا وصديقه فضيل ، وكانت ليالي فائز وعروسه سروراً دائماً وشهر عسل مستمراً ، ولم ينقصه شيء الا ان تنجب عروسه ذكراً..وبعد مضي ثلاثة اشهر من زواجها حملت العروس، وظل فائز يعد ليـــالي حملها بالساعة .. وكانت اكبر بشرى تزف اليه تلك التي نقلتها اليه اخته المفيدة بأنه رزق صبياً ..

بدل الصبي صبيان

وبعد مضي عامين رزق من زوجته الجديدة بصبي آخر، كما رزق انثى، وتوقف الزوجان عن الانجاب بعد ان اصبح ابا لثلاثة ذكور وانثى ، وامسى لا همّ له الا العناية والرعاية لأبنائه ، وعندما كبروا راح يدربهم على اعمـــال البطولة كالرماية وركوب الخيل وشتى انواع الرياضة التي من شأنها ان تزيد عضلاتهم صلابة وقوة ..

وعندما بلغ ابناؤه سن الرشد ، وثق ابوهم ان كل واحـــد منهم اتقن فن الفروسية ومهر بها ، واصبح الفرد منهم فتى مفتول الساعد ، فارع القامـــة . بعد ذلك جمع ابناءه وقال :

ـ انني الآن تجاوزت سن الشباب واصبحت بحاجة الى الراحة والهدوء ..

وقد بذلت في شبابي جل جهدي حتى جمعت هذه الإبل وحميتها بنصال السيف وسنان الرمح عن غزوات الطامعين، اما الآن فانني سوف اطلق السلاح والنضال واترك هذا الامر لكم ايها الفتية فأرجو ان لا يخيب ظني بكم .

كان ابناؤه الثلاثة على جانب كبير من وسامة الفتوة وقوة الشباب، ولكنهم حتى تلك الساعة لم يتسن لأي واحد منهم المحنة التي تكشف الغطاء عن مقدار تحملهم وطاقتهم .

سبق ان اشرت في اكثر من مكان بأن النزاع بين قبيلة شمر وقبيلة عنزة كان دائما مستمراً بحكم تجاور القبيلتين .. وعندما يكون احد المواقع خصبا عند ذلك يشتد النزاع بين المتحاربين ، فكل منهما يحاول ان تتمتع إبله بهذا المرعى ، وتارة تكون الحرب سجالاً واحياناً تكون الغلبة لاكثر القبيلتين عدداً وعدة ، اما اذا تعادلت قوتاهما وشاءت كل قبيلة ان تتجنب شر قرينتها عند ذلك يكون ذلك الموقع الخصب محمياً عن رعي إبل كلتا القبيلتين ..

وشاء القدر ان تأتي سنة ، امحلت فيها جميع الاراضي سوى مكان مجاور لمنازل كلتا القبيلتين ، كانت إبل قبيلة شمر تسرح غربا عن منازلها، كما ان إبل قبيلة عنزة تسرح غربا عن مساكنها، فيبقى ذلك الموقع الذي بين الشرق والغرب خصباً مزدهر النبات لا تستطيع ان ترعاه إبل قبيلة دون الاخرى ، خوفاً من مفاجأة عدوتها . ولكن رغم ذلك كان شباب من فرسان قبيلة عنزة المغامرين يأتون بإبلهم ويتركونها ترعى عشب هذا المكان المحذور الخطر، وهم على صهوات خيلهم مدججين بالسلاح ، ومستعدين لمقاومة أية غارة تأتيهم من العدو ، بينما إبل شمر لا يحصل لها المرعى من هذا المكان الخصب ، وانما تذهب الى ارض ممحلة لا تجد فيها ما يسد رمقها ، فكانت تذهب ضامرة وتعود كما ذهبت ، وفي ذهابها كانت تحن حنيناً يعبر عما تعانيه من الجوع .. ولم يستطع الشيخ فائز ان يتحمل حنين نياقه من آلام الجوع فهو يعتبر ان هذا الحنين من إبله عبارة عن

شكوى منها اليه .. ولما كان البدوي وخاصة الفـارس قد يستطيع ان يبيت الطوى جائعاً ولكنه لا يستطيع ان يري إبله جياعاً وهنـاك مرعى خصب ، فقد بلغ الغضب من فائز حداً جعله يتحدث بالعبارات التي أثارت حماس ابنائه وجعلتهم يعقدون العزيمة على ان يذهبوا بإبلهم الى المرعى الخصب الذي ترعى منه إبل عنزة بفضل شجاعة فرسانهـا ، وان يغامروا بإبلهم وفي انفسهم بدون ان يفكروا في مصيرهم ..

وكانت الكلمات التي تحدث بها والدهم جديرة ان تثير حماس اي فتى يحمل بين جوانحه قلبا شجاعا ونفسا ابية ..

لقد وقف الشيخ خطيبا امام إبله وهي تحن جوعا وقال مخاطبا إبله :

ـ كأنك ايتها الإبل بحنينك هذا تشكين من لوعة الجوع ، وكأن لسان حالك يوجه اليّ اللوم قائلا : ـ أليس من العار والخزي ان نشكو الجوع ونبيت الطوى بينما نرى المكان الخصب ونشم رائحة العشب المزدهر قريبا منـا ترعاه إبل اعدائنا برغد وأمان بفضل فرسانها بينما نحن نحرم منه لا لذنب اقترفناه الا لاننا لم نوفق لفرسان كالذين وفقت بهم إبل العـدو . ويمضي الشيخ بخطابه لإبله فيقول : أرجو ان تعذربني ايتها الإبل لانني اصبحت شيخا كبيراً فاقداً قوة النضال تلك التي عندما كنت اتمتع بها في شرخ شبابي واتولى حراستكن وحدي، لم اترك موضعا خصبا من أراضي العدو الا وجعلتكن تتمتعن ايتهـا الإبل به وترعين عشبه بكل أمان واطمئنان ، ولم تستطع اية قوة من فرسان العدو ان تنالكن بسوء خشية من بأسي . ثم يستطرد الشيخ ويقول : اما الآن فقد شخت وعجزت عن حمايتي لكن ايتها الإبل ، ها هم ابنائي الفتيان الثلاثـة قد حلوا محلي ، وان يكن لكنّ من لوم فانما يقع لومكنّ على هؤلاء الشباب الجبنـاء ، الذين يرون الارض الخصبة نصب اعينهم تتمتع برعيها ابل العدو تحت رعـاية وحماية فرسانهـا بينما تبتنّ جياعا من عدم وجود فرسان يحرسونكنّ بأسنة رماحهم ونصلات سيوفهم ..

كان هذا الحديث على سمع ابنائه الثلاثـــة الذين كما ذكرت آنفا قرروا بأن يذهبوا بابلهم الى المرعى الخصب غير مبالين بما يلحق بهم من مصارعة اعدائهم الذين يفوقونهم عدداً وعدة .

كان رجال قبيلتهم يجلسون كل صباح عند رئيس القبيلة ليعقدوا رأياً موحداً ويتخذوا قراراً يجمعون عليه ، وعلى ضوء هذا القرار يعين المكان الذي تسرح اليه ابل القبيلة ، لكي يتبعها الفرسان من أجل حمايتها من غارة العدو ، وكانت المعلومات الواردة اليهم تفيد أن قبيلة عنزة تزيد عليهم عدداً وعـــدة ، ولذلك كانوا يبعدون بابلهم عن الارض التي تقطنها عنزة .. ويحاولون ما استطاعوا أن لا يتحرشوا بهم .. وكان الفتيان يذهبون كالمعتاد كل صبـــاح الى رئيس القبيلة ليعرفوا المكان الذي تذهب اليه ابل القبيلة ، ولكنهم بعد ما عقدوا العزم على أن يذهبوا بابلهم الى ارض العدو المحظورة ، رأوا أن لا فائدة من وراء ذهابهم اليه بل كل ما في الأمر انهم بعد ما امتطوا صهوات خيولهم وتنكبوا سيوفهم ورماحهم وأمروا الرعاة ان يذهبوا بالابل الى الارض المتوفر فيها الكلأ والتي تتمتع برعيها ابل العدو ، بعد ذلك مروا برئيس القبيلة لا ليأخذوا رأيـــه في قضية ذهابهم فتلك قضية قد انتهوا منها ، ولكن من أجل ان يخبروه بما صمموا أمرهم عليه مجرد اشعار ليس الا،وكم حاول رئيس العشيرة ان يفند رأيهم موضحاً لهم ان خطتهم هذه انما هي عملية انتحارية ، ولكن جميع محاولاتـه تفتت على صخرة عزيمة الشباب الفولاذية ..

.. وهكذا مضى الفتيان ..

تنبؤات الشيخ تتحقق

مضى الفتيان في سبيلهم ، ولحقوا بابلهم يسوقونها حتى اوصلوهـــا الارض المحرمة على ابلهم ، والمباحـــة لابل العدو ، كان مجيئهم مثار دهشة واستنكار

بالنسبة لفرسان عنزة ، وقد كثرت علامات الاستفهام ، فمن قائل ان هؤلاء الفتية بعثهم رجال قبيلتهم للاستدراج ليتحرشوا بنا حتى اذا هجمنا على ابلهم لحقوا بنا وطوقونا ؟.. ومن قائل ان قبيلة شمر جاءها نجدة من ابناء عمهم الذين في العراق ، وان هؤلاء الفتيان لم يتجرأوا على مغامرتهم هـــذه لو لم يعرفوا أن وراءهم قوة جاءت من جديد لتحميهم من الخلف .. وأخيراً قرر العنزيون ان يبعثوا فرساناً ليتحروا الحقيقة وليسبروا غور القبيلة بكاملها ، وان لا يعودوا حتى يأتوا بالسر الحقيقي الكامن وراء مغامرة هؤلاء الفتيان .

فذهب شلة من فرسانهم لهذه المهمة فراح هؤلاء ولم يدخروا وسعا من بذلهم اقصى ما لديهم من الجهد بالتنقيب والتحري لكشف الحقيقة ظانين انهم سوف يجدون كميناً من فرسان العدو ، ولكنهم بعد ما بذلوا كل ما لديهم من الجهد ولم يجدوا شيئاً بعد ذلك عادوا الى رفاقهم وهم قانعون قناعة تامة .. ان ليس وراء هؤلاء الفتيان اية قوة تساندهم ، وان كل ما هنالك انهم صبيان دفعتهم سكرة الشباب الى القيام بمثل هذه المغامرة الحمقى ، ووفقاً لقناعتهم هـــذه صمموا ان يغيروا على ابل الفتيـــان وان ينهبوها من ايديهم ، وهكذا فعلوا ، اما الفتيان فقد دبروا خطة تقضي بأن لا يكافحوا العدو ساعة هجومه ، بل يتظـــاهرون بالجبن ويلوذون بالفرار حتى اذا هجم العــدو بكامل قوته واطمأن الفرسان المعتدون بعدم وجود من يكافحهم ومن ثم تقاسموا الغنيمة واشتغل كل فارس منهم بسوق غنيمته والمحافظة عليها، بعد ذلك يكرون عليهم كرة صادقـــة على ان تكون كرتهم هذه موحدة ومصبوبة على ادنى فارس من الغزاة ..فعندئذ يسهل عليهم قتالهم فردا فردا حتى يستخلصوا ابلهم او يقتلوا جميعاً ..

وعلى ضوء خطتهم هذه تظاهروا بالفرار الى ان تقاسم الغزاة الابل ، ومضى كل فارس منهم بحصته ،عند ذلك كروا جميعاً على اول فارس من الغزاة وطرحوه أرضاً .. ثم كروا على الثاني وكان مصيره كمصير سلفه ، وعندئذ تخلى الغزاة عن الابل ولكنهم لم يتخلوا عن القتال بل كروا على الفتيان حتى حمي الوطيس بين

الجانبين وفي هـــذه الساعة الحرجة الحاسمة فر أخوهم الكبير أي ابن المرأة (الشاوية) وقامت المعركة على الفتيين ابني زوجته الأخيرة اللذين ظلا يفران ويكران حتى امساهما الليـــل ، وتفرق الطرفان عن بعضهما ولكن بعد ان غنم الفتيان الفرسين اللتين طرحا فارسيهما منذ اول معركة . وبعــد ان استردا ابلهما ودفع كل فرد منهما ثمناً باهظة من الجروح التي نالاها جميعاً من طعـــان العدو ، اما اخوهم الاكـــبر سالف الذكر فقد كان سليما جسده من اي جرح ، حيث فرّ من اول ما حميت المعركة وذهب الى والده ..

فسأل الشيخ ابنه الهارب عن اخويه فأجابه بقوله :

– آن آخر عهدي بهما عندما طوقهما فرسان العدو وانهالت عليهما السيوف والرماح من كل جانب ولم اتركهما الا وانا على يقين من العلم بأن الاعداء مزقوهما اربا . .

اصغى الى الحديث المشؤوم الذي يرويه له ابنه فائز وكان بين المصـــدق والمكذب ، ومضى النصف الاول من الليل وهو في قلق عظيم يشاركه في قلقه هذا ام الفتيين وشقيقتهما التي كانت اقل من والدتها صبراً واكثر منها سخـــاء بسكبها للدموع المنهمرة من مقلتيها بلا انقطاع .. أما الشيخ فكانيذرع الباحة الفسيحة امام بيته الشعرى ذهابا وايابا وينشد هذه الابيات الشعبيـــة معزيا نفسه بها :

موتَ الفتى دونَ المعزّة والامـــوال
من فوق قبٍّ واردٍ كالنـــداويَ
في ساعةٍ يثبت بها عِرْبْ الاخوال
ويهرب بها الخـــايبْ بناخي الشواوى
أخـــيرْ منَ صَبر على الهون واذلال ذل
ا'ليّا عادْ موْتَ الكلْ بأمر سِمَاوىَ

المعنى : يقول الشيخ انه عندما يلاقي الفتى حتفه وهو يناضل دون كرامته وماله وعلى صهوة جواده هاجما على اعدائـــه كهجوم الصقر على فريسته ، وفي معركة حاسمة لا يثبت بها الا الفتى الشجاع الذي عرف اخواله بالاصالة كما يهرب من هول هذه المعركة الفتى الذي اخواله ليسوا معروفين بالاصـالة ، اشرف من أن يحيا ذليلا مهاناً من اعدائه ما دام الموت امرا حتمياً لا مفر منه ..

فالشيخ بأبياته الثلاثة التي يعبر لنا بمعانيها عن واقــع أمره يشير الى المعنى الذي قاله الشاعر الاحسائي علي بن المقرب :

فلا عاش من يرضى الهوانَ فهل تجـد
جبانـــاً على مـــر الزمـــان مخـــلدا

وهل مات من يخشى الوغى قبل يومه
فتى لضروب الحـــرب لا زال انجـــدا

او المعنى الذي اشار اليه ابو الطيب المتنبي :

واذا لم يكن من المـــوت بُـــدّ
فمن العجـــز ان تمـوت جبـــانا

المقصود : ان الشيخ يعبر لنا في هذه الابيات انه وان كانت عاطفة الوالد لا بد من ان تؤثر على قلبه ، ولكنه يظهر بمظهر الذي يفضل مصرع بنيه وذهاب ابله ، على ان يرى ابل اعدائه ترتع في الارض الخصبة ، بينما ابله تبيت الطوى ، كما انه يثني على ابنيه اللذين يعتقد انهما قتلا .. وفي الوقت ذاته يهجو ابنه الذي هرب بدون ان يعقد مصيره بمصير أخويه، ويعتبر ان ثبات ابنيه دليل على عراقة نسب أمهما واصالة خوالهما ، كما يعتبر ان هروب ابنه هذا من اوضح الادلة على ان اخواله ليسوا من اهل الشجاعة والجد ..

وفي الحين الذي كان الشيخ يردد هذه الابيات بذهابه وايابه امام بيته وتارة يختطف كوبا من القهوة ويحتسيه ، وهو في هذه الحالة جاءت ناقة (خلوج)(١) من ابل الشيخ وقصدت ابنها ، وعندما رأى الشيخ هذه الناقة بات في نفسه شيء من الامل وراح يخاطب هذه الناقة كانه يخاطب انسانا يعقل قائلا :

– ناشدتك الله يا فلانة (٢) اين ولدي فلان وفلان .. ثم يعود ويقول مخاطباً الناقة ايضاً : أخبريني عنهما لاعتقادي ان لديك خبرا أصح واصـــدق من الخبر الذي جاء به (ابن الشاوية)(٣) وفي الوقت الذي كان يردد الشيخ هذه العبارات للناقة تارة واحيانا ينشد الابيات السالفة الذكر ، في تلك اللحظة جاءتـه ابنته تهرول قائلة :

– ابشر ابشر يا أبي لقد سمعت حداء واهازيج كأنهااصوات أخوي يلحنانه تلحين المنتصر ، فقال ابوها :

– اذهبي يا ابنتي ولا تعودي حتى تنبئيني بالخبر الاكيد .. فذهبت مليا ولم تعد حتى وقفت على الحقيقة ورأت أخويها كما رأت الفرسين اللتين غنماهما من العدو فعادت مسرعة تبشر والدها بل وتزغرد زافة لوالدها البشري بسلامـــة اخويها وزيادة على ذلك بشرته بالفرسين التين غنمهما اخواها من العدو ، وبعد ذلك بفترة قصيرة جاء الفتيان يسوقان الابل ولم ينقص منها شيء ، ولكن كان كل واحد منهما مثخنا جسده بعدة طعنات من رماح وسيوف العدو .. وكان البدو يستعملون للجريح علاجاً عربياً وهو ما يسمى بالتكيـــد ، وتعريف هذا العلاج هو ان تُشعل النار في حفرة رملية وبعد ان تخمد النار يزاح الجمر عن هذه الحفرة وتترك إلى ان تخف حرارتها وتبلغ درجـــة يستطيع أن يتحملها جسد

١ – اي الناقة التي وضعت من جديد حوارا وتركته في مكانه لا يستطيع المشي معها لصغره.
٢ – ما من ناقة عند البدو الا ولها اسم تدعى به .
٣ – مشيرا بذلك الى ابنه الاكبر الذي هرب عن اخويه .

الانسان ، وعند ذلك يؤتى بالجريـــح ويدفن في وسط هذه الحفرة فترة من الوقت ..

وعلى الفور أمر الشيخ ابنه الاكبر الهارب ان يحفر ثلاث حفر وان يشعل فيهن النار ، فحفر اثنتين ثم عاد الى والده يستفسر عن الغاية من حفره الثالثـة فقال الشيخ :

ـ بعد ما تنتهي من حفرها واشعال النار فيها وازاحة الجمر كالاثنتين عند ذلك سوف اخبرك عن السبب لحفرها ، فذهب الابن ونفذ ما امره به والده وعندما انتهى من الحفر واشعال النار وازاحة الجمر من جميع الحفر الثلاث بعد ذلك قال الشيخ لابنه الهارب :

ـ كنت اتمنى انك شاركت اخويك بشرف النضـال وان جسمك ناله من شرف الكفاح القدر الذي نال جسمي اخويك لكي ادفنـــك كما دفنتهما وانت مرفوع الراس ناصـــع الجبين موفور الكرامة ، أما وقد جبنت وانهزمت عن اخويك لذلك يتحتم عليّ أن أدفنك في وسط الحفرة لتشارك اخويك على الاقل بألم حرارة الرمل لأن نفسي لم تطب أن ادفن أخويك البطلين وأخلي سبيلك ..

فدفنه ابوه بدون رضاه .. وفي الصباح الباكر استدعاه والده وقال له :

ـ هب ان الله توفاني الم تكن ابني ويحق لك أن تنال نصيبـــك من مالي كوارث شرعي كما يرثني احد ابنائي ، فقال الابن :

ـ أجل يا والدي .. قال الأب :

ـ أريد أن تعلم من الآن بأنني قررت بأن هبك من مالي ما تستحقه فيا لو كنت ميتاً شريطة بأن لا أراك بل تعتبرني ميتاً كما اعتبر انك لم تخلق ..

وأخيراً ذهب الفتى عن والده وراح يعيش بين خواله بعد ما اخذ نصيبه من الابل .

***

لقـــد سردت هذه القصة لكي اطلع القارىء على مقدار ما يؤمن به أهل البادية بالوراثة ، اما انا شخصياً فانني لست مؤمناً بأن الوراثة عن طريق الام بل ولا عن طريق الاب لها تأثير ايجابي في نمو مواهب الفرد اكثر من تأثـــير الزمان والمحيط والمجتمع والعادات والقرين ..

واصدق ما يقال بهذا الصدد قول عمر بن الخطاب (ر ض) :

(الناس بزمانهم أشبه به من آبائهم) ..

والغريب ان الشعراء الشعبيين تختلف نظرتهم في هذا الشأن اختلافاً كلياً فبينما نجد شاعر الحماسة محمد العوني يقول في قصيدته المسماة بالالفية :

الجـــيم جنب عن رديّ الطماعـــة
وصادق صديق لك تَرى به شجاعة
ترى رِدِيَ الخال ما به بتاعـــه
وَتَرَاك من عز المبـــاري تعزّى

المعنى : يقول العوني يجب على المرء أن يبتعد عن دنيء الهمة وان لا يصادق الا المرء المغامر الطموح الشجاع ويقول في عجز البيت الثالث ان من يكون خاله جباناً دنيئاً لا يمكن ان يكون شجاعا ، وفي البيت الرابع يقول ان المرء يعز ويحترم بين رجال مجتمعه بقدر ما يختاره لنفسه من الصـــاحب الطيب والصديق الكريم بحكم ان الصديق مرآة منعكسة عن اخلاقه .. هذا خلاصـة ما يقوله العوني ..

بينما نجد شاعر الحكمة والموعظة والارشاد محمد العبد الله القاضي يقول بيتين على عكس نظرية العوني بقصيدته اللامية الشعبية وهما قوله :

لا يفتخر من جاد جده وخـــاله
هي بالهِمَمْ لا بالرَمم مثل من قال
الجمر يمسي كالخــلاص اشتعــاله
ويصبح هشيمٍ مِغبرٍ خامـدٍ بالْ

المعنى : يقول في البيت الاول لا يحق للمرء أن يفاخر بنسبه لا من ناحيــة ابيه وجده ، ولا من ناحية اخواله لأن هذه الأمور لا أهمية لها وانما الاهميـــة والاحترام للرجل العصامي الذي يصنع المجد لنفسه بنفسه ، معتمدا على سمو همته الشخصية لا على عظام ورمم آبائه البالية ، ثم يذهب القاضي مؤكداً هذا بقوله : اننا اذا شئنا ان نقبل النظرية القائلة ان كل اصل جيد وطيب فان فرعه سيكون طيباً .. فان المنطق يفند هذه النظرية بحكم ان النار هي اقوى واصلب المواد من حيث اصلها . ولكن فرعها رماد لا ينفع، واصح معنى في هذا الصدد هو ما قاله المرحوم معروف الرصافي :

وَشرُّ العالمــين ذوو خمــول
اذا فاخرتهم ذكروا الجدودا
وخير الناس ذو حسبٍ قديم
أضاف لنفسه حَسَباً جديــدا

الشاعر الذي ينطق القدر على لسانه

- ٣٦ -

لو أن قبر هذا الشاعر في البلاد التي يقدس اهلها قبور الاموات الصالحين الذين يصدف ان يلتقي القضاء والقدر واستجابة دعوتهم في آن واحد ، أقول لو كان قبره في البلاد التي يؤمن اهلها بهذا الاعتقاد لاصبح قبر صاحب الترجمة مزاراً للمتبركين .. لانه وان كان شاعرا شعبيا واكثر شعره بالغزل ووصف الذلول ، ولكنه رغم ذلك لم يسبق ان دعى على احد بشعره الا وجاءت دعوته موافقة طبق الاصل لما دعى به . وهذا الشاعر يدعى ساكر الخمشي (١) توفي حوالي عام ١٣٥٠ هـ .

ونود هنا ان نورد القصائد التي ضمنها الشاعر دعواته التي أتت كما دعا بها كما نأتي بالاسباب الداعية لذلك ..

ابتلي الشاعر بغرام فتاة من قبيلة شمر نجد من عشيرة الأسلم الذين يرأسهم وقتها ضاري بن طواله ، كما ان الفتاة حسبما يبدو من معاني القصيدة الآتية

---

١ – ساكر من قبيلة عنزة راجع ص١٧٣ ج٤ من شيم العرب للمؤلف .

كانت تبادله بغرام مماثل ، ولكن المشكلة ان الفتـــاة (محيرة) (١) لابن عمها بمعنى انها لا يمكن ان ينكحها احد الا بموافقته ، وكان ابن عمها عنيدا لا يقبل ان ينكحها احد سواه ، فراح الشاعر يشدو قصيدة في مطلعها استنجاد ونخوة لرئيس عشيرة الاسلم وفارسها المغوار ضاري ابن طواله ، والبقية كلها تغزل من أرق المعاني التي قالها الشعراء الشعبيون بالغزل ، بل هناك بيت قاله الشاعر في معشوقته بقدر ما حرصت ان اجد شاعرا من شعراء العربية جاء بالمعنى الذي قاله الحمشي فانني لم أجد معنى مماثلا له وهو قوله :

ثلاث علامات من الـرّيمْ هي بِـكْ
عين وعنق والحـــذاره ترابـــك

المعنى : يخاطب الشاعر معشوقته قائلا : انه توفر فيها ثلاث صفـات من صفات الغزال : اثنتان مادية والثالثة معنوية .. وموضع الرقة والجزالة بالمعنى يأتي بالصفه المعنويه ، فالشاعر نعت معشوقته بالصفتين الماديتين بالغزال واللتين وصفهما الكثير من الشعراء وهما العين والعنق .. واما الصفة الثالثـة التي هي معنوية فانه لم يُسبق هذا الشاعر على وصفها وهي النفرة وعدم الانقيـاد بكل سهولة ، اذ انه من المعلوم ان الغزال حذر ولا يستطيع احد ان يصيده الا رميا بالرصاص ..

وهذا البيت ضمن قصيدة اخرى خلاف قصيدته التي أشرت اليها آنفا والتي جاء منها قوله :

شاكي للولي عزّالِ لـيـلِـي او نهاري
عَالِم بالخفي من بيّناتٍ وغيبيْ

١ – راجع ص ٣٧ و ٢٠٠ ج ١ الطبعة الثانية من شيم العرب يتضح لك معنى المحيرة .

ثم شاكي لخو صلفه زبونْ الشّبارى

حيث انه يحول الخيل ومشبّبيْ

شاكيٍ له على غرو فضاني اجْهارْ

كيف واحد يفضْاني بوْسط عرُبيْ

القصيدة طويلة : وكلها من الغزل الرقيق ولا ارى مـــا يدعو الى سرد الابيات الباقية ، لانها تبعد بنا عما نريد ، وانما نكتفي بشرح هذه الابيات ..

يقول الشاعر في البيت الاول انه يشكو امره الى الله خالق الليل والنهار العليم بسرائر الامور وعلانيتها ..

وفي البيت الثاني يقول : بعد ما اشكو امري الى الله اعود وابث شكواي واستنجادي بالفارس (أخو صلفه) يقصد ضاري بن طواله .. وهو بهـــذا البيت ينعت ضاريا بأنه بطل الهيجاء وحامي فرسان قومه .. اذا وهنت جيادهم وخارت عزائمهم ..

وفي البيت الثالث يؤكد شكواه ونجدته بضاري مرة ثانية فيقول كيف ان هذه الفتاة تقهرني وانا بجوارك و ..

(وان كان الضمير يعود الى المتكلم بقوله – كيف واحد يفضاني بوسط عربي) .. ولكن المعنى يشير الى انه يقول كيف هذه الفتاة تقهرني وأنا في وسط قبيلتك يقصد ضاري بن طواله لان الحشي كما ذكرنا من قبيـــلة عنزة ومعناه انه عند ما يكون نازلا عند الاسلم الذين هم من قبيلة شمر فهذا يعني انه بجوار رئيس العشيرة ضاري ..

ولما كان ضاري معروفا بسرعة النجدة (١) والمروءة الجمة فقد بـــذل ما

---

١ – راجع ص١٦٠ الى ١٦٥ ج ٤ من شيم العرب .

استطاع من الجهد بأن يغري الشاب الذي من اسرته ليتخلى عن الفتـــاة التي شغف بحبها الشاعر .. ولكن الشاب رفض ان يتخلى عن ابنة عمه وكل محاولة بذلها الشيخ ضاري لاغرائه باءت بالفشل ، امام عناد واصرار ابن عم الفتاة ..

وعندما يئس الشاعر من الحصول على محبوبته راح ينشد قصيدة في اولهـــا توجع على معشوقته وفي آخرها دعاء على اسرة الفتاة بكاملها فيقول :

يَمال َقلْبٍ لاعِبٍ لِعْبَةِ الدْوكْ
في يَد ظرفٍ ماهِرٍ باشتغـــاله
على حبيب ما بحبه لنا شكوك
عيو عليـــه الذاهبـــين الطواله
عسي يجيهم من بني عمهم صوك
يوم بـــه المرور يـــبزع بخاله
عسى يجيهم طلعة الشمس مدلوك
مدمي ولا تنفـــع عليه الدخـــاله

المعنى : يقول في البيت الاول الا وامَصيبتي التي آلمت قلبي حتى أصبح قلبي مضطربا اشبه ما يكون بنول النسيج ..

وفي البيت الثاني يقول ان اسباب المرض الذي المّ بقلبه هو غرامه بتلـك الفتاة التي لا شك بأنها تبادله المودة نفسها .. وفي عجز البيت الثاني يقول على الرغم من ان الغرام متبادل بينه وبين معشوقته ولكن اهلها رفضوا واصروا على عدم الاقتران بها .. وفي عجز البيت ما يعبر بوضوح بأن الفتاة التي يهواها من اسرة آل طواله نفسها التي هي اسرة الشيخ ضاري ..

وفي البيت الثالث يدعو الشاعر بحرارة على أسرة آل طواله قائلا : أسأل

الله ان يوقع بينهم فتنة ينتج عنها معركة عنيفه يبلغ بها الامر الى درجـــة ان الشاب الثائر الشجاع يفتك بخاله ..

وفي البيت الرابع يؤكد الدعاء مرة ثنية فيقول : اسأل الله تعالى ان تقع المعركة بينهم عند طلوع الشمس وان يبلغ الحقد بينهم الى الحد الذي يجعل الرحمة تنتزع من قلوبهم فلا يعطف بعضهم على بعض وان لا يكون مجالا للتسامح ولا لاستجارة بعضهم ببعض .

ومن غريب الصدف ان ما تنبأ به من وقوع المعركة بين فخذ ابن طواله وقعت وفقا لما ذكره في البيت سالف الذكر حتى ان ابن الاخت قتل خاله والعكس بالعكس .. اما اسباب الفتنة فقد جاءت على الشكل الآتي :

ذهبت فتاة من فتيات الفخذ لتملأ قربتها من الماء وعندما انتهت من ملء القربة اشارت لاحد الفتيان الذين يسقون ابلهم على جانب البئر بأن يحمل القربة على ظهرها ، فاستجاب احد الفتيان لطلبها وحمل على ظهرهـــا السقا ، وفي الوقت ذاته تصرف تصرفا بعيدا عن الادب والخلق ..

فراحت الفتاة تشكو لرجالها التصرف الخاطىء الذي لقيته من ذلك الشاب الطائش ..

وعلى الفور أخذت النخوة رجالها وهجموا على الفتى وقطعوه اربا .. وعند ذلك قام اقارب الفتى بهجوم معاكس قاصدين أخذ الثأر لابنهم وهكذا تقاتلت العشيرة بكاملها قتالا عنيفا ، كما تنبأ بذلك الشاعر الخمشي ..

هذه واحدة من تنبؤات هذا الشاعر ، واليك قصه ثانية جرى القدر بما نطق به لسانه بها بصورة مشابهة للاولى ..

في ٢٧ رمضان ١٣٣٨ هـ هجم أهل (الغطغط) (١) على موقـــع يسمى (الشعيبية)ويقطنه وقتها نفر من قبيلة شمر، وقتل المهاجمون كل من وقع بايديهم من هذه القبيلة ..

وكان من نتيجة ذلك ان اخذت الشاعر العاطفة بالقتلى كما اخذه الغضب على القتلة وراح يتنبأ لهم بمستقبل سيء ويتوقع لهم عاقبة وخيمة جزاء وفاقا لمــا فعلت ايديهم باخوانهم واليك ما قاله الشاعر :

ذبحت اهل المسجد ركوع وسجـــاد
يأتي لها من عقب ذلك منـــادى
ادعوا معي يا قارئين بالايجـاد
تروا الدعا قبـــلي مجادع هوادي
يعل دار حـــلّ به ذبـــح الاجواد
تاخذ ثمان سنين ما سال وادى
ترخص بها السلعة ويغـــلى بها الزاد
وتذهل بها المرضع ربيع الفؤادى

المعنى : يشير الخشي الى ان الذين قتلهم أهل الغطغـــط وهم يتعبدون في المسجد في رمضان ويقيمون الليل ركعا وسجدا ويقول : ان الله تبارك وتعالى لا بد من ان ينتقم من هؤلاء القتلة ولو بعد حين • ويقول في البيت الثاني : عليكم ايها الصالحون من حملة القرآن ان تشاركوني بالدعاء وتسألوا الله معي ان ينكب هؤلاء السفاكين لأن الدعاء كرمي السهم اذا اخطأت بعض السهام الهدف فـلا بد ان يصيبه السهام الاخر ..

وفي البيت الثالث يقول الشاعر : اسأل الله ان يصبّ جام غضبه على اهل

---

١ ـــ الغطغط ارض كانت صحراوية وعمرها رجال من قبيلة عتيبة واستوطنوها ..

هذا البلد القتلة وان يمسك الغيث عن بلادهم مدة ثمان سنوات .. ومـــا معنى البيت الرابع الا امتدادا لمعنى ما قبله من الدعاء على اولئك السفاكين فيقول : اسأل الله ان يبتلي هؤلاء القتلة بالقحط والبؤس الى ان يصلوا درجة من ارتفاع المعيشة والغلاء تجعلهم يبتاعون اثاث منازلهم ليشتروا زادا وان ترتفع اسعار الطعام ، وتشتد الفاقة والمجاعة الى الحد الذي يجعل الام تنسى وتذهـــل عن جنينها الرضيع تاركة ثمرة فؤادها من اجل ان تفتش عن لقمة من الطعام لتسد رمقها، واعجب ما في الامر ان الشيء الذي تنبأ به هذا الشاعر تحقق ولكن على درجة اقل مما يريد، وذلك انهم اي اهل الفطغط، بدر منهم من التصرفات الهوجاء التي كان من نتائجها ان ضربهم الملك عبد العزيز ضربة قضت عليهم ، فبلغوا حالة من اثر النكبة اشبه ما تكون بما عبر عنها الشاعر بدعوته وأمنيته ..

تنبؤ جاء قبل اوانـــه !

- ٣٧ -

(من سلّ سيف الظلم قتل به) .. هذا المثل القديم لا زلنا نشاهده واقعيـا في تاريخنا الماضي والحاضر ، ونؤمن بصحة منطقه في المستقبل ..

ولم يكن منصور السالم القفاري(١) هو الذي ابتكره ، ولكن المناسبـات جاءت به على لسانه والعدالة الالهية حققت تنبوأته ..

وقد كان ذلك في عام ١٩٢٩ عندما وقر في ذهن امير حائل وقتذاك بندر (٢) بن طلال والرشيد ان ينشىء حديقة قريبة من قصر امارته لكي يذهب اليها في اوقات فراغه وراحته كموضع نزهة واستجمام ، فوقع اختياره على مكان يقع شرقاً عن بلاده يسمى (الخريمي)، وعندمـا وجد في هذا المكان التربـــة الصالحة لنمو الاشجار ، عند ذلك اصدر امراً تعميمياً لملاك الحدائق في بلاده على ان يبعث له كل فرد منهم مشتلا من خيرة انواع النخل ، وكل فلاح بلغه الأمر

- منصور صاحب مزرعة في قرية قفار التي يقطنها بنو تميم وتقع جوار حائل ...

٢ - راجع ص ١١٧ ج ١ من شيم العرب للمؤلف الطبعة الثانية .

ذهب مسرعاً بتنفيذه ، مـــا عدا منصور بن سالم الذي امتثل لتنفيذ الأمر من حيث الظاهر ولكنه ضرب به عرض الحائط من حيث الواقع العملي ، وكل مـــا هنالك انه اجتث جوزاً من (البار) (١) وأعده ليذهب به الى الأمير ، وعند ذلك جاء احد رجال امرته منتقداً لرأيه وناصحاً له بأن لا يقدم على ذلك مؤكداً له بأن هذه المغالطة سوف تعرضه لعقاب الأمير فيما اذا تأكد من معرفة المشتل، فوجه منصور سؤالاً لناصحه قائلاً :

– ما هي المدة التي تجعل الأمير يستطيع ان يعرف حقيقة هذا المشتل ..؟

– ادناها ثلاث سنين وأقصاها خمس سنوات ..

– ما دام الأمر كذلك ولماذا اجتث له مشتلاً طيباً ؟..

– لأنه سوف يعرف الحقيقة ولو بعد مضي أقصى المدتين ..

– استطيع ان اؤكد تأكيداً جازماً بأنه لن تمضي المـــدة الأولى فضلاً عن الأخيرة الا وفرج الله اقرب وأسرع من أن يعرف مشتلي ..

– اوضح ما تشير اليه ..

– اؤكد لكم ثانية بأن لا تمضي المدة الاولى الا وقـــد حدث أحد الأمور الثلاثة الآتية :

اما ان يقتل الأمير او ان يموت مشتلي قبـل ان ينمو ويصل الى الدرجة التي يعرف بها ان كان ذكراً او انثى . . او ان يوافيني أجلي . . ثم استدرك منصور حديثه فقال :

– انني اعتقد ان الأولى اقرب الاحتمالات الثلاثة ..

– ما هو السر الذي جعلك تقدم الأولى على الاثنتين ؟..

---

١ ـ البار اسم للذكر من النخل الذي يلقح به النخل وهو لا يثمر ويسمى (الفحال)

– لم يكن الامر سرا بل واضحاً كوضوح الشمس في رابعة النهار ..

– قد يكون واضحاً بالنسبة لمفهومك ولكن لم يتضح الى الآن لنا مـا تشير اليه ..

– ألم يكن بندر ظالما بقتله لعمه متعباً وقاطع رحم في آن واحد ؟..

– أجل ، لا احد ينكر ذلك .

– ألم يقل الله في محكم كتابه العزيز : (ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً) الخ .. او لم يقل النبي محمد (ص) « الرحم معلقة بالعرش تقول : – من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله » وبالتالي ألم يقل المثل العربي : (من سلّ سيف الظلم قتل به) ..

– ان ما ذكرته من الآيات القرآنية والحديث النبوي والمثل العربي كل ذلك معروف لدينا ولكن غاب عن الذاكرة الاستنباط منه .

– ما غاب عن ذهنك فانه لم يغب عن ذهني ذلك ولهذا سوف أبعث مشتلين عوضاً عن المشتل الواحد من (البار) الذي لا يثمر ، ومن فـوره بعث منصور أجيره حاملا المشتلين فوق ظهر الجمـل وركب هو مطية أخرى ليقدم هديته للأمير .. ولكن عندما دنا من قصر الامارة سمع صياح النساء وعويل الأطفال من كل جانب.. كما سمع من الجانب الآخر الزغاريد وعلامات الاستبشار والفرح، فوقف مندهشاً ومذهولاً وحائراً بين هاتين الظاهرتين المتباينتين . ولكن ذهوله لم يستمر طويلا وحيرته لم تتجاوز فترة قصيرة حتى سمع المنـادى يعلن بصوته الجهوري من أعلى منارة في القصر النبأ الذي يعبر عنه فيالعصر الحديث في حالات الانقلابات باسم (البيان رقم واحد) .

وكان اللفظ الذي ينادي به صاحب الصوت كما يلي :

– ان المشيخة والحكم لمحمد العبـد الله وان بندرا غدر بعمه متعب وقتـله ظلماً وعدواناً وانه لقي جزاءه على يد شقيق متعب محمد الذي انتقم من القـاتل وجازاه من جنس عمله .

وعندما سمع منصور هذا النبأ ، أمر العامل ان يطرح مشتليه بالفلاة وان يعود الى المزرعة ، بينما جلس في المدينة ولم يعد الى أهله الا بعد ان جـدد العهد للحاكم الجديد تمشياً مع التقاليد المتبعة والأصول المرعية في حالة تغير حاكم قديم ، ومجيء حاكم جديد .

ثم عاد بعد ذلك الى أهله ، فكانت نبؤته قد جاءت وفقاً لما أكده ، فأصبحت حديث الموسم في تلك الأيام ، وهي الآن موضوعة ضمن التنبؤات العربية مـــن شيم العرب بعد ان مضى قرن بعد حدوثها .

اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله

(حديث شريف)

- ٣٨ -

يوجد في العرب رجال ذوو علم راسخ وخبرة واسعة في معرفة الرجـــال خاصة اذا كانوا في سن المراهقة او مـــا دونها قليلا .. فهناك رجال لهم خبرة واسعة في معرفة الخيل ، وليس المقصود هنا عن الخيـــل معرفة الفرس السباقة فهذه قد يصيب فيها حتى النفر الذين لم يكونوا من ذوي الاختصاص ، ولكن الشيء الذي يثير الانتباه هو ان هناك من العرب يعرف الفرس المشؤومة ، فمثلا تجد عربيا من المختصين بمثل هذه الناحية بمجرد ما ينظر الى فرس يقول لك هذه الفرس سوف يقتل على ظهرها فارس او فارسان أو يجرح على ظهرها كذا .. وكثيرا ما يصيب هذا بتكهنه .. هذا من ناحية معرفة الخيل ، امــا التنبوء والفراسة بمعرفة الفتيان ، فان هناك ايضاً رجالاً ذوي خبرة واختصاص في هذه الناحية وان كان ذوو الاختصاص بمعرفة المشؤوم بصورة خاصة بالخيل اشهر من المختصين بمعرفة الموفق من المشؤوم من الرجال كما ان الاولين غالبا ما يكونون على صواب في رأيهم اعني المختصين بمعرفة الخيل .. ومدار البحث هنا يدور حول التنبآت في معرفة الرجال .

عندما استولى محمد بن رشيد على امارة حائل ثم بسط نفوذه على قسم كبير

من شمال شبه الجزيرة وقسم من جنوبها شرقها ، لم يكن وقتهــا يخشى من اية اسرة عربية تنافس امرته على السيادة اللهم الا آل سعود الذين لاهلهم اسبقيــة الحكم عليه او الذين بصورة اوضح لم تأت امرته للحكم في بداية تكوينها الا عن طريق اسرة آل سعود .. وهذا مما يجعل الامر طبيعيا بالنسبة لحمد الرجــــل الداهية العاقل فيما اذا رأى نفسه ملزمـــا ان يأخذ للأمر حيطته ويعمل الف حساب وحساب لمراقبة وسير حركات رجال هذه الاسرة وكان خوفه من نبوغ فتى من فتيان هذه الاسرة اكثر بكثير من خوفه من رجال الاسرة وكهولها الذين سبق ان عرفهم وادرك مدى تفوق حظه عليهم .. وبمــا ان اسرة آل السعود وقتها كانوا في الكويت وخاصة الامام عبد الرحمن الفيصل الذي يعتبر الوارث الشرعي لحكم آل السعود فان شبح الفتية الذين من صلب عبد الرحمن هو الذي ظل يلاحق الامير الرشيدي الامر الذي جعله يفكر طويلاً في هــــذه الناحية ، وأخيراً هداه تفكيره الى ان يختار شخصاً من الراسخين علماً بمعرفة الرجال ذوي الخبرة الفسيحة بتحليل شخصيات الفتيان ، فوقع أختياره على شخص من ابرز شخصيات مدينة حائل وهو (علي الجراد) الذي سوف أتحدث عن ترجمة حياته في نهاية هذا البحث .

عند ما انتخب الامير محمد علي المجراد لهذه المهمة قال له انني سوف انتدبك لمهمة ذات طابعين : طابع ظاهري وطابع سري .. فاما الطابع الظاهري فهو التظاهر امام الناس انك مسافر الى الكويت لتحمل رسالة لامير الكويت الشيخ مبارك الصباح وهذه الرسالة وان كانت سلبية جوفاء ولكنها كافية لتكون مبرراً لمهمتك الاساسية التي ستكون سراً مبهماً بيني وبينك .

علي المجرد – ما هي الرسالة السرية اطال الله عمرك .

الامير – الرسالة سرية كما ذكرت لك وستكون سراً بيني وبينك .

علي – انا يا طويل العمر رجل صريح ولا اصلح للقيام بالاعمال التي لهــــا بينة وخفية .

الامير – انا اعرف الناس بخلقك ولذلك من المستحيل ان انتخبـك دون غيرك الا بعد ان نقبت عن الكثير من رجالي الذين يصلحون بمثل هذه المهمة فلم اجد من يقوم بها خير قيام سواك فانت الوحيد الذي استطيع ان اعتمد عليه بمثل هذه المهمة .

علي – لو امرتني ان اذهب الى مغامرة اعتقد انني سوف الاقي حتفي فيها فانني سوف اذهب راضياً بدون ان ابدي ادنى تردد ولكنني اتردد في قبول هذه المهمة لكونها ذات وجهين علنية في ظاهر امرها امام الناس وفي باطن أمرها سرية ومكتومة الى ابعد حدود الكتمان . وهذا ما يجعلني اخشى ان تكون هذه المهمة مهمة تجسس تلك السجية التي تتنافى وشيمتي كل المنافاة..؟

الامير – وهل تظن انني اذا اردت ان انتدب للتجسس احداً لا اجد من يقوم بمثل هذه المهمة ويؤديها على اكمل وجه دون ان اختارك لمهمة التجسس التي اعلم انها لا تنسجم مع خلقك ، ولكنني اخترتك لمهمة وان كان الامر يقتضي الآن ان تكون سرية ولكنها في الحقيقة ليست سرية ، اللهم الا في نطاق محدود اي في اثناء رحلتك . واما بعد عودتك فان شئت ان تعلنها فلك ان تفعل وان شئت ان تخفيها فالامر متروك لك . .

علي – هانذا مستعد للسفر في أي يوم تأمروني فيه .

الامير – بقدر ما يمكنك من السرعة .

علي – بامكاني ان اسافر غداً لانني لا ارى ما يدعو الى التأخير مـا دام الامر يهمكم الى هـذا الحد .

الامير – بورك فيك وغداً سوف اشرح لك المهمة التي ندبتـك لها وان شئت ان اخبرك بها الان فلا مانع عندي .

علي – ليكون شاكراً لكم اذا شرحتم لي مهمتي بوضوح لكي يطمئن قلبي .

الامير - الا تعلم انه لا خوف عليّ من اي زغيم ينافسني السيادة في نجد سوى آل السعود ؟

علي – هذا شيء مفروغ منه..

الامير – ولكنني مع ذلك لا أخشى أبداً من أي واحد من رجال آل السعود الذين تتجاوزوا سن الفتوة لانني قد عرفتهم جيداً وادركت ان لا خوف علي من اي واحد منهم وانما الذي اخشى منه هو نبـــوغ فتى من فتيانهم الذين لا اعرف مدى تفوق حظي عليه .

علي – وماذا تريد ان افعله حيال ذلك ؟؟

الامير – اريدك ان تذهب للكويت بمهمة ظاهرها يوحي بحمل رسالة للشيخ مبارك الصباح كأنها ذات اهمية وبال وباطنها المتوارى هو ان تسبر لنا غور ابناء الامام عبد الرحمن بن فيصل آل سعود وهما محمد الذي أخواله آل جلوى وعبد العزيز الذي خاله السديري هذان الفتيان هما حالياً انهد ابناء الامام عبد الرحمن الفيصل، ولكنني لا اعلم مدى كل منهما بالنجابة ، فأريد منك ان تظـــل في الكويت المدة الكافية التي تمكنك من الاحتكاك بهما عن كثب وبالشكل الذي يخولك كشف نفسية كل منهما وتشخيص امكانياتها من شتى الوجوه وعليك ان تخلق الوسائل التي تبرر زيادة مقامك في الكويت فيما اذا استعصى عليك الوصول الى معرفة شخصية الفتيين في امد قريب.

علي – ان كل شيء يمكن معرفته بعد التمحيص والامعان الا معرفــة كنه حقائق الرجال، فان ذلك تضيع فيه المفاهيم، وليس من السهل ان يحكم المرء على شخص ما بمجرد جلسة يوم او يومين وانما يحتاج الامر الى خبرة عملية وامتحان طويل .. وبعد ذلك يمكن للمرء ان يحكم برأيه بعد التجربة الطويلة وهذا الحكم

ايضاً قد يكون صواباً وقد يكون شططاً وجنوحاً (١) هذا بالنسبة للرجال المجربين الذين تجاوزوا سن الفتوة .. فما بالك بالحكم على الفتيان الذين مواهبهم لا زالت كامنة ولم تصقلها التجارب بعد .

الامير – انني عندما اخترتك دون سواك من رجالنا الكثيري العدد انما هو لاجل ثقتي بقدرتك على تحليل شخصية الفتى الذي لا زال مجهول المستقبل خاصة من اسرة آل السعود اما الرجال الكهول فقد كشفهم لنا الزمان .

علي – سوف افعل جهدي بتنفيذ ما امرتني به والتوفيق بيد الله .

الامير – اذهب على بركة الله .

وودع علي الامير محمدا وذهب الى الكويت ممتطيا راحلته يصحبه اربعة من رجاله وهم الطاهي وصاحب القهوة والبدوي المختص بحفظ الرواحل ورعايتها وصاحب شداد (الراحله) اي مرافقه الخاص . لقد قطع الارض البعيدة المدى الكائنة بين مدينتي حائل والكويت بأقصر مدة يمكن أن يقطعها مسافر بسرعة كسرعته وما ان وصل الكويت حتى نزل ضيفاً عند الشيخ مبارك الصباح الذي استقبله استقبالاً حافلاً بالعناية والاكرام .. ثم قدم الضيف رسالة الامير التقليدية التي لا تخلو من ان يكون فيها من المعاني ما يوهم القارىء بأنها ذات اهمية الأمر الذي جعل الشيخ مبارك الذكي الداهية لا يخطر بباله بأن هذه الرسالة ليست الا وسيلة لا غاية . لقد ظل (علي الجراد) موضع حفاوة وعناية عند الشيخ مبارك وفي اليوم الثالث لقدومه استأذن الجراد من الشيخ مبارك لزيارة الامام عبد الرحمن الفيصل آل سعود بحجة انه اي الامام عزيز قوم

---

١ -- من أرسخ الرجال الذين عرفتهم علماً بتشخيص الرجال هو الشيخ خالد (ابو الوليد) القرقني مستشار المرحوم الملك عبد العزيز آل سعود ومن المجاهدين الليبيين القدامى . لقد اكد لي ذلك الشيخ المحنك انه صاحب رجلا ما - ثلاثين سنة - وبعد هذه المدة اتضح له ان لدى هذا الرجل حقيقة غير الحقيقة التي يعرفها عنه خلال تلك المدة الطويلة .

وسلالة حكامه الاسبقين فمن المرؤة احلاله عملا بقول الشاعر حسان بن ثابت :

نسوّد ذا المال القليل اذا بدت　　　مرؤته فينا وان كان معدمـــا

فلم يتردد الشيخ مبارك عن الموافقة على طلب ضيفه حيث بعث من رجاله مرافقا من اجل ان يدله على منزل الامام ، ومن هنا بدأت المسرحية .. لقد تظاهر الرجل بكثير من الاجلال والتقدير للإمام واسرته كما اكد للامام عبد الرحمن بأن وفاءه لحاكمه الحالي اي ابن رشيد لا يتنافى ابـداً عن وفائه لحكامه واحترامه لحكام وطنه السابقين آل السعود وان الشيمة العربية تقضي باحترام ذوي الجد السابق والسيادة القديمة .. ولما كان ابن مجراد من الرجال المعروفين بالشهامة العربية وبالمروءة الجمة فان كل ما يتظاهر به من هذه السجـــايا التي يفرضها خلق العربي الكريم تكون من مثل ابن مجراد طبيعية لا تستغرب ممـــا جعل زيارته للامام ولابناء الامام تتكرر بصورة مقبولة حتى اصبح بينه وبين الامام وابنيه عبد العزيز ومحمد الفة ووئام كلما زادت الايام زادت هذه الالفة بقدر ما يزداد الرجـــل فراسة ودراسة لنفسية الفتيين .. ولكن المشكلة التي اصطدم فيها الرجل وجهاً لوجه هو انه وجد الانظار كلها متجهة نحو احد الفتيين بما في ذلك والدهما الامام بينما فراسته وتنبؤاته الخاصة كلها عكس ذلك فظل الرجل في حيرة من امره الامر الذي جعله يضطر الى ان يهتبل وسيلة تبرر له تمديد اقامته لكي يصل الى نتيجة اكثر وضوحاً مما وصل اليه وقد فعل الرجل ذلك ولكن طول المدة التي قضاها لم تبدل شيئاً من نظريته الاولى التي كانت على طرفي نقيض من نظرة الرجال المحيطين بالفتيين وكلما اطـــال المدة ، وزاد احتكاكه بالفتيين الاخوين عبد العزيز ومحمد زاد اعجابه بالاول الذي منصرفة عنه الانظار ومتجهة كلها نحو الثاني بما في ذلك والدهما كما ذكرنا انفا وبالتالي قرر العودة الى اميره ليحمل له الرأيين المتضاربين فذهب الى الشيخ مبـــارك ليستأذن منه بالعودة الى اميره ، فاذن له مبارك واودعه رسالة كجواب على رسالة الامير ، فخرج الرجل من مدينة الكويت مع رفاقه الاربعة فوصل مدينة

حائل عاصمة امارة الرشيد بسرعة لا تقل عن سرعته عند ذهابه للكويت فقابله الامير الذي كان ينتظر عودته بنارغ الصبر مقابلة ودية ثم خلى به على الفور سائلا اياه عن نتائج مهمته :

فقال علي : انني في الحقيقة لا زلت في حيرة بين ابني الامام ..

الامير ـ ما هو مصدر حيرتك ؟

علي ـ ان مما وضعني في حيرة هو ان انظار الرجال المحيطين بالامـــام كلها متجهة نحو محمد ، والذي زادني حيرة في امري هو انني اشعر ان الامام عبد الرحمن الفيصل نفسه يشارك رجاله الاعجاب بمحمد ونظرة الوالد عادة تكون هي الحكم الفاصل بالنسبة لابنائه .

الامير ـ حقاً ما تقول فانه ادرى الناس بمعرفة ابنائه وانما الذي اخشاه ان محمدا يفوق اخاه عبد العزيز بالعمر وعادة ينظر الاكبر بعين الاعتبار بحـــكم فارق السن .

علي ـ من حيث فارق السن لم يكن بينهما ما يدعو الى ذلك فقد سألت عن هذه الناحية واخبرت بأن الفتيين متقاربان بالعمر بحكم ان كل واحد منهما من ام ولكن القضية فيما يبدو لي انها قضية خلاف بعيد وبون شاسع بين رأي كل من حاشية الامام والامام نفسه وبين رأيي الخاص .

الامير ـ دعني من رأي الحاشية ومن رأي الوالد الذي عادة ما يكون اعلم من غيره بالنجيب من الخامـــل من ابنائه ، دعني منهم جميعـــاً ووافني برأيك الخاص .

علي ـ الذي اراه واكاد ان اجزم به حسب خبرتي وتجاربي التي قـــل ان ان تخطيء بهذا الشأن وما اقوله باختصار بالنسبة للمهمة التي انتدبت من اجلها

هو انه لا خوف على حكمكم من خطر يهدد كيانه الا من عبد العزيز الذي لم تكن الانظار متجهة اليه الآن بقدر ما هي متجهة الى اخيه محمد .

الامير ـ ان الذي يهمني في الموضوع هذا بالذات هو رأيك الخاص .

علي ـ من حيث رأيي الخاص فهو كما أوضحته لطويل العمر فقد اكون مصيباً وقد أكون مخطئاً . ولكن بالنسبة لفراستي وتجاربي الطويلة التي استند اليها دائماً في تحليل شخصيات الرجال والفتيان معاً بالنسبة لذلك فانني أجد أن بين جنبي الفتى عبد العزيز قلباً المعيا ونفساً لا يقف مدى طموحها عند حد وروحاً تتجسد في جوانحها صفات الزعامة بكل معنى من معانيهذه الكلمة . .

الامير ـ انني اذ اشك في اخلاصك فبمعنى ذلك انني اشك حتى في نفسي ولولا اخلاصك أولاً ثم مقدرتك على معرفة تحليل شخصية الرجال تلك القدرة التي لا أعرف أحداً من رجالنا يشاركك بها ، لولا هذه وتلك لما اخترتك على غيرك ووكلت اليك أمر هذه المهمة دون سواك .

وبعد فان علي الجراد لقي حتفه رحمه الله في المعركة المساة بالطرفية وهناك من يسميها بالصريف تلك المعركة الطاحنة الواقعة بين المرحومين عبد العزيز المتعب بن رشيد وبين مبارك الصباح من جانب آخر وقد انتصر فيها الاول انتصاراً كان بداية النهاية وذلك في عام ١٣١٨ هـ . (١)

***

علي من ساكني مدينة حائل او ما يقال عنها في كتب الادب العربي جبلي طيء وينتهي الى اسرة مفهومها الشامل تدعى (الجرى) ومن الجرى تتفرع

١ ـ ولا بد هنا من ان اشير الى شيء من ذكر الصفات التي كان يتمتع بهـا علي الجراد تلك الصفات التي تفرض لصاحبها الوقار والاحترام . .

عائلته المسماة بالجراد كما يتفرع منها اسر عديدة كالزيد الذين منهـــم السفير المرحوم عبد العزيز ابن زيـــد وكثير من الأسر في حائل ، فالرجل كان مثالاً للوقار والشجاعة الحربية والجرأة الأدبية وله في كل من هذه وتلك مواقف بالغة الروعة وكان الاحرى ان افرز لكل من موقفه البطولي الحربي وموقفه الادبي الجريء الصريح زاوية مستقلة في باب الشجاعة الحربية والادبية اسوة بالقصص الاخرى التي لها طابع منسجم مع هاتين القصتين ، ولكنني لم ارد ان اشتت ذهن القارىء واختصاراً للموضوع طاب لي أن آتي بقصة لعلي الجراد تعيد إلى أذهاننا مما قرأناه عن تاريخ العرب وبطولاتهم وخاصة مـا ذكره المؤرخون عن موقف (ابي جهل) عندما صرع في معركة بدر وجاءه عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه وهو يلفظ آخر انفاسه ويتخبط بدمه فما ان رآه بن مسعود حتى وثب عليـــه واعتلى ظهره قائلاً : ابا جهل رأس الشرك شكراً لله الذي مكنني منـــك .. فأجابه ابو جهل قائلاً : لقد ارتقيت مرتقى صعباً رويعي الغنم فقال ابن مسعود رفعني الله بالاسلام كما اذلك بالكفر .

ابو جهل - لمن النصر اليوم .

ابن مسعود — لله ورسوله يا عدو الله .

ابو جهل — ما هذه الخيل البلق التي يحاربنا اهلها بجانبكم .

ابن مسعود — هؤلاء ملائكة الرحمن يا مشرك ..

ابو جهل — اما الان فقد طاب لي الموت ما دمت حاربت فرسان الارض وفرسان السماء ..

ان ما وقع بين ابي جهل وبين ابن مسعود يكاد ان يكون صورة طبق الاصل لما حدث به علي المجراد بن اخيه خالد وهو في اخر رمق من حياته واليـــك الحادثة كما وقعت بل كما رويتها من المرحوم خالد المجراد ابن اخي صاحب الترجمة والشاهد العيان في الحادثة نفسها التي نقلتها منه على الوجه التالي :

يقول خالد : عندما حمي الوطيس بين جنود مبارك الصباح وبين جنود عبد العزيز ابن متعب الرشيد ، والتقى الفرسان بالفرسان ، وانقطع صوت لعلعة البنادق ولم يكن ثمة صوت سوى صرير السيوف ، وقعقعة الرماح ، وصهيل الخيل ، وعويل الجرحى ، وشهيق القتلى ، عندما يلفظ احدهم نفسه الأخير ، في تلك اللحظة العنيفة الحاسمة أصيب علي الجراد بجرح خطير لقي حتفه على أثره بدقائق معدودة ، وقبل أن تقبض روحه أحاط به الفرسان من بني عمه الأقربين ومن بينهم خالد راوي الحادثة ، فلما دنوا منه قال احدهم : نرجو ان تكون إصابتك إصابة سليمة . فقال الجريح وهو في آخر رمق من حياته : اعتقد انني مفارق للحياة ولكن الذي يهمني كسب المعركة أهل هي لنا أم للعدو ؟ أكد لي الراوي أنه عندما سأل عمه ذلك السؤال كانت رحى الحرب دائرة بين الفريقين بالسلاح الأبيض ، وكانت بوادر الفوز وأدلة النصر توحيان بأن المعركة على وشك أن يكسبها ابن رشيد ، ولذلك يزيدني الراوي تأكيداً بأنه أجاب عمه قائلا : أبشرك يا عم ان رجالنا بدأوا يتقدمون بخطى وئيدة نحو صفوف العدو ، كما أن جيش العدو بدأ يتراجع القهقرى . . .

علي : أعد النظر يا بني هل تحقق لنا النصر . يقول خالد بين السؤال الأول والسؤال التالي كانت لحظة وجيزة هجم بها رجالنا على فرسان العدو هجوماً اكتسحوا به جيشه واخذت راياته ، ساعتذاك كان الجواب مني لعمي هو قولي : اجل لقد ربحنا المعركة وها أنذا انظر جيوشنا قد هزمت جيش العدو واغتنم فرساننا راياته . . .

علي : اذن اسندني اليك يا بني ، لانظر بعيني رأسي زحف جيشنا الظافر لكي أموت منتصراً قرير العين .

خالد : كما تأمر يا عم .

حدثني خالد ان آخر كلمة نطق بها عمه بعد التشهد هو ان قال : الآن طاب

لي الموت بعدما هزمنا العدو .

وهكذا نجد ان تاريخ شجعان العرب يعيد نفسه في كل مكان وزمان ، فان اختلفت الوسائل والاسباب بين قتيل بدر الذي يقول لقد طاب لي الموت بعد ان قاتلت فرسان السماء وفرسان الارض ، فانها لم تختلف هذه الوسائل من حيث المعنى بين قتيل (الطرفية) الذي يقول : الآن طاب لي الموت الخ ...

لا يعرف الفضل إلا ذوو الفضل

- ٣٩ -

كما أن للورد أناساً مختصين بمعرفة النوع الطيب منه من النوع الرديء ، بحاسة الشم فقط ، وكما أن للاحجار الثمينة قوماً ذوي خبرة يميزون بين الاصيل منها وبين التقليد ، بحاسة اللمس ليس إلا ، كذلك هناك رجال يميزون بين الاشخاص العاديين ، وبين الاشخاص الأفذاذ ، بمجرد الرؤية . وليس غريباً تشخيص المرء وتحليل نفسيته بمجرد رؤية العين له بهذا العصر ، لا ليس الامر غريباً في جيلنا المعاصر ، وفي عالم الحضارة . والسبب أن هذا الفن أصبح علماً قائماً بحد ذاته ، وهو ما يسمى بـ (علم النفس) . ولكن موضوع الغرابة أننا نجد بدوياً أمياً لا يعرف حرفاً واحداً من حروف الهجاء ، ومع ذلك يكون لديه موهبة خاصة ، وفراسة راسخة بمعرفته للانسان لأول وهلة يقع نظره عليه . واليك شاهداً واقعياً لا يقبل الجدل ولا مجال للشك فيه .

من المعروف أن الصراع القبلي كان قائماً على قدم وساق ، بين قبيلة وقبيلة في شبه الجزيرة العربية ، الى أن قيض الله تعالى المرحوم الملك عبد العزيز ووحد البلاد ، وانتهى ذلك الصراع المرير والقتال المستمر ، والغزوات المتوالية ، بين كل قبيلة واخرى ، وكم أزهق من الارواح واستبيح من الاموال ، في العهد الذي

ذهب وولى الى غير رجعة، وكم كنت اتمنى بل وعشرات الملايين من ناطقي الضاد يتمنون معي أن يهيىء الله لامتنا العربية من محيطها الى خليجها من يوحدها ، كما وحد المرحوم جزيرة العرب . ومما لا شك فيه أن من ينظر الى وضع عالمنا العربي نظرة موضعية يجد أن عوامل التفرقة التي توحي بالتشاؤم – اكثر من عوامل التفاؤل. ولكن الذي ينظر لتاريخ الامم التي اتحدت بعدما كانت مجزأة تجزئة أكثر بكثير مما نعـانيه الآن من التفرقة والتجزئة والشقاق ، بل الذي يرجع البصر كرة اخرى الى ما كانت عليه شبه جزيرة العرب التي بلغت من التجزئـة أكثر من احدى عشرة وحدة سياسية ، ومع ذلك سنحت الظروف المؤاتية لذلك البطل أعني الملك عبد العزيز آل سعود – فوحد تلك الوحدات المتفرقة ، بعد كفاح طويل ، وبعد قتال مرير ، دفع ثمن لهذه الوحدة المباركة ، نفوس ودماء زكية من شتى رجال البلاد كقربان لهذه الوحدة المنيعة الجانب ، اذ لا شيء يأتي بلا ثمن (ومن طلب الحسناء استرخص المهر) .

أقول عندما ننظر الى تاريخ جميع الامم والدول التي اتحدت بعدما لاقت من مرارة التفرقة ، أكثر الف مرة مما لاقيناه سابقـاً وما نلاقيه الآن ، فاننا سوف نتفاءل خيراً بأن الوحدة العربية آتية لا محالة بعون الله ، ومشيئته . وانمـا القضية قضية زمان ليس إلا ، ولم تكن نظرتي هذه مجرد أمنية ، أو تنبؤ بمـا سيكون ، وإنما هي نظرية مبنية على دراستي لتاريخ الامم المتحضرة كالولايات المتحدة الاميركية وألمانيا ، وروسيا وسويسرا الخ ... كل من هـذه الامم مرت بنفس المرحلة التي تمر بها أمتنـا العربية، واجتازت نفس الظروف والمحن التي تجتازها أمة « الضاد » ...

وبعد فانني ارجو ان يعذرني القـارىء فيما اذا وجدني أبعدت عن نطاق البحث الذي نحن بصدده . وذلك أنني عندما جئت الى ذكر تاريخ جزيرتنـا العربية ، وذكرت ما ابتلينا به سابقاً من تلك التفرقة البغيضة ثم أعدت النظر الى ما تعانيه أمتنا العربية بمفهومها الشامل العام في هذه الفترة الراهنة ، عندئذ

اتضح لي جليا أن تاريخنا الماضي الخاص ، متصلا اتصالاً لا ينفصل عن تاريخنا المعاصر العام بصورة عامة ، الأمر الذي جعلني عندما جئت الى ذكر تلك الحقبة من الزمان أرسلت قلمي بلا شعور. وها أنا ذا الآن اعود الى تكرار الجملة سالفة الذكر فأقول : عندما كان ساكنو الجزيرة متفرقين وسلطان القبيلة هو السائد ، والحكم لمفتول الساعد، وجريء القلب ، وكثير العشيرة . في تلك الفترة غزت قبيلة مطير قبيلة عتيبة ، ونهبت منها إبلا . وكانت قبيلة عتيبة سبق أن سبرت غور قبيلة مطير ، وعرفت كل ما أعدته القبيلة الغازية من عدة ، دقيقها وجليلها ، وعلمت عدد الغزاة ، وعدتهم. ولذلك لم تكن الغارة التي صبتها القبيلة الغازية مفاجأة للمغزو ، بل كان العتبان قد أعدوا العدة الكاملة لمواجهة قبيلة مطير . واتخذوا كل ما ينبغي اتخاذه من الاحتياطات اللازمة . حيث حشدوا فرسان القبيلة عن بكرة أبيها،في الحين الذي لم تحشد قبيلة مطير جميع فرسانها، لهذه الغزوة ، كما فعلت عتيبة ، مع العلم بأن رجال الاخيرة أكثر عدداً من الاولى ، حتى ولو قدر لها ، اي الاولى ان تحشد جميع رجالها فانها لا تعادل قبيلة عتيبة (برقاها وروقتها) وبالاضافة الى كثرة عدد فرسان(العتبان)الزائد العدد على (المطران) ، نجد أن العتبان رسموا خطة محكمة من شأنها ان يقع فرسان مطير بيد العتبان . ولكن كما ورد في المثل الشعبي (الكثرة غلبت الشجاعة) فما بالك اذا اضيف الى الكثرة الشجاعة. . .وهكذا لم ينج من قبيلة مطير الا القليل . اما الاكثرون فان منهم من قتل ومنهم من وقع أسيراً ، بعد ان طرح أرضا عن فرسه . والاسير في هذه الحالة يكون تحت رحمة آسره - اي ان شاء قتله ، وان شاء عفا عنه - هذا وقد سيق الاسرى جميعهم الى بيت أمير قبيلة عتيبة لينظر في أمرهم . وكان من بين الاسرى رجل من أسرة الدوشان التي لها الزعامة المطلقة في قبيلة مطير وهو مطلق بن الجبعاء ، وهو غير مطلق بن الجبعاء المتوفي عام ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٤ م. هذا الاخير مسمى على الاول . ومن المعروف أن البدو لا يتميز بعضهم عن بعض في الهندام ، ولا بأي مظهر من المظاهر التي يمتاز بها أميرهم عن بقية رجالهم العاديين ، فهم من هذه

الناحية يمثلون الديموقراطية بكل معنى من معانيها . وكان ابن الجبعاء يحاول ما استطاع أن يخفي نفسه اعتقاداً منه أن متى ما عرفه العدو فانه سوف يضاعف عليه العقاب ، ولكن جهوده التي بذلها بهذا الشأن لم تحل دون معرفة ذوي الفضل لأهل الفضل ، أو معرفة ذوي الخبرة والفن بتحليل شخصية الرجال . ذلك أنه بجرد ما جاء الى نادي أمير عتيبة شيخ من الرجال ذوي العلم الفطري بمعرفة انواع الرجال ، والقى نظرة الى الاسرى ، صاح بأمير عتيبة قائلاً (١) إن بين الاسرى رجلاً ليس بالعادي . ثم أشار بيده الى مطلق قائلاً : (هذا الرجل ، إما أن تذبحوه والا ان تذبحوا له) . معناه : إما أن تقتلوه او أن تنحروا له ناقة من خيرة الإبل . (يشير هذا البدوي الأمي) الى المعنى الذي نوه عنه الشاعر بقوله :

ونحن اناس لا توسط بيننا
لنا الصدر دون العالمين أو القبر

وقد كان رئيس قبيلة عتيبة (الذي لم يردني اسمه هو الآخر) أكرم نفساً من أن يتخذ مع ابن الجبعاء الاولى « أي قتله » بل راح ونحر له ناقة من أطيب النوق وقدمها له . ضيافة بدون ان يعرفه انه من أمراء قبيلة مطير ، بل ومن فرسانها البارزين ، وإنما الأمر لا يعدو من ان يكون مجرد فراسة وتنبؤ من ذلك الشيخ الذي لم يخطىء في فراسته بمعرفة الرجال . كما ان ابن الجبعاء لم يعلن عن نفسه حتى عاد الى اهله معززاً مكرماً . وهناك رفع راية الثناء العاطر والشكر الجزيل لأمير قبيلة عتيبة وللشيخ الداهية الجليل الذي صدقت فراسته بمعرفة الرجال (٢) .

---

١ - لم يردني اسم ذلك الشيخ العراف وذلك لبعد عهد الحادثة .
٢ - القصة مشهورة .

تنبوآت الأدب

– ٤٠ –

كل من يعرف تاريخ حياة الشاعر الشعبي محمد العبد الله القاضي (١) يعرف أنه لم يكن فقيراً ، بل الأدلة كلها تفيد بأن الرجل كان بالنسبة لرجال عصره يعتبر ثرياً ، وأنه كان يقرض الناس . وقصته معروفة مع الرجل الذي أقرضه دراهم لمدة معينه ، ثم مضت المدة ولم يسدده حسابه . وعندما طالبه القاضي بتسديد ما في ذمته تطاول عليه وأسمعه كلاماً لاذعاً ، فارتجل القاضي بيتاً بنى عليه فيما بعد قصيدته الميمية المليئة بالمواعظ والحكم والتي كان مطلعها :

أفكرْت بالدنيا وهَيّضت مَكتومْ
ما حنْ في لِيحان قلبي وحام

---

١ ـ محمد العبد الله القاضي من مدينة عنيزة ، وهو من أشهر شعراء شبه الجزيرة النجديين ، وأعزهم نفساً ولم يكن مرتزقاً بشعره قط . وكان شعره في أول شبابه بالغزل وفي آخر حياته كان شعره مطبوعاً بطابع الحكمة والموعظة .

واليك البيت الذي ارتجله القاضي عندما تطاول عليه الرجل سالف الذكر :

من يبذرْ المعروفْ بالنذلْ مليومْ
خاب وخسرْ من يبذره باللئّامْ

وكذلك قصته مع الفلاح (عكوم) (١) المشهورة ، كل من هذه وتلك تزيدنا يقيناً بأن القاضي كان وضعه الاقتصادي طيباً بل ثرياً ، ومن يتتبع أدبه يجده لم يكن محترفاً للشعر . ولم يفد الى الحكام والامراء بشعره ، بالرغم من أن الشعراء في عهده كانوا محترمين ، وبالرغم أيضاً من أنه كان شاعر عصره بلا منازع .

أما القصيدة التي أنشدها في طلال العبد الله الرشيد أمير حائل الكائن تاريخها في ١٢٨١ هـ . هذه القصيدة لم يكن القاضي قاصداً من ورائها الكسب المادي ، إذ لو كان الأمر كذلك لذهب يمتدح الامام فيصل بن تركي آل سعود الحاكم العام على نجد بكاملها ، وعلى هذا الاعتبار أصبحت الصلة التي بين القاضي وبين أمير حائل طلال صلة أدبية فقط ، لا علاقة لها بالمطامع المادية ، ولا علاقة لها أيضاً بقرب النسب وإنما هي قرابة الأدب التي قال عنها الشاعر العربي :

وقرابة الآداب تقصر دونها
عند الاديب قرابة الأنساب

وعندما غزا طلال بن رشيد الجوف في عام ١٢٨١ وعاد منتصراً وجد القاضي انها فرصة طيبة يبعث بمناسبتها قصيدة شعبية أشبه بما يعبر عنها

١ ـ عكوم من فلاحي مدينة عنيزة ولا اريد ان اشرح قصته لانها طويلة وتبعد بنا عن الموضوع الذي نحن بصدده .

بعصرنا هذا بالتهنئة . والقصيدة من عيون قصائد القاضي ، بل وفيها بيت يحتوي على ثمانية من النعوت كلها إطراء لطلال ، بصورة لم يسبق لشاعر من الشعراء الشعبيين أن جاء بتعداد الخصال التي جاء بها القاضي في ثنائه على طلال بالبيت الآتي :

صميدعٍ ١ صنديد ٢ قرْمٍ ٣ عنيدِ ٤
شهمٍ ٥ وفيْ ٦، هيلعي ٧، ووهّابُ ٨

والقصيدة أكثر من ثلاثين بيتاً والذي يهمنا الان هو ذكر الشاهد في الموضوع . ولذلك سوف أختصرها ما استطعت ولن آتي إلا بأربعة أبيات منها ، فقط مبتدئاً بمطلع القصيدة والأبيات الثلاثة التي تليها ، واليك مقدمتها :

طلال لو قلبكْ حجَر أو حديدِ
أمداه من حامي وطيس الوغى ذاب

الشرح : يمتدح الشاعر صديقه طلالاً على شجاعته ويقول : إن قلبك الكبير الذي تخوض به المعارك وتجابه به الخطوب والملمات لو كان حجراً أو حديداً لما وسعه إلا أن ينصهر ويذوب كما يذوب الملح بالماء :

كسيتُ حكمكْ ثوب عزٍّ جديد
وسلبت حال أعداك يا عز الاقراب

يقول : انك ألبست أمارتك حللاً قشيبة من العز والمجد والسؤدد ، كما أنك في الوقت ذاته قضيت على معنوية أعدائك وقتلت حيويتهم :

بحرب وضرب شاب منه الوليدِ
يا طِيبٌ من عاداك يوم ولا شابْ

ـ يقول : إنك لم تنل هذا العز والمجد إلا بعد كفاح وحروب شيب من هولها الأطفال ، وفي عجز البيت يقول : ما أشجع الرجل الذي يعلن عداءك يوماً واحداً ، ومن ثم لا ينقلب شعره أبيض من الشيب :

ـ ليتْ حُكمك عندنا يا لرشيدِ
ما كان يوخذ زملنا من وراء الباب

القصيدة كما ذكرت طويلة لا تقل عن ثلاثين بيتاً ومن أراد الاطلاع عليها فليراجعها في ص ١١٥ من الكتاب المسمى (ديوان الشعر العامي) الذي جمعه ونشره المرحوم خـالد الفرج ومما تجدر الاشارة اليه هو أن البيت الأخير لم يكن ضمن القصيدة التي في الديوان المذكور ، مع العلم أن البيت هو أشهر ما في تلك القصيدة ، بل هو بيت القصيد وعليه مدار بحثنا هذا ، لأن هذا البيت هو السبب الرئيسي الذي جعل هذه القصيدة تتطور من كونها قصيدة عادية لا تعدو أن تكون كسائر القصائد التي ينشدها شاعر ما ، ويرسلها لصديقه إلى أن تجاوزت الحد ، وأصبح لها أثر في نفس أمير عنيزة المدعـو زامل بن سليم ، ذلك الرجل الذي أثارت حفيظته هذه القصيدة أو بالأحرى البيت الأخير لأن معناه يشير بوضوح بأن الشاعر لم يقف به الأمر إلى إطرائه لصديقه طلالاً فحسب ، بل ذهب يستهتر بأمير بلاده وينال منه بصورة علنية قائلاً : كنت أتمنى أن تكون أنت الحاكم يا طلال لبلادنا . وفي الشطر الأخير من البيت يقول : لو صحت هذه الأمنية لأصبح لنا هيبة في نفوس أعدائنا ولما استطاع اعداؤنا ان ينهبوا جمالنا من بين أيدينا وعند أبواب بلادنا غير مبالين بنا . ويتضح لنا من معنى هذا البيت أمران : أولاً : ان القاضي ذو مكانة قوية في مجتمعه ولديه من الشعبية ما يجعل أمير عنيزة لا يستطيع أن يمسه بسوء .

ثانياً : إن القاضي لم يقصد بهذا البيت إطراءه لطلال أكثر من قصد تحميس أهل بلدته وإثارة نخوتهم وبالأخص أمير البلاد زامل بن سليم ، ومما لا شك فيه بأن معنى البيت يمس كرامة زامل مساً جارحاً ومن المعلوم ان زاملا من أفذاذ رجال نجد البارزين .

المكر الأدبي !!!

ولما كان زامل كما أشرنا من دهاة رجال الجزيرة في عهده كما أنه شجاع (١) وذو رأي سديد وفي الوقت ذاته شاعر وأديب فقد فكر أن يقوم بمكيدة يبطل بها مفعول القصيدة على الأفل ، فراح وبعث رسولاً من عنده يسبر غور القاضي ويترقب حركاته ليعرف من الرسول الذي سوف يبعثه الشاعر ليحمل قصيدته هذه الى صديقه تلك القصيدة التي كان لها صدى في الأوساط الشعبية في مدينة عنيزة ، وذلك لما للأدب من مكانة في نفوس المواطنين ، ولقد تم لزامل ما أراد حيث عرف الرجل الذي ندبه القاضي لحمل قصيدته ، وما ان تسلم الرسول القصيدة من صاحبها وامتطى راحلته قاصداً طلالاً في مدينة حائل ، ونزح قليلا عن البلاد حتى وجد رجال الامير زامل يترصدون له ، فأمسكوه وجاءوا به الى الأمير الذي قابل الرسول مقابلة لطف ورقة ولم يبد له أي شيء يوحي بالخوف أو عدم الاطمئنان ... وبعدما هدأ روع الرسول بادره زامل قائلا انه يريد ان يطلع على القصيدة ثم يعيدها إلى ما كانت عليه ، ولم يتأخر الرسول عن تنفيذ رغبة الأمير حيث سلمها له وعندما تناولها زامل شد عليها حتى انشق طرفها ومن ثم أبدى أسفه المصطنع أمام الرسول على ما بدر منه وفي الوقت نفسه استدرك وقال : من الأجمل أن ننقل القصيدة على ورقة سليمة لا تشويه فيها ، فرأى الرسول ان هذا رأي صواب ،

وعندئذ سر الأمير الداهية بوصوله إلى تنفيذ مؤامرته بكل سهولة وبدون أن يشعر الرسول بأدنى شك بها يحاك حول هذه القصيدة من غاية مكتومة ، فناول كاتبه كراسا وراح يملي عليه القصيدة كما قالها الشاعر بدون أدنى تحريف ، وعلى مسمع من الرسول إلى ان وصل الى آخر القصيدة عند ذلك أشار إلى احد رجاله بأن يشغل الرسول عن انتباهه للبيت الأخير الذي فيه (القنبلة الكبيرة) وعندما اشغل الرسول املي البيت الاخير الذي ادخله الامير زامل من عنده ، وكان البيت الدخيل منسجما كل الانسجام بالوزن والقافية وما من احد يستطيع ان يميز بين ما قاله القاضي وبين البيت الدخيل الذي جاء به زامل اللهم الا ذوو الاختصاص لا بمعرفة اسلوب الشاعر فحسب بل والراسخون علما بتحليل نفسية القاضي .

وهذا نص البيت الذي أدخله زامل في القصيدة :

أبي منك يا شيخ ميّة مجيدي

مع مشلح باشيخ ترى مشلحي ذاب

الشرح : يزعم الأمير زامل أن القاضي يقول في نهاية القصيدة أرجو أن يتفضل عليّ الأمير طلال بمائة مجيدي كما يمنحني عباءة لأن عباءتي التي لديّ اصبحت مهلهلة بائدة ...

فبعدما انتهى الكاتب من القصيدة تسلمها الرسول وامتطى راحلته وبعد أربعة أيام وصل مدينة حائل وحل ضيفاً على اميرها طلال بعد أن سلمه رسالة صديقه المتضمنة للقصيدة .

كان للشعر في ذلك العهد كما اشرت آنفاً مكانة مرموقة خاصة عند أمراء حائل ، لأن مؤسس الأمارة عبد الله كان شاعراً وشقيقه عبيد كان شاعراً ، وكان عبيد وقتها لا يزال على قيد الحياة وقصيدة تأتي من شاعر

كالقاضي عند هؤلاء سوف يكون لها أثر ملحوظ ؛ الأمر الذي جعل طلالاً وعمه يقرآن القصيدة بنهم وشوق ، وكان كل بيت من القصيدة يعيدانه أكثر من مرة مأخوذين بجزالة المعنى وقوة الاسلوب حتى وصلا إلى آخرها فوجدا ذلك البيت الذي حط من قيمة القصيدة ومن قدر صاحبها أيضاً ... فأخذتها الدهشة في بداية الأمر مستغربين ان يصدر هذا البيت من القاضي العزيز النفس الغني عن الاستجداء ، فساورهما الشك بأن يقول القاضي هذا البيت فذهبا ينظران الى الخط ليقارنا بين الأبيات التي في صدر القصيدة والبيت الذي في آخرها وعند ذلك ظهر لهما أن الخط واحد لا اختلاف فيه فأعادا النظر في القصيدة كرة أخرى وأخرى فوجدا أن مطلع القصيدة يحتوي على معان رفيعة في اطرائه لطلال ، وفي وسطها وصف رائع لانتصارات طلال في غزوته نحو الجوف وكلما امعنا النظر في القصيدة وجدا انها قصيدة بمنتهى الروعة لولا وجود هذا البيت الأخير الذي مسخ معانيها مسخاً .

اكتشاف الخدعة !!!

ولم يبقَ عندهما إلا التحقيق مع رسول القاضي والاستفسار منه عن الرسالة هل كانت من يده الى يد القاضي رأساً أم انه تسلمها بواسطة أحد غير القاضي ؟ .. ثم التحقيق ثانية هل أحد أطلع على الرسالة أو تسلمها بعد أن أخذها من يد القاضي ؟.. وعلى الفور جيء بالرسول وتولى التحقيق معه عبيد فسأله ممن تسلم الرسالة فقال :

ــ انه تسلمها من القاضي يداً بيد ... فنهره عبيد قائلاً :

ــ أفدنا لمن سلمت الرسالة بعدما تسلمتها من القاضي ؟..

فارتبك وبدت على وجهه علامات الخوف ، فصرخ به عبيد ثانية بقوله :

ـ أخبرنا بالحقيقة ولا تخف وإلا فسوف نتخذ نحوك أشد العقوبات لأنه ثبت لدينا بأن القصيدة قد أدخل فيها بيت لم يقله القاضي .

فأجاب وهو يرتعش بالأمر الواقع ، وعندئذ سر طلال وعمه لا من حيث أن هذا البيت ليس من شعر القاضي فحسب ، بل لكونهما أدركا بثاقب فكرهما ما حاكه الأمير زامل بن سليم ، وكانت النتيجة ان طلالاً اعتبر ان هذا البيت الذي أدخله ابن سليم في صلب هذه القصيدة ، فيه تحد لسخائه ، علاوة على أنه يقصد الحط من قيمة الشاعر وقصيدته ، ولذلك أمر رسولاً من عنده يحمل اربعمائة مجيدي ، واربع عباءات بدلاً من مائة المجيدي والعباءة الواحدة وخوفاً من أن القاضي يرفض قبول الهبة ، من أجل ذلك كتب طلال رسالة يشرح فيها الاسباب التي جعلته يقدم له هذه الهدية وعندما وصل رسول طلال للقاضي وقدم له الرسالة وبعد أن قرأها قدم له الهبة الكريمة حيث كان مثل هذا المبلغ في ذلك العهد يعتبر ثروة كبيرة ، وعلى الفور ذهب القاضي الى قصر امير البلاد زامل وسلمه رسالة طلال الموجهة اليه أي الى القاضي التي لم تترك شاردة ولا واردة من الشرح لتطور القضية ومن معرفتهم إلى كشف الحقيقة ومن العبارات المليئة بالتقدير من طلال الى صديقه الشاعر وبالتالي قدم له الهبة التي وصلت اليه ، وراح الشاعر يشكر زاملا على تصرفه هذا الذي أحسن به اليه من حيث انه يقصد الاساءة ، أما زامل فانه بعد ما قرأ الرسالة وفاجأه القاضي بالهدية لم يكن من أمره إلا أن ازداد حقداً على حقد وراح يهجو القاضي بقصيدة لم يصلني منها سوى هذين البيتين :

وَراهْ تَمرْجِكَ يا زباده(١) يزيدِ
ضِدّ مِدحْ ضِدّهْ ولا سَرّ الاقراب

طــلال ما ينفعه منك المجيدِ
نجم ظهر عِزّي لِرَبْعَهْ الى غابْ

يقول زامل في البيت الاول ان شعرك هذا كله فضول وليس فيه فائـــدة لمواطنيك اللهم الا انك كلت المديح والثناء لعدونا وعدوك بدون ان تفيد اقاربك بشيء . وفي صدر البيت الثاني يقول ان اطراءك لطلال وتمجيدك له لن يرفع من قدره . وفي عجز البيت يقول : ان طلالاً أشبه ما يكون بالنجم المتـــألق في السماء فاذا قدر لهذا النجم ان يسقط فان سقوطه سيكون نكبة على بني قومه . وسوف يصلون بعد موته الى درجة يرثى لهم من الهبوط اليهـا . ثم جاء بالبيت سالف الذكر وختم به البيتين واعني به البيت الذي أدخله ضمن قصيدة القـاضي المرسلة لطلال وهو قوله :

أبي منك يا شيخ منّة مِجِيدي
مع مشلَح يا شيخ ترَى مِشْلِحي ذاب

وهو عندما يأتي بهذا البيت يقصد ان يقول : ان غايتك من هــذه القصيدة مبنية على هدف مادي وهو الحصول على هذه الهبة ..

هذا وقد افترق الإثنان وكل في نفسه ما فيهـا من الحقد على صاحبه ، وكان زامل أكثر حقداً لا من اجل الهبة التي منحهـــا طلال للشاعر ولكن من حيث أواصر الصداقة التي نمت وازدادت رسوخاً بين طلال وبين القاضي .

١ ـ كفه زيادة اراد بها زامل تحقيرا للشاعر كلقب مشين وهو لقب لا معنى له .

نعي ووفاء !

وفي الحين الذي كانت الصداقة بين القاضي وطلال على خير ما يرام ، فوجيء الاخير بنعي صاحبه ، فكانت الفاجعة كبيرة ، ومما يزيد القاضي حزناً على صديقه الحميم هو ان موته لم يكن طبيعياً ولم يكن ايضاً قتيل معركة ، فلو كانت الثانية لهانت عليه المصيبة اذ ان ذلك مما يعينه على شحذ قريحته بقصيدة يرثيه بها .. ولكن المصيبة ان صاحبه مات منتحراً ، ولكن هذا كله لم يمنع القاضي من أن يرثي صاحبه بقصيدة (فائية) ، كانت ولا شك من أروع قصائده ، لان فيها من المواعظ والحكم ما يثير الاعجاب ، كما ان فيها من الادلة ما يثبت صحة القصة .

وخذ قصيدة القاضي التي تعبر عن وفائه وهي تزيد على اربعين بيتاً ، ولست بحاجة الى سردها بكاملها وإنما أود ان آتي بمطلع القصيدة وببعض الشواهد منها .

يقول الشاعر في مطلع قصيدته :

أجَلْ عَنْكَ ما الدّنيا إلى عاهدتْ تافي
تزَخْرَفُ وهي لا بُدّ يَبْقى لها قافي

الشرح : يقول في صدر البيت : اجل ان الدنيا لا يوثق بعهودها .. وفي عجز البيت يقول : ان الدنيا تغري المرء بزخارفها وعيشها اللذيذ ،ولكن لا بد ما يأتي بعد ذلك ما يكدر صفو العيش .

مِنُون بَنَوّ الخَيْر عَجِلَ إلى ادْبَرَتْ
فهيْ مِثِلْ حلم الليلُ يشكِلْ على الغافي

الشرح : ان الدنيا لا تعطيك شيأ الا وتسليه منك في نهاية المطاف والجيل

الذي تسديه اليوم سوف تمن عليك به غداً ، ونعيمها أشبه ما يكون بحلم النائم .

يدير الفلكُ دولابهـــا لِئِنْ يِنتهي
سريعٍ ترددها بتكديرهـــا الصـــافي

اعتقد ان معنى هذا البيت لا يحتاج الى شرح .

على شان جيرتها كثير همومهـــا
ولاقط منهـــا واحد راح مستافي

يقول ان كل انسان رأى منها من الهم والغم ما يكدر صفو عيشه .

شاهدتْ منها ما مضى من عجائبْ
يسعد بها جيل وجيل بها هافي

المعنى : يرى المرء في هذه الدنيا عجائب كثيرة فقوم يرون فيهـا سعادة مؤجلة وآخرون لا يرون فيها الا البؤس والشقاء .

أعطت طلال الملكْ لِئِنَ امهلت له
تزخرف على وجهه بتجميع الاصناف
يوم استتمت له وُجَتْ له على المُنَى
جرى من سبب كفه على نفسه اتلافِ

كل تلك الابيات مقدمة لهذين البيتين وما بعدهما وقـــد بدأ الآن برثائه لصديقه فيقول في البيت الاول والثاني ان الدنيا جاءت لطلال على ما يهوى ويريد حتى بلغ بها الذروة ولكن بعدما تم له النعيم وظن انه قادر على السيطرة عليها عند ذلك انقلبت عليه وكانت نتيجتها انها خدعته حتى ان موته جاء من كفه على نفسه .

وتملكت (١) غيره وهي في حباله
وهي منه حبلى قاربٍ شهرها وافي

يصف الشاعر ما فعلته الدنيا بطلال فيقول انهـــا اشبه مـا تكون بالفتاة الحسناء التي نكحها شاب بطريقة شرعية وذلك بعد مـــا اغرته بجمالها الفاتن ، ولكن بعد ما استولى عليها ووثق بوفائها نشزت عنـه واستبدلته ببعل سواه ، وانكحت نفسها من ذلك البعل الجديد في الحين الذي كانت حبلى مـن معشوقها الاول وعلى وشك من ان تضع جنينها من ذلك الاسبق .

حنّت عليه جْبالْ حائِلْ ومنْ بها
من الجار والجالين وصنوف الاضياف

يقول : بكى على طلال مدينة حائل وجبلا طيء (يقصد اجاء وسلمى) كما بكى عليـــه المستجيرون به واللاجئون والضيوف في شتى البلاد ومن مختلف الاصناف .

عمارَ الجبلْ سور الجبلْ هيبة الجبلْ
حمى حوز (٢) جانبها بشذرات الاسياف

يقول : ان حياته كانت عمراناً وخـــيراً لبلاده جبلي طيء وحصناً منيعاً لمواطنيه ...

قلت ان القصيدة طويـلة ولا داعي لسردها وانما نكتفي بالشاهد منهـا ..

١- في ديوان خالد الفرج يقول : (وتملك بهـــا غيره وهي في حباله) ولكن الصواب الذي كنت احفظه من قبل ما ذكرته لانه اوضح معنى .
٢- في الديوان الذي طبعـــه الاستاذ خالد الفرج يقول : (حمى دون ساكنها بشرفات الاسياف) .. وهذا خطأ لان كلمة (شرفات) لا معنى لها .. والمعروف هو شذرات .

ومما هو جـــدير بالملاحظة هو اننا نرى ان القاضي اسهب بثنائـه على طلال في الابيات الانفة الذكر من هـذه القصيدة وفي الابيات الاخرى التي لم نوردها .. ولكن شيئاً واحداً لم نر ان القاضي ابدى شيئاً من التوجع او التفجع على رفيقه في جميع قصيدته كما يفعله كثير من الشعراء الاوفياء في حالة الرثاء لاصدقائهم .

والذي يبدو لي ان القاضي لم تغب عن ذهنه هذه الناحية والذي نظم مـــا يزيد على اربعين بيتاً لا يعجز من ان ينشد ابياتاً يعبر بها عـن الاثر السيء الذي اصابه عندما بلغه موت صديقه الحميم . ولكن الذي اعتقده انه ترك الاشارة الى هذه الناحية عامداً متعمداً لأن اي معنى من المعاني التي يثبت فيهـــا القاضي شكواه ويعلن فيها حزنه ، فان ذلك مما يحمل عدوه زاملا يشمت به .. وهذا مـــا جعله في نظري يسر شكواه ، ويكتفي برثائه المليء بالموعظة كعزاء لنفسه ، والطافح بالثناء والاطراء لصديقه الراحل .

الرجل يزهو باقبال دولته ويذوى بادبارها

- ٤١ -

كما ان الارض اذا نزل عليها الماء ربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، واذا امتنع عنها الماء امحلت واغبرت ، كذلك الانسان عندما يتمتع بحرية جمة وعز أثيل ومجد شامخ تنمو صحته وتبرز شخصيته في مجتمعه ويصبح كلامه مسموعاً ورأيه مقبولاً وسيئاته حسنة وخطأه صواباً ..

ولئن كان الشاهد الذي سوف نورده بهذا الصدد شاهداً فردياً ، فانه يصح ان يسري مفعوله على الجماعات وعلى الشعوب بل وعلى الدول ..

وليس الفضل للذي أدرك كنه هذه الظاهرة بعدما يتحقق مفعولها عليه او على غيره من الناس ومن ثم تصبح حقيقة لا تحتاج الى دليل ، وانما الفضل يعود لمن نظر اليها كقضية واقعية وهو في القمة من زهو المجد وازدهار العز ؛ اعني به الامام (١) عبدالله الفيصل آل سعود الذي عندما قال له حمود العبيد الرشيد :

---

١ - كلمة الامام بذلك العهد اشبه ما يكون معناها بخليفة المسلمين ، وهذه الصفة خاصة بولاة الامر من آل سعود وما زال هذا اللقب لاصقاً بحكامهم حتى النصف الاخير من عهد المغفور له الملك عبد العزيز .

– انني معجب بكياسة وكفاءة (مضايفيك) (١) محمد السبيتي ..

فأجابه الامام قائلاً :

– ان السر في اعجابك به ليس بجرد كفاءته وخلقه ، وانما هو اقبال دولة رجاله ، ولو تبدل ذلك الاقبال لتبدلت نظرتك اليه والى من هو اكبر منه ..

ولم يكن حمود العبيد منفردا باعجابه بالسبيتي بل كل وافد يفد الى الامام في عاصمته الرياض كان يشارك حمودا الرأي باعجابه بالسبيتي ، وانما كان حمود اكثر اعجاباً به من غيره الى الحد أنه عندما يعود الى بلاده يكون السبيتي موضع حديثه بين ابنائه وفي مجتمعاته وعندما يرى ادنى قصور من (مضايفي) ابن عمه الامير محمد الرشيد يصيح به قائلاً :

– ينبغي ان تذهب للرياض وتظل اياماً هناك لتأخذ درساً من السبيتي الذي كذا صفته وخلقه الخ ...

وهكذا كان حمود معجباً بالسبيتي وداعية له الى الحد الذي جعل من لا يعرف السبيتي من اهل البلاد يود ان تسنح له الفرصة التي يسافر فيها الى الرياض ليتعرف على السبيتي ويقتبس من سيرته واخلاقه ..

ولما كانت الدنيا كما وصفها بعض رجال السلف الصالح بقوله : (ان الدنيا تمر وتمِر بضم الميم الاول وكسر الميم الثاني وتسر وتضر وتغر) .. فقد مرت بنعيمها كوميض البرق على الامام عبد الله الفيصل واسقته المرارة كمادتها ، الا ان الامام لم ينخدع بغرورها من الاساس ..

لقد تبدلت الاوضاع وجاء الامام عبد الله الفيصل الى امارة الرشيد بحائل

---

١ ـ مضايفي هو ما يعبر عنه اليوم برئيس التشريفات

اعزل من الحكم وذلك في عام ١٣٠٩ ..

وجاء السبيتي الى حائـــل ضمن عشرات الرجال من حاشية الامام وأصبح الذين يتمنون رؤيته في الرياض بامكانهم ان ينظروا اليــه ويقتبسوا من سلوكه واخلاقه عن كثب ، فهب الكثيرون من شباب اهل البلاد ورجالها يسلمون على الامام ويحاولون ان يتعرفوا على السبيتي ذى السمعة الطيبة التي أشبه ما تكون بعبيق المسك ..

ولكن المشكلة ان كل واحد تعرف على السبيتي من اهــل البلاد ، عاد وهو يعتقد أن السبيتي هذا خلاف السبيتي الذي يحدثهم عنه حمود العبيد ، فهذا رجل دون الحد الوسط ذكاء وكياسة وعقلا ومنطقاً ، فلا بــد والحالة هذه اما ان يكون حمود مخطئاً في نظريته وهذا شيء بعيد جداً لان حمودا من النفر الذين قل ان يخطئوا في تحليل شخصية الرجال واما ان هناك سبيتاً آخر غير هذا السبيتي الذي رأوه ووجدوه بعد الحديث معه أقل بكثير مما نعته به حمود .

فرأى القوم ان لا بد من ان يختاروا رجلا ليتحقق من حمود عن السبيتي .. فتعهد بالقيام بهذه المهمــة الابن الاكبر لحمود المدعو (ماجد) (١) فراح الإبن يلقي على والده السؤال التالي قائلا :

– هل السبيتي الذي نراه الآن هو السبيتي الذي كنـــا نسمعك تطريـــه بالكمال ؟ .. ام ان هناك سبيتاً غير هذا ؟ ..

– بل هذا هو بالذات ؟ ..

– ان يكن هو فارجو ان لا تؤاخذني يا والدي فيما اذا قلت انني لم اذكر ان فراستك في الرجال اخطأت كما اخطأت بالسبيتي ..

---

١ – ما جد من ارجح اسرته عقلا ..

-- كيف حكمت عليّ بهذه السرعة .. ؟

– كنت تنعت السبيتي بصفات من الكمال لم يكن لديه الآن واحدة منها ..

– كنت على صواب برأيي فيه بالسابق كما انك لست مخطئاً يا بني في رأيك فيه الآن ..

– كيف الجمع بين الرأيين ؟ ..

– الجمع بين ذلك هو فارق الزمان واختلاف الظرف بين رؤيتي له وبين رؤيتك له ، فأنت رأيته بعد زوال دولته وذهاب مجده والمرء اذا طرأ على حياته تبدل مفاجيء تذوب شخصيته وتنقلب اوضاعه رأساً على عقب .. ولهذا يكون الامر طبيعياً بالنسبة اليك فيما اذا رأيته بعين الازدراء .. اما انا فقد رأيته في عنفوان سلطان دولته وفي ابان مجده .. ولو رأيته بالعين التي رأيته بها لعلمت انني لم اوفه حقه من الثناء الذي سمعته مني ..

– لقد ارشدتني يا والدي الى حكمة كانت غائبة عن تفكيري ..

– الفضل بذلك يعود لمن ارشدني اليها قبل ان يتحقق مفعولها ..

– من هو الذي تشير اليه ؟ ..

– الامام عبد الله الفيصل الذي نبهني الى ذلك ..

ثم راح الشيخ يروي القصة من اولها شارحاً تنبوأت الامام بما يعتري رئيس تشريفاته من تبدل فيما اذا تبدلت دولته وتغير زمانه ..

كان ايماني بهذه النظرية هو الذي جعلني لم انخدع ابداً بالدعاية التي روجها الصهيونيون بتشويه سمعة الفلسطينيين ، فقد كنت ادافع عنهم بحجة انهم اناس شردوا من اوطانهم وارهقتهم النكبة المفاجئة ، واصبح لديهم من العذر ما يشفع لهم فيما اذا اعترى بعضهم شيء من الخمول .. لان قصة السبيتي هذه وان كانت فردية ولكنها كما ذكرت آنفاً يصح ان تقاس على الجماعات والشعوب . ومن

يعرف تاريخ الفلسطينيين جيدا منذ عهد صلاح الدين الايوبي الى ما قبل النكبة يدرك انهم من اشم الشعوب العربية انفا واقواهم شكيمة واشدهم بأسا (١) .

١ـ راجع كتاب : (قالها الصهاينة وصدقها مغفلو العرب) للمؤلف .

تنبوء بما سيكون ، ودفاع عن الشعراء كافة

- ٤٢ -

جرت شائعة قوية عند بعض البدو تشير بأن الشاعر غالباً ما يكون جباناً . . ولست اعلم من اين جاءوا بهذه النظرية ، فقد يقال ان حسان ابن ثابت شاعر الاسلام والجاهلية كان جباناً ، مع ان بعض الكتاب والمؤرخين فندوا تلك الدعوى التي تنسب لحسان ، وحتى لو قدرنا ان حسان جبان فهل يحكم على مئات او الوف الشعراء بالجبن ؟ . .

وبطل هذه القصة شاعر يدعى (عدوان الهربيد) من قبيلة شمر نجد ، ارتحل فخذ من قبيلته ونزل في مكان خصب ، ولكنه بعيد عن منازل قبيلته ، ويحيط بهؤلاء اعداء من كل جانب ، وهذا المكان يقع غرباً عن منازل قبيلة شمر وهو الى حدود الاردن حالياً التي تقطنها قبيلة الحويطات وقبيلة بني صخر وقبيلة الرولة اقرب منه كثيراً من الحدود التي يقطنها قبيلة شمر . وهذا مما جعل الشاعر عدوان الهربيد يخشى كثيراً من ان يغزوه اعداؤه فلا يجد من يناصره ، ولذلك راح ينصح قومه بالرحيل عن هذا المنزل الذي وان كان وافر الكلأ . ولكنه واثق بأن بقاءهم فيه سيجعلهم مهددين بغارات العدو بين عشية وضحاها ، ولكن

نصائحه لقومه وما يبديه من رأي سديد، كل ذلك كان يقابل بالسخرية والعناد من بعض الشباب المتهورين من فتيان قومه ، وكانوا يرون ان تشاؤمه ليس الا نتيجة جبن وذعر استوليا على فؤاده .. وأكثر من يصمه بالجبن ويسترسل بترويج هذه الشائعات فتيان : يدعى احدهما سُعَيْد ، والثاني يدعى اسماعيل . وكان الاول اشد هجوماً من رفيقه وكثيراً ما كان يهاجمه وجهاً لوجه قائلا :

– انك انهزامي وجبان بدليل انك شاعر وما من شاعر الا ويكون جبانا.. فيرد عليه الهربيد قائلا :

– هناك فرق بين الانتحار وبين الشجاعة .. واذا كنت تعتقد بان بقاءنا في هذه الارض شجاعة فانني اعتقد انه انتحار ودليل على حماقتك وعدم تقديرك لنتائج الامور(وعلى عدم اكتراثك بما يلحق رجالنا من قتل واموالنا من نهب ونساءنا من ترميل واطفالنا من تيتيم وتشتيت ..

وكان الجواب من (سعيد) تكراراً للجواب السابق اي ينعته بالجبن لانه شاعر .. وان الجبن في الشاعر سجية راسخة في خلقه. وعند ذلك جادت قريحة الشاعر وأنشد قصيدة تحمل طابعين : الاول انه تنبأ بالمعركة التي سوف يصبها عليهم الاعداء والتي سوف يلاقي حتفه بها (سعيد) لا محالة ، والثاني انه أثبت في هذه القصيدة ان هناك ما يزيد عن اربعين شاعر من شعراء العرب كلهم شجعان في الهيجاء وأسخياء وزعماء . والجدير بالذكر ان العدد الذي ذكره الهربيد بقصيدته كلهم من الشعراء الشعبيين ومن الذين وردت أسماء الكثيرين منهم في صفحات كتابنا هذا (من شيم العرب) ولم يذكر الشاعر من شعراء العرب الا اثنين من شعراء الجاهلية وهما : عنترة العبسي وحاتم الطائي ..واليك الصيدة :

المجلس اللّي بَه اسْماعيلْ .وسْعَيْد
ينعافْ لو قَربَه . على الكَبْد غالي

المنى : المجلس لغة جمعه مجالس ، اللي : دائماً تستعمل بمعنى الذي ،والشاعر يقول ان النادي الذي يضم اسماعيل وسعيداً يجب ان اهجره حتى ولو كان يضم رجالاً محبوبين ..

اسماعيل ما سمته ُ ـوت الأجاويد
وسْعَيْد ما داجوا عليه الرجال

يهجو الشاعر كلا من اسماعيل وسعيداً ويقول : ان الاول لم يتصف بصفات الرجال الأفاضل النبلاء ، كما ان الثاني بخيل لم يدخل منزله الرجال الكرام ..

غياً لك الضمْران والفرسْ يا سْعَيْد
يا َجعِلْ ما لَحَمَاضَ الاطنْماسْ تال

(غي لك) بمعنى اغراك و (الضمران والفرس) نوعان من انواع العشب. فالشاعر هنا يقول : لقد اغراك الكلأ عن نظرة المستقبل . ثم يعود ويقول : ألا قبح الله هذه المغريات التي ستكون عاقبتها وخيمة ..

يا سعيد هَرْجَكْ بَه مْغير أو تَراديدْ
تـوقر من الهرج الرخيص الجمالِ

يقول انك يا سعيد تتكلم كلاماً كثيراً رخيصاً يعجز عن حمله الجمال ..

وحَكْيٍ على اكناف العذارى مناقيدْ
ولا يطيّب الصبيان كود الفِعالِ

وانك تتبجح بالحديث امام النساء وان الفتيان الشجعان لا يتحدثون وانما يعملون ..

أخافْ من جيشٍ كثير العراجيدْ
يضيمنـــا يا سعيّدٍ بالأحمالِ

أنا أخشى ان نهاجم بجيش عرمرم يفوقنا عدداً وعدة .

أنا بـــلايْ مزهبّـين البواريـدْ
وأهـل السيوف ميتمين العيالِ
ما بين شُمطـان اللحا والأواليدْ
نضّتِ عيالِ فوقْ مثلْ السيالِ

البيت السابع والثامن كلاهما يحملان معنى واحداً..افيقول الشاعر انا اخشى ان يهاجمنا رجال بين الشباب ومتوسطي العمر الذين يحملون السلاح الشيء الذي لم يكن موجوداً لدينا ويزيدون علينا بعدد خيولهم .. وأناس بهذه الصفة سوف ييتمون ابناءنا بدون ان نربح طائلا منهم ..

يا سعيد لو تُضرَبْ على دارة الدّيد
بزَرْقاه تسلْ الرّوحْ بالاشتعالِ
بِدْيار مُربيَةْ البَقرِ مَرتَع الصّيدْ
ما عندك اللّي عن حوَلك يسالِ

يقول انا أتنبأ بموجب اصرارك هذا بأنك سوف تطعن برمح مسنون وسيكون موقع الطعنة في ثديك .. وذلك في هذا المكان الذي ليس فيه من رجال قبيلتك من ينجدك .. وموضع الغرابة هنا ان سعيداً هذا قُتل من إصابة سنان الرمح الذي طعن في نفس المكان من جسده الذي وصفه الشاعر فلقي حتفه فوراً .. وهذا ما تنبأ به الشاعر .

عَمَيْتْ بالسايه جميــع القواصيدْ
ما قلت بالشعّار طامن وعالِ

يلوم الشاعر سعيداً قائلا : انك باتهـامك هذا الشعراء بالجبن أسأت اساءة كبيرة الى جميــع الشعراء ، فالأجـــدر بك ان تقول ان الشعراء فيهم الشجاع وفيهم الجبان ..

عمّيت نمر ١ والمهادي ٢ وابا زيد ٣
عزّ الضّمن حبس الكمين الهلالي
ومشعان ٤ والطيّار ٥ وعقاب ٦ وعبيد ٧
وعبد الله ٨ المصطور فرز العيال
والعسكري ٩ وهديب ١٠ ومصيخ ١١ ورشيد ١٢
وحسين ١٣ حماي الركاب التوالي
وجمل ١٤ وابن حثلين ١٥ والفقم ١٥ ورشيد ١٧
وعنتر ١٨ الى ما اعادل الشيل مالي
وارميزان ١٩ هو والعرفجي ٢٠ مع ابن زيد
وساجر ٢١ مسوى للذلول النعال
وصعب ٢٢ من الصيداد سقم الاضاديد
وابن سعود ٢٣ سعود راع العوالي
حتى الشريف ٢٤ اللي يقولون يا سعيد
وحاتم ٢٥ بعد معطي العطايا الجزالي
وابن دعيج ٢٦ اللي كرمته كأنها العيد
وابن سمير ٢٧ اللي بقرن الشمالي
وحطاب ٢٨ اللي بالصحن ينفض الغيد
وبراك ٢٩ مخيّي بالركاب الهزالي
ومفير ٣٠ ابن غازي ونومان ٣١ يا سعيد
ابن الحشور الى اعتلاه الجفالي
وجدعان ٣٢ نحار السمان المصاعيد
مودع مع الدعثور مثل الغزال
وتركي ٣٣ زبون مدللات المثابيد
وفهد ٣٤ زبون مجنفرات المفالي

والأشمــل ٣٥ اللي من مناه التراديد
ومطلق ٣٦ مطبق بالغــدير الزلال

دبح بهم يا سعيد صدر وتوريد
وفهق وتقليط وفتــل وفعــالي

هـذا العدد البالغ ستة وثلاثين شاعراً كلهم مشهورون بالشجاعـة والكرم والمروءة وسداد الرأي ، وكان غاية الشاعر ان يفند حجة خصومه القائلين بأن الشاعر جبان،ويقال ان العدد كان اربعين شاعراً ، وعلى هذا فان الذين لمْ نعرف اسماءهم ستة ولم آت بالقصيدة كاملة وانما أتيت بالشواهد للقصة فقط ..

والشاعر الهربيد بقصيدته هذه قدم لنا قاموساً بأسماء شعراء الجزيرة العربية في الزمن الماضي ، مع العلم انــه لم يذكر اسم الشاعر من حيث هو شاعر فقط ، وانما اختار اسمـاء الشعراء الذين جمعوا بين الزعامة والشجاعـة والكرم وسداد الرأي .

اما تنبوء الشاعر بالمستقبل الذي سوف يلاقيه خصمه سعيد فقد تحقق فعلا ، وذلك انه نتيجة لعنـاد سعيد أصيب برماح العـدو بطعنة وقعت في المكان الذي حدده الشاعر من جسد سعيد ، فلقي حتفه فور اصابته القاتلة .

***

واليك تراجم الشعراء

١ : نمر بن عدوان : شاعر ورئيس عشيرة واكثر شعره غزل وهو من بادية شرق الاردن .

٢ : المهادي : راجع ص ١٨ ج ١ الطبعة الثانية من شيم العرب .

٣ : يقصد ابا زيد الهلالي الذي تروى عنه الاساطير .

٤ : مشعان : يقصد ابن هذال رئيس قبيلة العمارات من عنزة .

٥ : الطيار : هو كنعان الطيار شاعر وفارس ورئيس عشيرةولد علي من عنزه . راجع ص ٢٠٢ ج ١ من شيم العرب الطبعة الثانية .

٦ : عقاب العواجي : فارس ووئيس عشيرة ولد سليمان من عنزه .راجع ض ١٣ ج ١ الطبعة الثانية من شيم العرب .

٧ : عبيـد بن رشيد : شاعر وفارس موهوب . راجع ص ج من شيم العرب .

٨ : عبدالله بن رشيد : راجع ص ١٧٤ ح ١ الطبعة الثانية من شيم العرب.

٩ ـ ١٠ ـ ١١ : لم اعرف هؤلاء الثلاثة .

١٢ : رشيد بن طوعان : شاعر وشجاع من قبيلة شمر .

١٣ : حسين الذنيب : شاعر وفارس من قبيلة شمر .

١٤ : جمل بن لبدة من رؤساء قبيلة قحطان ومن فرسان العرب .

١٥ : يقصد راكان بن حثلين رئيس قبيلة العجمان وهو فارس ذائع الصيت وشاعر مطبوع .

١٦ : الفغم : من قبيلة مطير وكلمة الفغم كنية له اما اسمه فلا اعرفه .

١٧ : فهيد يقصد فهيد بن معبهـل بن شعلان من قبيلة الرولة ، وهو ان عم محمد بن معبهل الذي جاء ذكره بصفحة ٢٥٣ ج ٣ من شيم العرب .

١٨ : يعني عنترة العبسي فارس العرب المشهور وهو يـدعى عندنا بعنتر اي تحذف من اسمه التاء المربوطة التي تشير الى التأنيث . واعتقـد ان شاعرنا لا يعرف من شعراء العربيـة الفصحى الا عنترة وحاتم الطائي الآتي اسمه .

١٩ : رميزان بن غشام : شاعر وسخي وشجاع ، وهو من بني تميم . من اهل القرن الحادي عشر .

٢٠ : يشير الى محمد بن عرفج من آل ابو عليان من رؤساء مدينة بريدة في الزمان السابق وهو شاعر سديد الرأي .

٢١ : ساجر الرفدى : له شهرة بالشجاعة كبيرة خاصة في شمال الجزيرة وهو من قبيلة عنزة .

٢٢ : يعني صعب الصديد من رؤساء قبيلة شمر الفرات ومن فرسان القبيلة.

٢٣ : يعني سعود بن عبد العزيز الاول ابن سعود الذي وحد الجزيرة في بداية القرن الهجري الماضي .

٢٤ : يقصد الشريف بركات من أشراف مكة وهو صاحب القصيدة الشعبية الكافية . راجع كتاب المؤلف بين الافساد والاصلاح ص ١٥ .

٢٥ : يعني حاتم الطائي كريم العرب المشهور .

٢٦ : ابن دعيج : لم أوفق لمعرفة اسمه والشاعر هنا ينعته بالسخاء المتناهي.

٢٧ : اما ابن سمير فهو يقصد محمد بن سمير راجع ج ٢ ص ٣٣ الى ٤٣ من شيم العرب .

٢٨ : حطاب هو من زعماء بلدة الجوف اي دومة الجندل وشعره كله حماس ومهيج وهو سخي متلاف .

٢٩ : براك : امير قرية بقعاء التي هي احدى قرى مدينة حائل . والشاعر هنا ينعته بالكرم وهو مشهور هو وأسرته بالسخاء .

٣٠ : مغير بن غازي : من قبيلة شمر ومن الرجال المعروفين بالشجاعة والكرم . راجع ج ٥ ص ٠٠٠ من شيم العرب .

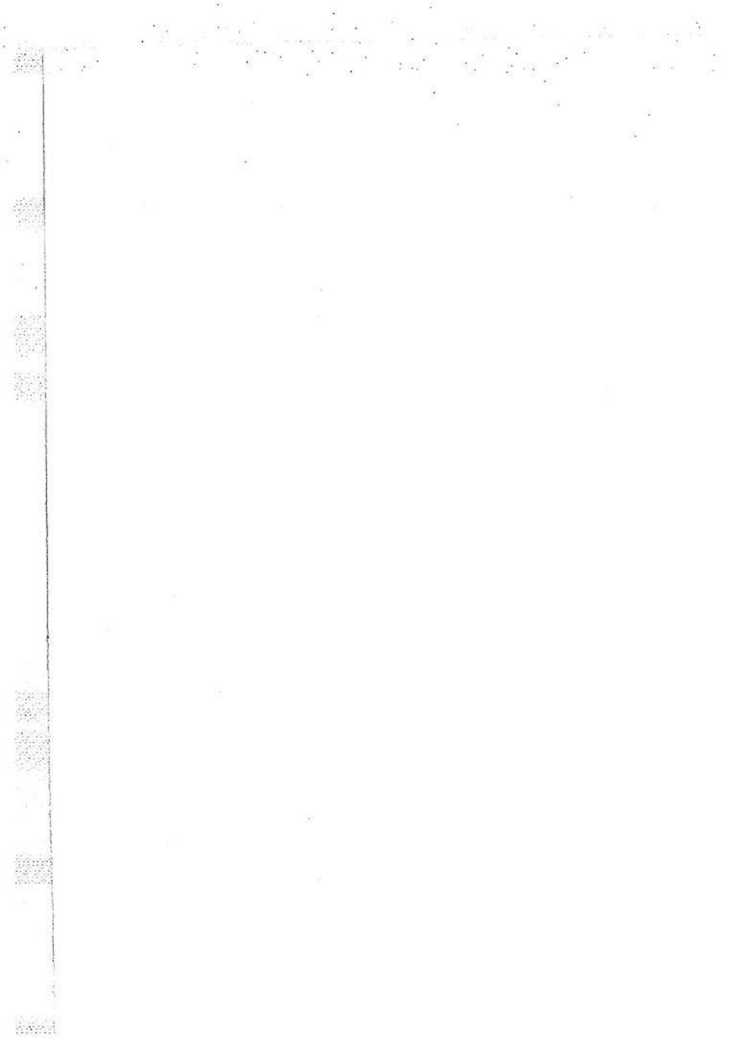
٣١ : يشير الى الفارس نومان الحسيني وهو من فرسان قبيلة الظفير وله قصة طويلة راجعها في ج ٣ ص ١٦٠ الى ١٦٩ من شيم العرب .

٣٢ : هو جدعان بن مهيد رئيس الفدعان من قبيلة عنزة وأسرة ابن مهيد مشهورة بالكرم راجع ص ٠٠٠ ج ٠ من شيم العرب .

٣٣ : يعني تركي بن مهيد بن جدعان سالف الذكر . راجع ص ٢٣٦ ج٣

٣٣ : يقصد فهد بن شعلان رئيس قبيلة الرولة .

٣٥ : الاشمل : يقصد بنية الجرباء شقيق مطلق الجرباء رئيس قبيلة شمر قاطبة منذ قرنين مضيا . راجع التعليق في ص ٦٨ الطبعة الثانية من شيم العرب . ج ١



فهرس الجزء الرابع



استدراك

على الرغم من الجهود التي بذلت دون وقوع بعض الغلطات المطبعية . وعلى الرغم من وضع جدول موضحا فيه الخطأ والصواب ، فقد وقع بعض الغلطات المطبعية الجزئيه التي لا تخفى على القارىء الكريم ، وكان ضيق وقت المؤلف المحصور باجازته الاداريه من اهم الاشياء التي قضت بعدم وجود الوقت الكافي لتصحيح كتاب كهذا الكتاب البالغ صفحاتـــه ما يزيد عن الف صفحه ونيف والشيء الذي استرعي كريم انتباه القارىء اليه هو ان الكثير من الغلطـــات وقعت في القصائد الشعبية التي يقدر ما تفوت على اصحاب المطبعة بحكم جهلهم بمعرفتهـــا بقدر ما تفوت علي ايضا لانني حافظ لها غيبا مما يجعلني اقرأها بعقلي اكثر من قراءتي لها بعيني ، واعتقد جازما انه لولا وجود الاستاذ حمد الجاسر العالم بالادب الشعبي كعلمه بالادب العربي لولا ذلك لوقع من الغلطات في القصائد الشعبيه ما هو اكثر من ذلك .